الانقلاب العثماني



جُرجي زيدان

الانقلاب العثمانى

تشرح أحوال الأتراك فى آخر عهد السلطان عبد الحميد ،
مع وصف حياته فى يلدز وقصورها ، وجواسيسه وأعوانه .
الى فوز جمعية الاتحاد والترقى بنيل الدستور فى سنة ١٩٠٨

جرجى زيدان

أبطال الرواية

عبد الحميد خان	: السلطان العثمانى
أحمد نور الدين	: ابن السلطان عبد الحميد
نيازى بك	: من زعماء الاحرار
أنور باشا	: من زعماء جمعية الاتحاد والترقى
ناظم بك	: قائد جند سلانيك
نادر أغا	: رئيس اغوات يلدز
شيرين	: فتاة تركية
طهماز	: والد شيرين
توحيدة	: والدة شيرين
رامز	: من زعماء جمعية الاتحاد والترقى
صائب	: جاسوس عثمانى
سرخفية	: رئيس جواسيس السلطان
القادين ج	: من جوارى السلطان
والدة سلطانة	: رئيسة دور الحريم
فوزى بك	: أحد قواد الحرس الالبانى
سعيد بك	: من زعماء جمعية الاتحاد والترقى

شيرين ورامز

سلانيك او سالونيك من اكبر مدن المملكة العثمانية ، وقد اشتهرت بنيل الدستور على أيدى أحرارها . وهى واقعة على البحر ، وسكانها نحو ١٥٠ الفا ، منهم ستون الفا من اليهود ، والباقون من الاتراك والأروام والمقدونيين والألبان وسائر الاجناس . والسبب فى كثرة يهودها انهم نزحوا اليها من أسبانيا ، كما نزحوا الى الاستانة وغيرها . ولا يزالون يتكلمون لغة الأسبان . وللمدينة رصيف عريض يمتد على شاطىء البحر قد غرست الأشجار على جانبيه ، تحده المنازل الفخمة من جهة والبحر من الجهة الأخرى ، وهو أجل متنزهات سلانيك ، يؤمه الناس ساعات النزهة فى العربات أو الترام أو مشاة على الأقدام

وفى سلانيك حديقة للبلدية هى احسن متنزه لتمضية الأوقات فى المنادمة والمحادثة، وهى كبيرة واسعة، فيها كل أنواع الأشجار والرياحين والأزهار، وفيها مطاعم ومقاه ومسرح ، وتشبه الى حد كبير حديقة بتى شان فى الأستانة ، وحديقة الأزبكية فى مصر يقصدها طلاب التنزه او اللهو نهارا وليلا ، افرادا وجماعات ، وفيهم الشاب والشيخ والصبية والعجوز من مختلف الاديان والاجناس . من الافرنج واليهود والأتراك على تباين عاداتهم وأخلاقهم . فيجلس بعضهم الى موائد يتعاطون المشروبات ، ويتمشى بعضهم فى طرقات الحديقة بين الأشجار وكل منهم فى شاغل بنفسه أو بعائلته وأولاده يراعيهم ويهيىء لهم ما يطلبون ، أو يتحدثون بما يطيب لهم بلا مراقبة ولا حذر

اما فى زمن الاستبداد ، على عهد عبد الحميد ، فكان الناس اذا دخلوا الحديقة أو غيرها من أماكن الاجتماع لا يتخاطبون الا همسا ، خوفا من جاسوس أو واش يغتنم لفظة يسمعها فيبادر بنقلها الى أولى الشأن فيعرض قائلها للموت أو السجن . وقد لا يكون لذلك القول غرض أو مغزى ، ولكن الجاسوسية فى زمن ذلك السلطان بلغت مبلغا لم يكن له مثيل فى زمن من الأزمان ، ولا سيما فى أواخر ايامه اذ تبدأ روايتنا هذه

ففى أصيل يوم من ربيع سنة ١٩٠٧ كانت حديقة البلدية فى سلانيك قد كستها الطبيعة حلة خضراء مزركشة بالأزهار والرياحين ، وانتشر عبيرها وصفا الجو ، وتقاطر الناس اليها من كل جهة وفيهم

بالزى الافرنجى او التركى . والتركيات اذا اتين الحديقة اخترن ناحيــــه منها منفردة يجلسن اليها حتى لا يكن عرضة لعيون المارين . وهناك تحت شجرة كستناء غضة الأغصان جلست امرأة متوسطة العمر على مقعــد من مقاعد الحديقة ، والى جانبها فتاة فى مقتبل الشباب . ذات جمال وأدب وذكاء وكمال . وكان لباس المرأتين تركيا لا يظهر منه الا رداء بنى اللــون يكسو الجسم كله كالجبة الواسعة ، وعلى الرأس خمار شفاف يكسوه كلــه الا بعض الوجه . وكان شعر المرأة الكهلة مضفورا على النمط القديم ، أما الفتاة فقد ضفرته على النمط الافرنجى وغطته بالنقاب الشــفاف . ولا يحتاج الناظر الى امعان كثير فى وجهيهما ليتبين ان الفتاة ابنة الكهلة لشدة ما بينهما من المشابهة

وكان فى يد الفتاة جريدة فرنسية تطالع فيها وهى تحاذر أن يراها أحد، وقد طوتها طيات كثيرة حتى يصغر حجمها ولا ينتبه لها الناس ، فتقــرأ ما يظهر منها ثم تديرها لقراءة ما بقى ، وكانت والدتها تنتظر أن تترجم لها ابنتها بعض المقــالة التى تقرؤها . فلما طال انتظارها قالت بلسانهــا التركى : « ما بالك لا تقرأين يا شيرين ؟ »

فرفعت الفتاة راسها ونظرت الى ما حولها كأنها تحاذر أن يسمعهــا أحد ، وقالت بصــوت منخفض : « ماذا أقرأ يا أماه ؟ انى ارى رامزا قد شدد اللهجة كثيرا هذه المرة »

قالت : « أكنت تقرأين مقالة رامز ؟ وكيف عرفت أنها له ؟ هل وقعهــا باسمه ؟ . ألا يخاف الرقباء ؟ »

قالت بحذر وهدوء : « انه لا يوقع المقالات باسمه وانما يرمز اليه بحرف (A) ، وكل مقالة فى هذه الجريدة موقعة بهذا الحرف هى له ، ولا يعلم ذلك احد سواى وسوى صاحب الجريدة . ولو اطلع رجال الحكومة على فحوى هذه المقالة لأخذهم الغضب »

قالت : « وما فحواها ؟ »

فاقتربت منها وقالت همسا:«انه يشدد النكير على عبد الحميد ورجاله، ويهددهم بزوال ملكهم ، ويحتج عليهم ، وينسب اليهم الظــلم والنهب . انها لهجة شديدة ، ولكنهم يستحقون أشد من ذلك »

فقالت والدتها : « ولكننا نخاف على عزيزنا رامز من غدرهم »

وكانت شيرين ذات جمال ساحر فتان وفى عينيهــــا ما ينم على الذكاء وسرعة الخــــاطر وشدة عاطفة الحب . وكانت طويلة القــامة مع اعتدال وتناسب ، والصحة بادية فى محياها ، وقوة الارادة ظاهرة حول فمهـــا . لا ينظر اليها ناظر الا هابها . وقد زادها العلم رونقا وطلاوة لأنها تثقفت أحسن تثقيف ، وهى تحسن التركية والفرنسية والرومية ، تكلما وكتابة،

والفضل فى ذلك الى والدتها ، فقد كانت من فضليات النســاء وأقواهن عقلا ، وقد ربت ابنتها على الحرية وصدق اللهجة ، فشبت شيرين كبيرة النفس قوية العزيمة تــكره الظلم والظالمين . وقد أحبت رامزا كاتب تلك المقالة وأحبها منذ الصغر ، وهو ابن خالتها ، وقد ماتت أمه وهو صــغير فعنى أبوه بتربيته ، وغرس فى قلبه حب الحرية وكره الظلم والظالمين

وقد نشأت شيرين ورامز معا ، فتحابا وامتزجت روحاهما ، وتعاهدا على الاقتران ، وكان هو من أرباب الأقلام يكتب الفرنسية كما يكتب لغته التركية ، واشتهر بين معارفه بحب الحرية ، فلم يجد ســـبيلاً للعمل فى الحكومة ، وربما سعى له بعض ذوى النفوذ ليلحق بعمل ما فلا يلبث أياما حتى يخرج منه ، واخذ يعيش من مكاتبــة الصحف التركيــة فى الأستانة والفرنسية فى باريس بتوقيع مستعار ، وأكثر ما يكتبه فى تلك الصــحف انتقاد لأعمال الحكومة .

والكتابة لذيذة ، وكانت تلذ رامزا على الخصوص ، لأنه كان يجعلهــا وسيلة للاجتماع بشيرين ، فاذا كتب مقالة وأعجبتــه قراها لها وسمع ملاحظاتها عليها ، وكثيرا ما كانت ترشده الى الصواب فى بعض الموضوعات لأنه كان شديد الوطأة سريع الاندفاع فيقوده ذلك الى التطرف ، وكانت هى أعدل منه مزاجا وأربط جأشا فتنتقده وتباحثه ، فيلذ له الرجوع الى رأيها . أما المقالة التى كانت تقرؤها فى ذلك اليوم فلم يكن قد اطلعها عليها قبل ارسالها فجاءت شديدة اللهجة

فلما قالت لها أمها : « ولكننــا نخاف على عزيزنا رامز من غدرهم » ظهرت البغتة عليها كأنها انتبهت لشىء فاتها ، وتصاعد الدم الى محيــاها، ونظرت الى أمها وقالت « صدقت يا أماه ، ان رامزا يعرض نفسه للخطر، ولو أطلعنى على هذه المقالة قبل ارسالها لعدلت لهجتها. سأعاتبه على ذلك متى جاء . لكنه قد تأخر والشمس كادت تغيب ! » . قالت ذلك والتفتت الى باب الحــديقة فرات الداخلين يتزاحمون وليس بينهم رامز ، ثم وقع بصرها على شاب بهى الطلعة منتصب القامة رشيق الحركة تنجلى الحماسة فى وجهه ، ورأت أمها تنظر اليه وتبتسم ، فقالت : « من هذا يا أماه ؟ أراك تعرفينه ؟ »

قالت : « الم تعرفيه يا شيرين ؟ هذا نيازى بك صديق رامز ورفيقه فى المدرسة »

قالت : « عهدته ضابطا »

قالت : « نعم ، ولكن يظهر انه جاء متنكرا »

ولم تكد شيرين تعيد النظر الى نيازى حتى خفق قلبها خفقــة الغبطة لأنها رأت رامزا بجانبه وقد قبض على ذراعه وجعل يقوده نحو تلك الشجرة ونيازى يلتمس التخلص والرجوع . ولما اقتربا من مجلس شيرين وأمهــا

سمعتنا نيازى يقول : « دعنى يا رامز فقد اقترب موعد سفرى » . ولكن رامزا اخذ يجره من ذراعه وهو يضحك ويقول : « دقيقة واحدة فقط »

ووقع نظر نيازى على شيرين وأمها فأسرع اليهما وحيى الوالدة باحترام، ثم حيى شيرين تحية صديق قديم ، لانها عرفته من قبل ، وقد خطب احدى صديقاتها من بنات مناستير . وتقدم رامز والقى التحية ، وابتدر شيرين بالاعتذار فقال : « لقد تأخرت ولكن الحق على صديقى نيازى » . وضحك

فقال نيازى : « اسمحوا لى أن أودعكم الآن لانى جئت خلسة ، ولا بد من رجوعى الليلة الى بلدى ، وانى أتأسف لضياع هذه الفرصة فان هذه الجلسة تلذ لى كثيرا ، ولكننى لا احب أن أترك للقوم بابا للانتقاد حتى ياتى الله بالفرج » . وابتسم

فقالت توحيدة والدة شيرين : « تسافر الليلة ؟ الى أين ؟ »

قال : « الى مناستير يا سيدتى ، ومنها الى رسنة . أستودعكم الله الى اللقاء . كم كنت أحب أن أبقى معكم ولكن .. » . قال ذلك وحياهم وانصرف

وتقدم رامز نحو شيرين وهو يبتسم ابتسام الاعتذار وقال : « اظننى اقلقت بالك لتأخرى . ولكننى شغلت بصديقى نيازى ، وانت تعلمين صداقتى القديمة له » . وخفض صوته وقال وهو يحاذر أن يسمعه احد: « قد جاء اليوم لمقابلة بعض اعضاء الجمعية ، فاجتمعنا بصديقنا الشهم انور بك . . . » . قال ذلك وهو يقعد على كرسى

فقطعت شيرين كلامه قائلة : « هل أدخلتم نيازى أيضا فى الجمعية ؟ »

قال : « ادخله انور بك ، وقد احسن بذلك لان نيازى من خيرة الضباط أهل المروءة والنجدة ، وممن يرجى نيل الدستور على أيديهم »

ولما لفظ كلمة الدستور تنهد وانقبضت نفسه واطرق،فأدركت شيرين ما جال بخاطره فقالت : « لا تتنهد ، ان اباك سيأتى ولو طال غيابه »

فهز رأسه وقال : « يا حبذا ذلك . كيف أرجو رجوعه بعد دخوله ذلك القصر الجهنمى ، وقد مضت سنوات ونحن لم نسمع عنه خبرا ؟ . ان أحدا من الاحرار الذين دخلوا يلدز الملعونة لم يرجع منها حيا ،وما احسبه الا اغرق فى البوسفور كما أغرق مئات قبله ، لكننى سأنتقم له . قال ذلك وصر بأسنانه وكاد الدمع يتناثر من عينيه

فأحبت شيرين ان تشغله عن ذلك فقالت : « سامحك الله يا رامز على هذه المقالة ، انها النار المستعرة »

قال : « انها أقل ما يستحقه أولئك القوم الأنذال . قد آن الوقت يا شيرين ، ولا تلبثين أن ترى الدماء تجرى أنهارا »

فاجفلت شيرين عند سماع قوله ، وتصاعد الدم الى وجنتيها وقالت : « اني أتمنى ان يظهر الحق ويزهق الباطل دون أن تجرى الدماء »

قال : « وأنا أتمنى ذلك أيضا ، ولكنهم لا يريدون الاذعان ، وهـذا ناظم بك (وخفض صوته) قائد جند هذه المدينة وصنيعة ذلك الطاغية واحد ياورانه قد تلقى الأوامر بالتشـديد فى البحث عن أعضاء جمعية الاتحـاد والترقى ، والقبض عليهم والتنكيل بهم بلا شفقة لأن ظهور هذه الجمعية فى سلانيك أدهشهم ، وهم يبحثون عن زعمائها ليفتكوا بهم »

فبغتت وتوردت وجنتاها والتفتت الى ما حولها كأنهـا تخشى أن تكون لتلك الشجرة آذان تسمعهم وتشى بهم وقالت : « صحيح ؟ من قال لك ذلك ؟ »

قال : « جاءنا الخبر من جاسوس لنا فى يلدز ، وقد علمنا منه أن الرعب ملأ قلب عبد الحميد لما علم أن الضباط ينتظمون فى هذه الجمعية المقدسة ، وأيقن أن الجيش لا يلبث أن ينقلب عليه ، فعمد الى التنكيل بهم، فاستقدم ناظم بك اليه ورفع رتبته وزاد راتبه وزوده بالأوامر المشددة للبحث عن رئيس الجمعية واعضائها العاملين ، ووعده بهبات جزيلة اذا هو استطـاع كشفها »

وهنا قالت له توحيدة والدة شيرين : « اسكت يا عزيزى ان للشـجر آذانا ، وقاك الله كيد الكائدين »

فقالت شيرين : « لله در أبيك فلولاه لم تعمد الجمعية الى هذه الخطة ! »

قال : « بل لله در ذلك الثاوى فى الطائف المقتول ظلما وعدوانا ! انهـا وصيته قبل موته أودعها أذن أبى فحملها الى الأحرار ، ولكن آه . . أين انت يا أبى ؟ وأين بقية الوصية ، لعلها تنفعنا اليوم ؟ »

فقالت توحيدة : « يكفى يا بنى . ان الحديث قد طال ، فاحتفظ بسرك ، وانى انبهك الى شىء طالما نبهتك اليه. احذر أن تذكر شيئا من هذا القبيل امام طهماز والد شيرين، فانه ضعيف الارادة بسيط القلب الى حد لا يؤمن معه أن يستميله بعض الجواسيس ويعرف منه خبرك . ان طهمـاز قوى البدن لكنه ضعيف الارادة » . قالت ذلك وتنهدت

☐

كانت الشمس قد غربت واخذ خدم الحديقة فى انارة القناديل ، والناس يتزاحمون دخولا وخروجا ، ولاحت من شـيرين التفاتة فرأت أباها قادما فصاحت : « هذا أبى قد جاء »

قالت ذلك مظهرة البغتة لتنبه رامزا الى قدوم ابيهـا ، فالتفت رامز فرأى طهماز ومعه شاب يعرفه من ايام المدرسـة حسن البزة قد ارخى

لحيته على الطراز التركى ، وعلى عينيه نظارة مذهبــة ، وقد ارتدى ثوبا أسود تعلوه « الستامبولينا » التى يلبسها الأتراك فى المواقف الرسمية . ورأى طهماز يحادث الشاب ويلاطفه ، فلما اقتربا منه تقدم رامز لملاقاة صديقه ورحب به وقدمه لشيرين ووالدتها قائلا : « صديقى صائب بك »

فلما رأته شيرين نفرت منه وبان الانقباض فى عينيها ، لكنهــا تجلدت تأدبا ، وحنت رأســها احتراما ، أما أبوها فــكان كبير الجسم كبير الرأس واسع الفم غليظ الشفتين معروفا بين أهله ومعارفه بقوة الســاعدين ، يلبس ثوبا واسعا أشبه بما يلبسه أهل الاناضول . وقد بلغ من قوته انه يستطيع أن يرفع الرجل بيده الواحدة ويرميــه الى الارض ، وكان كثــير الاعجاب بقوته ، وهى الهبة الوحيدة التى وهبته اياها الطبيعة ، لأنه كان ضعيفا فيما خلا ذلك. وكان بطينا نهما لا تكاد تراه الا وفى فيه شيء يمضغه، وكان ساعتئذ يأكل كعكة ابتاعها فى الطريق . فلما دنا من امرأته وابنتــه ألقى التحية ببرود ، ولم يسلم عليهما الا ليقدم لهما صــديقه صائب بك ، فرحبتا به. فصفق صائب بك لخادم الحديقة طالبا أن يأتى ببعض المشروب، فاعتذر رامز بأنه لا يشرب شيئا وكذلك فعلت شيرين وأمها ، فأبى الا ان يفتح زجاجات البيرة والـكازوزة ويدعوهم أن يشربوا فــكان أكثرها من نصيب طهماز

وفى أثناء ذلك اجتهــد صائب بك أن يستلفت انتباه شيرين الى حديثه بما أخذ يقصه من أحاديث نفوذه فى دوائر الحكومة ، وما أتاه من الجراة على كبار المقربين ، مثل عزت باشا وتحسين باشا وغيرهما ، وأنهم يخشــون بأسه ويهابون جانبه ، وأنه طالما انتقد رجال الحكومة على مسمع منهم

على أن شيرين لم تزدد الا نفورا منه ، ثم تظــاهرت انها أحست بالبرد فوافقتها والدتها على ذلك التماسا للنهوض ، فاستاء طهماز وقال : « ألم تشعروا بالبرد الا الآن ، وأنتم هنــا من ساعات؟ » . قال ذلك بخشــونة تعودتا سماع مثلها منه ، فلم تنبسا بكلمة

اما صائب فالتفت الى رامز وقال له : « انى لا انسى الأيام التى قضيناها معا فى المدرسة . انأيام الصبا الذ ايام الحياة . هل تذكر من كانوا معنا ؟ »

فلم ير رامز بأسا من مسايرته فقال : « كان معنا كثيرون ، اذكر منهم نيازى و . . »

فقطع صائب كلامه قائلا : « نيازى ؟ اظنه الآن ضابطا فى الجندية » .
قال : « نعم »

قال : « ولماذا لم تنتظم انت فيها ؟ »

قال : « لأنى لم أوفق الى ذلك ، وليس فى استعداد لهــا على ما اظن »

قال : « اذا شئت فانى أتوسط لك فى خدمة ، ان لم تكن فى الجندية ففى

غيرها . أنت تحب العلم والادب ، ولك معرفة جيدة باللغات ، لأنى اذكر تقدمك على اقرانك ، فاذا شئت وجدت لك منصبـــا فى المدارس أو فى الداخلية أو غيرها . لا يثقل عليك أن تطلب منى كل ما تريده ، ان هـــذا هين على . ونحن اخوان لا تكليف بيننا ، وقد وعدت سيدى طهمـــاز بك برتبة ستأتيه بعد ايام قليلة »

فلما سمعت شيرين ذلك شعرت كأن أحشاءها تتمزق ، فوقفت وهى ترتعد وتظهر انها ترتجف من شدة البرد ، والحقيقة انها ترتعد غيظـا من ذلك الثقيل ، فوقفت ووقفت والدتها معها ووقف رامز ، فلم يجدصائب بدا من الاذعان ، وضرب على المائدة بعصا قبضتها من ذهب تلمع فى النور، فأتى الخادم (الجارسون) فدفع اليه ليرة عثمانية ولم ينتظر ان يرد اليـه الباقى ، فانحنى الجارسون الى الأرض . ونهض صائب وطهماز ، ومشوا يلتمسون الخروج من الحديقة ، وقد دنا وقت العشاء وأخذ الناس ينسلون من الحديقة

▭

انصرف صائب على أثر خروجهم من الحديقة . بعد ان ودعهـم وأطال النظر الى شيرين وهى تتجاهله ، وودعه طهماز وداع الصديق الحميم . اما رامز فرافق شيرين وأبويها،وفى أثناء الطريق خاطبته شيرين بالفرنسية وشكت له نفورها من صائب ، وأوصته أن يبتعد عن صحبته فقال : « وما الذى يهمنى منه ؟ »

قالت : « انى شعرت بنفور منه ، ورأيت الشر ينبعث من وراء نظارته ، ولا يبعد أن يكون جاسوسا »

قال : « فليكن ما شاء »

وبعد قليل وصلوا الى طريق عرج منه رامز الى منزله بعد أن ودعهـم، وقال لشيرين بالفرنسية : « انى ذاهب الى المنزل لاكتب مقالة الليلة » . فقالت له : « سر فى حراسة الله » . وتواعدا على أن يأتى فى الغد ليقرأ لهـا ما كتبه ويتغدى معهم

أما صائب فلم يفته ما أضمرته شيرين من بغضه ، فشبت الغيـرة فى قلبه ، وركب مركبة سارت به الى الفندق الذى كان نازلا فيـه ، وقضى معظم الطريق مستغرقا فى الهواجس ، وقد أخذت شيرين بمجامع قلبه . وكان قد لمح الى ابيها باعجابه بها ، فأظهر هذا ارتياحه لذلك طمعا فيمـا وعده به من الرتب

ووصلت به المركبة الى الفندق وهو لا يزال تائها فى بحار الفكر . فلمـا وقفت انتبه لنفسه وتحول وهو يفكر فى رامز وشيرين ، وكلمـا تصور عينى شيرين ومبسمها خفق قلبه ، وكان قد شاهدها مرارا من قبل ،

وافتتن بجمالها فصبر حتى لقى اباها وملكه بأسلوبه ودهائه ، وصار له أمل فى نيلها ، فذهب معه وهو يرجو أن يرى منها انعطافا ، فلما رآها تجافيه وتلاطف رامزا شبت نار الغيرة فى قلبه

ولم يصل الى غرفته فى الفندق حتى كان رأيه قد استقر على التنكيل برامز ، فأخذ يخلع ثيابه وهو يحدث نفسه قائلا : « أراها تستخف بى ، وما علمت أنى قادر أن أحرمها من ذلك الشاب المغرور الذى يعد نفسه من الأحرار . انه يحسب امره مجهولا ، وفاته انى أعلم الناس به ، وأنى أقدر بكلمة أخطها على أن ألحقه بقاع البوسفور . أليس عضوا فى الجمعية السرية الناقمة على السلطان ؟ ماذا يكون شأنه لو رفعت ذلك الى أولى الامر ؟ انى فاعل الساعة »

وكان قد فرغ من تبديل ثيابه ، فتناول قرطاسا وقلما وأخذ يكتب تقريرا عن رامز وأعماله ضد الحكومة ، وأنه من أعداء الذات الشاهانية . وقضى الليلة فى كتابة ذلك التقرير ، ثم خرج فى الصباح مبكرا فقصد الى ناظم بك ، ذى العلاقة المتينة بالقصر وقال له . « قد كشفت للذات الشاهانية عن شاب عنده كل أسرار الجمعية ، وهذا تقريرى الذى كتبته فى هذا الشأن ، فأطلب اليك باسم جلالة البادشاه ان تقبض عليه وتحبسه وتبعث الى القصر بخبره تلغرافيا . وهذه صورة التلغراف : (عثر صائب بك على أحد كبار اعضاء الجمعية الجهنمية ، وقد قبضنا عليه وننتظر الأمر فى شأنه) . . »

فبعث ناظم بك الى سامى بك رئيس البوليس ليقبض على رامز ويضبط أوراقه حالا ، وارشده الى منزله ، وبعث صائب بك بتقريره مسجلا الى القصر

وكان رامز قد قضى ليله فى كتابة المقالة المشار اليها ، وتأخر فى الفراش فما شعر الا والبوليس يحيط بمنزله ، فأيقظوه ودخلوا الغرفة وقبضوا عليه وعلى خادمه ، وجمعوا ما عنده من الاوراق فجعلوها فى ظرف كبير وختموها وقادوه الى القصر وحجزوه فيه ، فتأكد رامز انها فعلة صائب، فلم ير بدا من الصبر

أما صائب فكان على موعد مع طهماز فى ذلك الصباح فى أحد المقاهى ، فذهب فى الوقت المعين كأنه لم يفعل شيئا ، فوجد طهماز فى انتظاره ، فقال له : « كيف فارقت رامزا ؟ »

فهز رأسه وقال : « فارقناه بعد ذهابك بقليل »

فأصلح صائب نظارته على عينيه ، وحك لحيته ، ثم أخذ يلاعب عصاه بيده ، وقال : « انه شاب لطيف ، لكنه كثير الغرور بنفسه ، فعسى الا يجر غروره ضررا عليه أو عليكم ، لان الجاهل عدو نفسه . وقد كنت ولا أزال راغبا فى مساعدته اكراما لبيتكم لأنه ينتسب اليكم على ما أظن »

قال : « نعم هو ابن اخت توحيدة ، ولكنه كما قلت طائش »
قال : « اذا كان طيشه يقتصر على ضرر نفسه فذلك هين »
قال طهماز : « وما الذى يهمنا منه ؟ »
قال : « أراه يحب التقرب منكم فوق القرابة التى ذكرتها »

فضحك طهماز ، وكان خادم المقهى قد أتاهما بالقهوة ، فتناول الفنجان ونهل منه نهلة وقال : « يظهر أنه يطمع فى شيرين،ولكننى لا ازوجها لرجل لا عمل له »

فمد صائب يده الى جيبه واخرج علبة للسجائر مذهبة ، واخذ منها سيجارة مذهبة من أحد طرفيها ، ودفعها الى طهماز وهو يقول : « ان شيرين تستحق رجلا نبيلا ، فانها والحق يقال كاملة الاوصاف »

فتناول طهماز السيجارة بكف كالمدراة ، وقال وهو يشعلها من عود قدمه له صائب بك : « وانت كامل الاوصاف يا صائب بك » . وضحك

فتنصل صائب بك من مغزى هذا التعريض وقال : « انى أجل الفتاة . واراها تستحق من هو أحسن منى »

فقال طهماز : « انها لا تطمع فى أحسن منك يا سيدى »

فأجابه صائب بك : « كل شيء نصيب » . واظهر انه يريد تغيير الحديث تواضعا فقال : « قد أرسلت تلغرافا الى صديقى عزت باشا اطلب منه رتبة تليق بشأنك ، واذا رايت رامزا يرضى خدمتى فانى أوصى به ليحصل على منصب »

فأعجب طهماز بأريحية صائب وقال : « سأخاطبه فى ذلك لعله يرضى ، وهو مدعو عندنا للغداء ، تعال لنتغدى معا » . فقبل صائب الدعوة شاكرا



بين شيرين وصائب

باتت شيرين تلك الليلة ونفسها تحدثها بشر تتوقعــه . وكذلك شأن المرأة ، فانها كثيرا ما يدلها شعورها على امور لا يدركها الرجل الا باعمــال الفكر والقياس العقلي ، اما هى فتشعر وتحكم بناء على شعورها بلا برهان، ويصدق حكمها فى أكثر الاحيان

قضت معظم الليل فى الهواجس وما طلع النهــار حتى اخذت تنتظــر مجيء رامز ، وقد سرها خروج ابيها مبكرا ليحلو لهما الاجتماع ، ولم يكن وجود والدتها يعكر عليها صفو ذلك الاجتماع ، لانها كانت مســـتودع اسرارها ، وهى تحب رامزا حبا كثيرا وتعده بمنزلة شيرين لانه ابن اختها

ودقت الساعة العاشرة ولم يأت رامز ، فزادت دقات قلب شــيرين ، وصارت تنتقل من النافذة الى الشارع ، ومن البــاب الى الدهليز ، ثم تعود فتقعد ، فاذا سمعت مشيا نهضت تظن رامزا قادما مع انها تعــرف خطواته دون خطى سائر الناس ، ولكن القلق اذهب رشدها . فلما دقت الساعة الحادية عشرة ذهبت الى والدتها، وكانت تساعد خادمتها فى شؤون المطبخ ليكون الطعام حاضرا فى الظهر ، والا غضب زوجها واسمعها كلاما فظا . فلما رأت شيرين داخلة بادرتها قائلة : « هل اتى رامز ؟ »

فكان لهذا السؤال وقع شديد انفجرت له عواطفها فقالت : « لا .. لم يأت .. » . وغصت بريقها

فاستغربت توحيدة اضــــطرابها وقالت : « لم يفت الوقت ان الظهر لا يزال بعيدا ، لا تقلقى »

قالت : « أعلم ذلك ولكن ..... » . وسمعت حركة فى الدار فاصغت ، فاذا هى خطى أبيها ، فأملت أن يكون رامز معه، فخرجت لملاقاته فوجدت اباها وحده داخلا يتمايل عجبا بقوته ، وقد زادته مواعيد صائب بالرتب اعجابا بنفسه ، فلما أقبل على شيرين حيته فرد التحية وابتدرها قائلا : « ألم يحضر الغداء ؟ أين والدتك ؟ »

قالت : « هي فى المطبخ تعده » . وهمت ان تساله عن رامز فغلب عليها الحياء ، فذهبت الى والدتها وحرضتها على سؤاله

فخرجت توحيدة من المطبخ ، وهى تجفف يديها بمئزرها ، وتصلح ذيل دائها ، وتأمر الخادم أن يهيىء المائدة ، لان الطعام قد أعد ، لعلمها أن ذلك

يشرح صدر زوجها ، فقابلها ضاحكا فقالت : « الم يأت رامز معك للغداء ؟ »

قال : « لم أره اليوم »

قالت « دعوته أمس للغداء معنا ، وها هي ذى الساعة قد دقت الثانية عشرة ولم يأت ! »

قال : « لعله استغرق فى النوم ، وبعد قليل يأتى ، لا تخافى »

قال ذلك وهو يحل سيور حذائه ، وقد أسرع اليه الخادم يساعده .

فلما سمعت شيرين قوله : « لا تخافى » . ادركت أنه يقول ذلك تهكما، فالتفتت الى والدتها فراتها تفهم مرادها ، فقالت توحيدة : « لست خائفة ، وما الباعث على الخوف ؟ »

قال : « اما الباعث على الخوف فانه موجود لأن رامزا يتعرض لأمور كثيرة لا تعنيه ولا تنفعه وقد تضره . واذا خاطبه احد فى سبيل مصلحته استخف به »

ففهمت شيرين انه يشير الى حديث أمس ؛ وأن أباها ناقم على رامز استخفافه بصائب ، فتحولت من بين يدى ابيها الى غرفة قريبة،وجلست تسمع صوته ولا تراه ، فسمعت والدتها تقول له : « هذا شأنه ، وهو يعرف حسابه »

فقال بصوت عال : « ولكن تردده الى بيتنا يوقع الشبهة علينا »

فعلمت توحيدة أن الكلام مع زوجها فى هذا الشأن أصبح عبثا بعد ان رفع صوته ، وقد تعودت طباعه وعرفت كيف تتجنب غضبه ، لانها كانت عاقلة حكيمة ــ والمرأة اذا عاشرت زوجها زمنا طويلا يجدر بها أن تعرف ما يرضيه وما يغضبه ــ فسكتت توحيدة ، واظهرت أنها مشغولة فى المطبخ ، فلحقت بها شيرين والدمع ملء عينيها وصاحت بها : «أماه . . . يا أماه . . . ان قلبى على مثل الجمر . . . »

فأشارت بأصبعها على فمها أن « اسكتى » ، والتفتت الى الخادم وأمرته ان يذهب الى مسكن رامز يسأل عنه ، فذهب الخادم مسرعا ، وما عتم أن عاد وقص عليهم أن ناظم بك ارسل جندا للقبض عليه ، وأخذه مع أوراقه الى القصر

فلم تتمالك شيرين ان لطمت خدها وقالت : « ويلاه . . ان قلبى دلنى على شر متوقع منذ أتانا ذلك الجاسوس ، وها قد صدق ظنى »

أما والدتها فأخذت تخفف عنها لئلا يسمعها أبوها الذى كان فى غرفة المائدة واقفا يتناول قدحا من الكنياك قبل الطعام ، فلما سمع التهامس صاح بصوت كالرعد : « ما بالكم ؟ . ماذا جرى ؟. هل أتى رامز ؟.»

فأسرعت اليه توحيدة وقالت : «ان ناظم بك قبض عليه وسجنه وصادر اوراقه » . قالت ذلك وهى تفرك يديها حسرة واسفا

فضحك طهماز وقال : « هذا ما كنت اخافه عليه لتهوره .. ولكن لا تخافي ان صديقي صائبا يقدر أن يخرجه من السجن،لأن ناظم بك يراعي جانبه لنفوذه ، وسيأتي صائب بك بعد قليل ، فقد دعوته للغداء معنا »

◻

وكانت شيرين منزوية في غرفتها وقد استغرقت فى البكاء لعلمها بالخطر الذي يهدد حبيبها ، وهى تعلم أعمال رامز ضد عبد الحميد ، فأيقنت من تلك اللحظة ان رامزا مقتول لا محالة ، فأخذت تندبه . فلما سمعت اباها يطمئن أمها ويذكر صداقة صائب لناظم تنفست الصعداء لحظة ، ثم تذكرت أن صائبا أصل هذه المصائب ، فعادت الى البكاء ، ولكن والدتها أظهرت التصديق ، فدخلت عليها وجعلت تخفف عنها قائلة : « يقول ابوك ان صديقه صائبا ينقذه بكل سهولة ، وبعد قليل يأتي ونسأله » . قالت ذلك وامسكت بيد شيرين كأنها تشغلها عن البكاء ، وهى تعتقد اعتقاد ابنتها ، ولكنها أرادت تخفيف حزنها ، وهى خائفة عليها لعلمها أن بين أوراق رامز أوراقاً لها لا تقل خطرا عن اوراقه ، لانها كثيرا ما كانت تساعده أو تكاتبه بمعنى الحرية والنقمة على عبد الحميد ورجاله

فاجتذبت شيرين يدها من يد امها ، وغطت بها عينيها وهى تقول : « تسألون صائبا انقاذه وهو الذى اوقعه » . دعيني .. لا اغير اعتقادى ، فان قلبي قد دلني »

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا وقع حوافر أفراس وقفت عند باب منزلهم ، وهرع الخادم لاستقبال القادم ، وكان هو صائب بك »

فقالت توحيدة : « أتى الرجل . تجلدي وقومي للغداء لعله قادر على انقاذه ، وعهدى بك حكيمة واسعة الصدر ، فمالي أراك تغيرت .. لا يبعد ان يكون له نفوذ عند أولئك لانهم من طينة واحدة . قومي تجلدى »

فنفرت وهى تهز رأسها هز الانكار وقالت : « قد فارقني جلدى ، دعيني ولا تطلبي مني ان أرى هذا الشيطان وآكل معه . أأستبدله برامز؟» ونهضت وأخذت تحل ازرارها وهى تقول : « انى مريضة لا استطيع الجلوس »

فاستحسنت والدتها أن تمكث شيرين فى الفراش لئلا يشاهدها أبوها على هذه الحال فيغضب . وخرجت هى لملاقاة الضيف والترحيب به مراعاة لحق الضيافة وخوفا من غضب زوجها وأملا فى النفع على يده ، فوجدته قد دخل الدهليز واخذ يضع عصاه الذهبية على الحامل، فلما رآها



« واجتذبت شيرين يدها من يد أمها ، وغطت بها عينيها »

أسرع اليها متأدبا ، وحياها بلطف وانحناء ، وقد قبض على قفازه بيده الاخرى ، ثم تقدم الى طهماز فحياه وتلطف معه . فدعتهما توحيدة الى غرفة الاستقبال وهى مفروشة على الطراز الافرنجى ، فدخلا وجعلت توحيدة ترحب به وتجامله

ثم افتتح طهماز الحديث عن رامز قائلا : « ان خوفنا على رامز كان فى محله،وقد بلغنى انهم قبضوا عليه فى صباح اليوم وأخذوه الى السجن ... ألم تعلم بذلك ؟ »

فاظهر صائب البغتة وقال : « هل الذى قبضوا عليه اليوم هو رامز ؟ .. كنت عند ناظم بك منذ ساعة،وأخبرنى بالقبض على رجل من أعضاء الجمعية السرية ، ووجدوا معه أوراقا مريبة أرسلوها الى يلدز ، كما ارسلوا تلغرافا بخبرها ، ولم يخطر لى أن الرجل هو صديقى رامز . لا حول ولا قوة الا بالله »

وكانت غرفة شيرين بجانب حجرة الاستقبال ، فكانت تسمع كل كلمة من الحديث ، فسمعت أباها يقول : « ولكن رامزا ابننا،وأنا أعد نفسى بمنزلة أبيه ، وهو أيضا صديقك ، الا تقدر على تخليصه من هذه الورطة ؟ »

فقال وهو يمشط لحيته : « لو أخبرتمونى فى الصباح لكان ذلك هينا على . أما الآن وقد بلغت أخباره القصر ، وأرسلت أوراقه الى الاستانة ، فكيف السبيل الى انقاذه ؟ »

قال طهماز : « أنت تقدر يا بك »

فأطرق صائب حينا يفكر ثم قال : « أما اخراجه من سجن سلانيك فقد أصبح مستحيلا ، لكننى ابذل جهدى لتخفيف جرمه فى الاستانة اذا امكن، ولكنه سامحه الله لم يدع بابا للمصالحة . أخبرنى ناظم بك أن بين أوراقه ما يدخل كثيرين فى الخيانة معه ، وفيهم امرأة »

فلما سمعت توحيدة قوله صعد الدم الى وجهها ، وظهرت البغتة عليها لعلمها أن هذه المرأة انما هى ابنتها ، وانها واقعة فى الفخ لا محالة . ولكنها تجلدت واصغت لعلها تسمع شيئا جديدا ، وودت لو أن ابنتها مستغرقة فى النوم حتى لا تسمع ذلك . ونهضت تظهر أنها تريد مخاطبة الخادم لاعداد المائدة ودخلت الى غرفة ابنتها ، فراتها مستلقية وقد اصاخت بسمعها فحالما اقبلت عليها قالت شيرين : « لقد سمعت كل شىء »

قالت : « هل سمعت آخر فقرة »

قالت : « تعنين اتهام امرأة مع رامز ؟ نعم سمعت ذلك ، وهذا عزائى الوحيد ، لانى عند ذلك احمل اليه فاما أن نموت معا واما أن نعيش معا . هل انا خير منه ؟ »

فيئست امها وازداد حزنها ، لانها كانت تحسب اتهام ابنتها ،والامل فى

النجاة على يد صائب ، مما يجعلها تلين وترضى بمخاطبته لعله ينقذها. ولا شك فى أنها تحب رامزا ولكن حبها لابنتها فى المكان الاول . فقالت : « نعم يشق علينا وقوع عزيزنا رامز فى الخطر ، ولكن هل نلقى بأيدينا الى التهلكة ؟ واذا كان فى امكاننا تخليصك فكيف لا نفعل ؟ ولعلنا ننجى رامزا أيضا »

فقطعت شيرين كلامها قائلة : « تريدين انقاذى على يد هذا الجاسوس؟ وهل صدقت زعمه أنه لم يكن يعلم وهو الذى وشي به ؟ أنا لا اريد نجاتي على يده ، بل أريد أن يؤكد تهمتى لاشارك رامزا فى حظه » . قالت ذلك واستلقت على سريرها وغطت وجهها بزندها ، فتركتها والدتها وتوجهت الى المطبخ وأمرت الخدم باعداد المائدة ، واتت الى زوجها فوجدته يتهامس مع صائب وهو يضحك ، فلما رآها سألها عن الطعام فقالت : « تفضلوا الى المائدة »

فنهضوا فغسلوا أيديهم ، وصائب يتوقع ان يرى شيرين قادمة الى المائدة ، فلما جلسوا ظل كرسيها فارغا فقال : « انى لا ارى شيرين معكم ، ارجو أن تكون فى خير حال »

فقالت والدتها : « انها تشكوا صداعا أليما لم يفارقها من الصباح »

فقال طهماز : « ادعيها ، لا بأس عليها »

قالت : « ألححت عليها كثيرا ، وانا آتية من عندها الساعة ، فلم تقدر أن ترفع راسها ، واستولى عليها البكاء من شدة الألم » . قالت ذلك حذرا من أن ينهض أبوها فيراها باكية ويتهمها بشىء آخر

فقال صائب : « لا بأس عليها. هل علمت بحادث رامز؟لا شك انهاتأسف كثيرا له . سامحه الله ، ما كان اغناه عن تلك الاعمال الصبيانية »

وكان الطعام قد حضر وصب فى الأطباق ، واستغرق طهماز فى الالتقام والمضغ ، فوضع صدر دجاجة كما هو فى فيه ، ولما سمع كلام صائب هم أن يجاوبه ولكن فمه مملوء ، فاستمهله بأصابعه ريثما يبلع بعض اللقمة ، ثم قال وهو يقطع الخبز ويهيىء لقمة أخرى:«كثيرا ما نصحته فلم ينتصح، ان شبان هذا الزمان لا يعجبهم العجب . لا يعجبهم سلطاننا ايده الله مع أنه من أحسن سلاطين آل عثمان ، هل كان عبد العزيز احسن منه ؟ انه لا يفوته وقت الصلاة مطلقا،وفى الاستانة الوف من الناس عائشون من بقايا مطبخه ، فلو اقفلت يلدز الآن لمات هؤلاء جوعا . ثم كيف يستطيعون مقاومة خليفة الرسول ؟ كان ينبغى ان يكون لهم عبرة بالذين تقدموهم من امثالهم الشبان المغرورين وكيف كانت عاقبة امرهم . ماذا ينالهم من هذا العناد غير العذاب ؟ ! الا يرضون أن يعيشوا كما عاش آباؤهم واجدادهم؟» . وقد اختصر طهماز خطبته البليغة لئلا تضيع عليه لقمة وعاد الى الأكل

فقال صائب : « انا لا ألوم الأحرار على التشكى من الخلل فانه موجود ،

لكننى الومهم لاستعمال العنف فى مساعيهم ، كعمل المكايد لقتل الخليفة أو أعوانه والكتابة الشديدة فى الجرائد الاجنبية . هذا لا يفيـــد ، ولا بد من استعمال التؤدة »

وكانت شيرين تسمع قوله ، وتكاد تثب من السرير لتجاوبه ، لكنهـــا صبرت نفسها وسكتت

□

ولما فرغوا من الطعام تناولوا القهوة ، ونهض صائب للانصراف ، فودع طهماز وزوجته ودعا لشيرين بالسلامة ، وركب عربته وانصرف

ودخل طهماز لمشاهدة ابنته فرآها نائمة ، فتركها وذهب للقيلولة ، ولم تمض بضع دقائق حتى ملأ شخيره البيت . أما توحيدة فلم تنم لما تولاها من القلق على ابنتها فضلا عن خوفها على رامز

وفى الاصيل نهض طهماز ، وبعد ان تناول القهوة نادى امراته الى غرفته فأتت وهى تقول فى نفسها : « ما الغرض من هذا الطلب يا ترى » . فلما دخلت عليه دعاها للجلوس الى جانبه فجلست ، فقال لها : « بعد قليل يأتى صائب بك . ماذا نقول له ؟ »

فلم تفهم مراده فقالت : « عن اى شىء ؟ » . قال : « عن شيرين »

ففهمت انه يريد خطبتها له ، ولكنها تجاهلت وقالت : « من أى جهة »

قال : « الم تفهمى ؟ لا يخفى عليك أن رامزا المسكين لن ينجو من هذه الوقعة ، وهو الذى رمى نفسه فيها ، ولا شك ان شيرين تكون طائشـــة مثله اذا لم تفهم حقيقة مركزها . وقد تقدم صائب بك لخطبتهـــا ، وهـــو رجل وجيه ، صاحب نفوذ وثروة ، واذا صاهرناه نلنا العز على يده ، وربما استطعنا بوساطته ان ننقذ رامزا . لا يخطر ببالك انى اكره هذا الشاب ، ان رامزا بمثابة ابنى كما تعلمين ، لكنه طائش ، تأخذه الحدة ويتطاول الى ما هو فوق طاقته حتى القى نفسه فى ورطة لانجاة له منها ، واخشى ــ والكلام فى سرك ــ ان تقع الشبهة علينا غدا لـكثرة تردده الى منزلنا فنقع فى الشرك ، فاذا كان صائب بك صهرنا كنا فى مأمن من ذلك كله »

فرات فى كلامه تعقلا لم تعهده من قبل فقالت : « أرى الحق فى جانبك ، ولكن هل نفعل ذلك دون استشارة شيرين ؟ »

قال : « نسألها . . ولا أظنها تخالف رأى والديها »

قالت : « لا نقدر ان نزوجها لاحد الا بارادتها »

فهز رأسه وقال: «ان بنات هذا العصر مثل شبابه لا يعمّلن الا ما يخطر لهن . فى حين كنا فى زماننا نلقى اتكالنا على آبائنا. وهذا هو سبب الشرور

التى نراها تنتابنا الآن من كل ناحية . لم يعد يعجبنا العجب .. نريد أن نتدخل فى كل شىء ، ونعمل على هوانا،حتى صرنا نطلب ان نشارك سلطاننا فى الحكومة ، واذا أبى علينا ذلك نقمنا عليه وأردنا قتله . مالنا ولذلك ، فاذهبى الآن الى شيرين واقنعيها بوجه الحق ، وافهميها مركز صائب وأهميته »

فنهضت توحيدة وهى على ثقة من رفض ابنتها . لكنها اطاعت زوجها ودخلت على شيرين ، وكانت قد تولاها الوسن لحظة ، فلما سمعت وقع أقدام والدتها استيقظت مذعورة وجلست وهى تنظر الى ما حواليها وتفرك عينيها لتتحقق أنها فى يقظة ، فلما رأت والدتها صاحت : « أماه اين رامز ؟ أين رامز ؟ ويلاه انى فى منام .. » . وعادت الى فرك عينيها

فادركت والدتها أنها رات رامزا فى المنام لفرط تفكيرها فيه ، وتقدمت اليها وضمتها الى صدرها وطبعت على عنقها قبلة طويلة ، فأحست شيرين بالدمع يتساقط على عنقها سخينا ، فأسفت لأنها سببت لأمها هذا الحزن ، فتباعدت عنها قليلا ، وتفرست فى وجهها ، وتوحيدة تحاول اخفاء دموعها بالابتسام فلم تقدر ، فقالت شيرين : « قد سببت لك حزنا وتعبا يا أماه »

قالت : « كلا يا حبيبتى ، ان التعب لاجلك راحة ، ولكننى لا احب ان يستولى عليك اليأس ، وعهدى بك عاقلة حازمة..اصبرى ولا تستسلمى للحزن »

فقالت شيرين : « صدقت يا أماه ، لا بد من الصبر ».ومسحت عينيها وتنهدت تنهدا خفيا وهى تصلح شعرها وتنظر الى مرآة معلقة بالحائط المقابل لباب الغرفة المستطرق الى الدار ، فرات خيال ابيها فى المرآة يمشى حافيا على رؤوس أصابعه مسرعا،فاجفلت عند رؤيته وظهرت البغتة فى وجهها ، ولحظت والدتها فيها ذلك فقالت : « ما بالك ياشيرين ؟ ما الذى تفكرين فيه ؟ »

فأجابتها بصوت منخفض : « لا افكر فى شىء ، لكننى رايت ابى مارا من هنا ، لعله استيقظ ؟ »

قالت : « نعم يا عزيزتى ، وكنت معه الآن نشرب القهوة فى غرفته ، وانى قادمة من عنده »

فدلها قلبها على شىء تكتمه والدتها ، لأنها دقيقة الشعور الى درجة التنبؤ ، فلا يكاد جليسها يهم بالكلام حتى تفهم مراده . لكنها كانت تسكت عن التصريح بما يجول فىخاطرها فقالت : « لأمر ما ، اتيت الى ؟ . خيرا ان شاء الله ؟ »

فمدت توحيدة يدها الى شعرات مسترسلة على جبهة ابنتها وجعلت تعبث بها كأنها تضفرها وقالت : « لم آت الا لخير يا حبيبتى » . وغصت

بريقها ، وتلألأ الدمع فى عينيها ، فتداركت نفسها بالكلام فقالت : « قد كلمني ابوك في شأن صائب بك . ان الرجل سيعود الينا بعد قليل »

فاجفلت شيرين عند ذكر اسمه ، وحولت وجهها نحو الحائط وقالت : « مالى وله عاد أم لم يعد ؟ . انى لا أريد أن أراه »

قالت : « ليس الامر أن تريه أو يراك فقط »

ففهمت مرادها ، لكنها استبعدت أن يقدم صائب على خطبتها بعد ما لاحظه من جفائها وتباعدها فقالت : « ما الذى يبغيه اذن ؟ »

قالت : « ان أباك خاطبنى فى شأنه ، وكلفنى اقناعك بقبول خطبته لك ، انه شاب وجيه غنى مقدم عند رجال الدولة ، وهو الآن صاحب النفوذ الأكبر ، فمثله لا يرد طلبه » . قالت توحيدة ذلك وهى لا تعنيه ، لكنها تعلم أن زوجها لا بد أن يتلصص لسماع ما تقوله لابنتها لسوء ظنه بها ، وتحققت ذلك مما قالته شيرين ، فانه دخل غرفة الاستقبال ليسمع ما يدور بينهما ، وهى مع ذلك على ثقة من أن ابنتها سترفض ذلك الطلب بتاتا

أما شيرين فاستغربت كلام والدتها بهذه اللهجة مع علمها بما فى قلبهامن حب لرامز ، فلاحظت أنها تقوله كأنها على مسمع من أبيها تتجنب به غضبه وفظاظته ، فرأت أن تجاريها بالملاطفة للسبب نفسه فقالت:« فليكن كما نشاء ، ما الذى يعنينى من أمره ؟ .. انه لا يعنينى »

قالت : « ان أباك الح على أن اقنعك بانه شاب يليق بك ، وأنه قد يكون واسطة لانقاذ رامز بنفوذه اذا قبلته »

فأحبت شيرين أن تبقى على تجلدها ، لكنها غلبت على صبرها فقالت: « انقاذ رامز ؟ أهو ينقذه ؟ . واذا انقذه فماذا يفيدنى ذلك اذا كنت عند هذا الجاسوس .. بل كيف ينقذه وهو الذى رماه فى هذا الفخ ؟ و ... »

فوضعت توحيدة يدها على فم شيرين وأشارت بوضع سبابتها الاخرى على فمها اشارة السكوت خوفا من سامع او متلصص

فأزاحت شيرين كف والدتها عن فمها وقالت : « ولماذا اسكت ؟ بأى قلب تخاطبوننى فى هذا الشأن ؟ » . وغلب عليها البكاء ، فلم تر والدتها خيرا من تركها لئلا تقول ما يكدر أباها ، وهو اذا غضب لا يقدر عواقب ما يقوله . فتنحت عن سرير ابنتها وهى تقول لها : « انى تاركتك الآن ريثما تفكرين فى الأمر ، وسأعود اليك بعد قليل » . واشارت بعينيها أنها تفعل ذلك محاذرة من طهماز . وخرجت واغلقت باب الغرفة وراءها ، وأظهرت أنها ذاهبة الى غرفة زوجها لتخبره بما جرى ، وهى تعلم انه فى حجرة الاستقبال. فما مشت خطوتين حتى راته يمشى فى اثرها. فتظاهرت بالبغتة ، واومأت اليه أن يتبعها ، فدخلا غرفته وقالت له : « لا بد من الصبر يا سيدى ، أن شيرين لا تزال منحرفة الصحة فلنتركها الآن ! »

قال : « نتركها ؟ ولماذا » . وبعد قليل ياتى البك ، ويجب ان نجيبه سلبا أو ايجابا ، وانا وعدته بالايجاب ، فهل اكذب عليه ؟ أم كيف تريدين يا هانم أفندى ؟ » . قال ذلك بتهكم ، وجعل يعبث بأخمص رجله اليسرى بأصابع يده اليمنى

فاهتمت توحيدة بالأمر ، لعلمها أن زوجها لم يعط الثبات والحزم الا فى معاكستها ، فهو ضعيف مع كل انسان ؛ كثير الاصغاء والاذعان لاهل الدسائس ، يدار بكلمة،ويقاد بشعرة ، الا مع امراته فانه عنيد لا يرجع عن قوله لأنه يعد رجوعه ضعفا . وكيف ــ وهو رجل البيت ــ لايكون كلامه نافذا ؟ فلما رأت توحيدة تصميمه قالت : « لا بد من التأنى يا سيدى ،لان شيرين مشغولة الخاطر على رامز مثلنا ، فاتركنى ريثما اخاطبها فى فرصة مناسبة »

قال : « بل هى مشتغلة الخاطر عليه أكثر منا جميعا لانها تريد أن تكون من الأحرار ، ما شاء الله ! . . هل تظنين سكوتى عنها فى الماضى كان عن رضى وقبول بما كانت تأتيه ؟ ولكنى كنت اغتفر ذلك أحيانا لان رامزا ابن خالتها ، وكنت أتوقع أن ترعوى من نفسها فاذا هى لا تزداد الا تماديا حتى كادت توقعنا فى ورطةلا خلاص لنا منها .. الا على يد صائب بك ، وقد تفضل علينا الرجل وحذرنا ، بارك الله فيه .. فكيف نقابله بالكذب أو الجفاء . ها انذا قد صرحت لك بكل شىء.. فهمت ؟». قال ذلك وهو يشير بيديه متحمسا ، ثم أخرج سيجارة من صحن بين يديه واشعلها ، واتكأ وأخذ يدخن ولسان حاله يقول : « قد فعلت ما على ، فافعلى ما عليك »

▭

لم يبق شك عند توحيده فى حرج مركزها ، فاستندت الى الحائط واخذت تفكر فى الأمر ، وقد بدا القنوط فى محياها خوفا على شيرين من دناءة ذلك الجاسوس واستبداد والدها . وهى تعلم جيدا أن ابنتها لا تقبل غير رامز ، فكيف اذا كان البدل مثل صائب . لكن خوفها على حياتها وحياة رامز هون عليها الاقتناع برأى زوجها ــ وهم فى عصر كل شىء فيه جائز ، عصر الجاسوسية والظلم ، وقد أصبحت الأرواح والاعراض والاموال فى ايدى الجواسيس ، يضعون من شاءوا ويرفعون من شاءوا ، لا يتكلفون فى ذلك الا كلمة يقولونها بتقرير يرفعونه الى ذلك الطاغية السفاح ، وقد عرفت اناسا ذهبوا غرقا فى البوسفور،أو قتلا بحد السيف او بالسم ، وهم ابرياء،فخافت أن يصيب ابنتها شىء من ذلك،وهى متهمة بالتشيع للاحرار ولا بد انهم عثروا على اوراق لها فى جملة أوراق رامز فيها ما يكفى لاثبات التهمة عليها واذا أغضبت صائبا تمت أسباب النحس، لانه يسعى فى الانتقام لنفسه من رامز. ومنها

مرت تلك الخواطر أمام مخيلة توحيدة وهى مسندة كتفها الى الحائط ، وقد أطرقت واستغرقت فى لجج الافكار ، وزوجها مشتغل بالتدخين يتلهى بمراقبة حلقات الدخان وهى صاعدة ، أو ينفض الرماد عن طرف السيجارة، وان لم يكن هناك رماد

وبينما هى فى ذلك اذ سمعت جرس الدار يدق ، فاستيقظت من هواجسها وأسرعت دقات قلبها خوفا من أن يكون القادم صائبا ، فأصغت ريثما يفتح الخادم الباب . ولم يمض يسير حتى جاء الخادم مسرعا وهو يقول : « أتى البيك . . صائب بك »

فهب طهماز من مجلسه حائرا ولم يعرف كيف ينتعل حذاءه من البغتة والدهشة،وانصرفت توحيدة الى بعض مهام البيت وهى تريد أن تعود الى ما كان يريده زوجها من التحجب عن كل زائر لتخلص من رؤية هذا القادم ، مع أنها التى حملته على التساهل فى أمر الحجاب جريا على مقتضى التمدن الحديث . على أن الاتراك ، ولا سيما فى سلانيك ، كانوا قد خففوا الحجاب على الاجال ، فالمرأة تجالس الرجال وتمشى فى الاسواق ، ولكن طهماز لم يكن يأذن أن تلاقى زوجه غير الاخصاء ، مثل صديقه صائب

فودت توحيدة فى تلك الساعة أن تكون محجبة ؛ لأنها كرهت أن تعود الى موضوع خطبة هذا الرجل لابنتها على رغم اهتمامها بأمره بعد ما سمعته من التهديد ، فتولتها الحيرة واخذت تنتقل بين غرف الدار وهى تسمع قرقعة عصا صائب وهو يضعها على الشماعة . ثم سمعت طهماز يرحب بضيفه العزيز ويدعوه الى حجرة الاستقبال ، فخطر لها أن تتفقد ابنتها لترى حالها بعد سماع جرس الدار وعلمها بقدوم صائب ، فدخلت عليها فوجدتها قد توسدت الفراش ، وأحاطت رأسها بعصابة كأنها تشكو صداعا . فهرعت اليها وأخذت تجس يدها لئلا تكون محمومة ، فلم تجد بها بأسا فضمتها وقبلتها وهى تقول : « مالك يا عيونى ؟ مم تشكين ؟ »

فأجابت شيرين بصوت ضعيف : « أشكو من صداع خفيف ، لا تخافى »

فقبلت جبينها وكأنها تجسه بشفتيها لتتحقق خلوه من السخونة ثم قالت : « توسدى يا حبيبتى ، نامى . . . ان النوم يخفف الصداع »

فقالت : « أنا أحاول النوم جهد طاقتى» . وأرادت توحيدة باغراء شيرين بالنوم الا تسمع ما قد يدور بين ابيها والضيف من الحديث الذى يؤلم عواطفها لقرب غرفتها من حجرة الاستقبال،فسرها انها اذعنت حالاونامت بدون أن تبدل ثيابها . وخرجت توحيدة وهى تسمع صوت زوجها يناديها ، فأصلحت من شأنها ،ووضعت الخمار على راسها ودخلت . فوقف صائب بك يهش لها ويرحب بها وقال : «انى فى غاية الامتنان للطف سيدى طهماز بك وانسه ، فانه يعدني من أهل المنزل كأحد أولاده . وانا اعلم انه لا يفعل ذلك مع كثيرين ، وهذه هى المرة الثانية التى أجىء فيها اليكم

.. تفضلى اجلسى » . قال ذلك وجلس
فجلست باحترام وهى ترحب به مجاملة ، فوقع نظرها على ورقة فى يد طهماز يتصفحها وهو يبتسم ولسان حاله يقول : « اسألونى عن فحواها »
فأدركت توحيدة غرضه فقالت : « ما هذا يا سيدى ؟ » . وأشارت الى الورقة
فقال : « تلغراف من الاستانة » . وابرقت عيناه
فتبادر الى ذهنها انه تلغراف باطلاق سبيل رامز ، فتسارعت دقات قلبها وهمت أن تخطفه من يده لتقراه ، لكنها أمسكت نفسها تأدبا وقالت : « لعله عن رامز ؟ »
فهز كتفيه وقال وفى صوته غنة دلال او مداعبة : « لا ، ولكنه لشأن آخر لا أقوله لك »
فلم يرق لها ذلك الدلال ، ولكنها تجلدت وقالت : « اى شأن يا سيدى؟ هل يهمنى أن أعرفه ؟ »
فضحك وقال : « طبعا يهمك لأنه شأن زوجك . لا تخافى ليس فيه امر بالنفى او السجن والحمد لله »
فتناول صائب الحديث وهو يتواضع وقال : « طبعا لا ينبغى ان يكون فيه شيء من ذلك ، لان المخلصين للذات الشاهانية يعاملون غير معاملة الخوارج المارقين » . وتشاغل باصلاح نظارته لحظة وتنحنح ثم قال : «هذا تلغراف يا سيدتى من احد أصدقائى بالقصر ينبئنى فيه بأن مولانا الخليفة أعزه الله قد انعم على سيدى طهماز بك برتبة سنية بناء على ما تحققوه من صدق ولائه للذات الشاهانية »
فقطع طهماز كلامه قائلا : « ومن أين عرفوا ذلك لو لم يتفضل سعادة البيك بابلاغه اليهم ، فانت صاحب الفضل فى هذه الرتبة »
فأخذ صائب يتلطف ويتواضع ويتظاهر بأنه لم يفعل شيئا ، وان طهماز انما نال تلك الرتبة عن استحقاق لاخلاصه ولما يرجوه امير المؤمنين من الخدمات النافعة على يده. وطهماز يجيب معتذرا متواضعا،وتوحيدةبينهما جامدة كالصنم لاشتغال خاطرها بما تخافه من حديث زوجها بشأن الخطبة أو ما يجرى مجراها ، فأحبت ان تشغلهما عن هذا الموضوع فقالت : « ألم يعلم صائب بك شيئا عن رامز ؟ »
فتزحزح صائب عن كرسيه وهو يظهر الاحتفاء بحديث توحيدة وقال : « نعم يا سيدتى ، ان امر هذا الشاب أهمنى كثيرا نظرا لما علمته من علائق القربى بينكم وبينه ، وقد سألت ناظم بك عما جرى فى شأنه فقال : انه جاءه تلغراف من القصر يطلبون فيه توجيه رامز الى الاستانة ، وأظنهم يحملونه اليها بقطار الليلة »
فأجفلت توحيدة وندمت لانها فتحت هذا الحديث وخافت أن تسمعه

ابنتها ، فأرادت تحويله فلم تجد غير الرجوع الى حديث الرتبة فقالت : « ينبغى أن نشكر لك سعيك فى هذه الرتبة

فقطع طهماز كلامها قائلا : « وسنشكر فضله أكثر من ذلك متى نجح سعيه فى سبيل رامز . لا اظن ذلك يصعب عليه . اين ابنتنا شيرين ؟ »

قالت : « لاتزال مريضة ، وقد مررت بها قبل مجيئى الى هنا فوجدتها نائمة مشدودة الراس من صداع طرأ عليها »

فقال وهو يتناول سيجارة من علبة بين يديه ويقدمها الى صائب . « طبعا أصابها الصداع من الحزن . ولكن .. »

فقطع صائب كلامه قائلا : « الا يحق لها أن تحزن والشاب ابن خالتها وقد تعاشرا كالأخوين ؟ انى قاسيت كثيرا ، ومرت بى أحوال عديدة،ومع ذلك فان أمر رامز أقلق راحتى .. مسكين .. سأبذل جهدى فى التخفيف عنه . وانا أعد ذلك واجبا على بالنظر لما لاقيته من مؤانسة سيدى البيك وحضرة هانم افندى (وأشار الى توحيدة) وأود لو أستطيع أن افعل شيئا يخفف عن شيرين لانى اشعر بانعطاف خاص نحوها بعد ما آنسته من آدابها ولطفها وحسن تربيتها حفظها الله » . قال ذلك ومد يده الى جيبه وأخرج علبة مكسوة بالمخمل المزركش وقال وهو يفتحها :« وأظن مما الاقيه من لطفكم أن شيرين تشعر نحوى بمثل ما أشعر به نحوها ، فاذا قبلت هذه الهدية منى تحقق ظنى ، وعندئذ أعد نفسى سعيدا »

ثم وجه خطابه الى توحيده وقال : « لا تستغربى يا سيدتى هذه الجراة منى فان سيدى طهماز بك جرانى على ذلك ».وقدم العلبة مفتوحة الى توحيدة ، فوقع بصرها فيها على قطعة من الحلى على هيئة الطائر ، مرصعة بحجارة من الماس والياقوت ، يأخذ لمعانها بالبصر ، لا يقدرها العارفون بأقل من خمسمائة جنيه . فتناولت العلبة ويدها ترتجف من الارتباك ، لعلمها أن شيرين لا يرضيها شيء من ذلك ، ولم تعرف بم تجيب، فأجاب طهماز عنها قائلا : « أن شيرين عاقلة ، وهى من بنات هذا العصر اللواتى اختبرن وطالعن ، فهى لا تجهل مركز صائب بك ، وستقبل هديته مع الامتنان » . وتناول العلبة وجعل يتفرس فى احجارها ولمعانها وقال : « انا اقدم لها هذه الهدية عنك » . قال ذلك ونهض وهو يتهادى فى مشيته ، والعلبة فى يده ، فتبعته توحيدة وقلبها يختلج خوفا مما تخشى وقوعه على اثر تلك المقابلة

وكانت شيرين متوسدة الفراش واذناها مصغيتان لما يدور من الحديث فى حجرة الاستقبال فلم تفتها كلمة قيلت هناك ، فلما سمعت قول ابيها، وعلمت أنه مشى نحو غرفتها ارتعدت فرائصها ، وغلب عليها الغضب ، وودت لو انهم أعفوها من تلك المقابلة . لكنها ما لبثت أن سمعت سعال والدها بالباب . وأسرعت والدتها أمامه تسترق الخطى نحو سريرها وهى

تحسبها نائمة فاذا بشيرين قد جلست وأخذت تفرك عينيها ، فقبلتهـا والدتها وقالت لها : « بم تشعرين الآن يا شيرين ؟ »

فلم تجبها ، لكنها تجلدت وحولت نظرها نحو الباب فرات اباها داخـلا وقد أخرج الحلية المرصعة من العلبة ، وتقدم نحوها بلطف لم تعهـده فيه من قبل . حتى اذا دنا من السرير تبسم وهو يتجشأ ، وقدم الحلية اليها قائلا : « كيف تجدين هذا الطائر يا بنية ؟ الا تستلطفينه ؟ »

فتباعدت شيرين عن الحلية كأنها تخاف ان تلسعها ، ولم تجب . فتفرس ابوها في وجهها وهو يضحك وقال : « لا تخافي ، انه لا يعض ، بل هو حلية ثمينة تليق بعنقك الجميل » . وقربه نحو صدرها

فتراجعت وهي لا تنظر اليه ودفعت يده عنها بلطف فقال : « مابك ؟ . الا تزالين مريضة ؟ »

فسرها سؤاله لانه فتح لها بابا للكلام فقالت : « نعم يا ابي ، اني أشكو صداعا شديدا » . وأظهرت ميلها الى الرقاد

فأمسكها بذراعها ليمنعها من النوم وقال : « اذا كنت تشكين صـداعا فضعي هذا الطائر على راسك فانه يشفيه » . ورفعه الى رأسها

فردته وأظهرت التمنع ، فأظهر أنه عاتب عليها وقال : « أقدم لك هدية وترفضينها يا شيرين ؟ »

فنظرت اليه نظر الاستعطاف وقالت : « انك أبي وتقدر أن تأمرني بمـا تريده فأطيعك الا هذا الامر فاني لا طاقة لي به »

فقال : «لا أظنك فهمت مرادي . اني أقدم لك هدية ثمينة جاءنا بهـا صديقنا صائب بك »

قالت وصوتهـا يرتجف : « اذا كان صديقك قدمها لك فالبسها أنت وأعفني منها »

قال : « انها هدية لك وليست لي »

قالت : « لا أعهد بيني وبينه ما يسوغ له تقديم هدية من هذا النوع ! »

قال : « ان الرجل ذو فضل علينا ، وقد أراد اكرامنا ، أيليق بنـا أن نرفض اكرامه »

قالت : « يمكنك أن تقبل ما يقدمه لك ، أما أنا فلا »

فأظهر الغضب وقال : « أنا أقول لك اقبليها »

فلم تعد تستطيع صبرا على الكظم ، فقالت وقد ارتفع صوتهـا رغم ارادتها : « لا لا . . لا يمكنني قبولها يا سيدي »

وكانت والدتها واقفة وقد تولتها الحيرة ، ونظرا الى لهفتها على ابنتهـا واملها في انقاذ رامز بمساعدة صائب ، مالت الى أن تقبل شيرين ما يعرضه

عليها أبوها فقالت : « لا تتشبثى برأيك يا شيرين ، يا حبيبتى . افهمى المقصود أولا ، ثم قولى ما يبدو لك »

فالتفتت الى والدتها لفتة العتاب وقالت : « وانت أيضا يا أماه ؟ » . وغصت بريقها وبان الدمع فى عينيها ، فكان لذلك المنظر وقع شديد على قلب والدتها فسكتت . فعاد أبوها الى الكلام فقال : « ألا ترينني اطيل صبرى عليك واتلطف فى محادثتك ؟. اصغى لما اقوله لك . أنا أعلم انك غاضبة مما أصاب عزيزنا رامزا اليوم ولكن . . »

فقطعت كلامه ولم تعد تملك حبس نفسها عن البكاء ، فأدارت رأسها نحو الحائط وأكبت على ذراعها فوق الوسادة وبكت همسا . لكن والدها عرف بكاءها من اهتزاز كتفيها فغضب لانها قطعت كلامه بالبكاء وقال : « وتبكين أيضا وأنا اتزلف اليك واراعى خاطرك ؟ . تبكين لذكر رامز وهو الذى جر البلاء على نفسه وعلينا ، وأنا أسعى فى ترقيع ما مزقه بطيشه . ألا تعلمين انه أوقع نفسه فى غضب البادشاه ، وأخشى أن يكون أوقعنا معه ، وقد وفقت بمعونة الله الى من ينقذنا من هذه الشرور عند الحاجة ، أعنى صديقى صائب بك ، وهو مع ذلك يعرض علينا مودته فكيف ترفضينه بهذه الفظاظة . قومى . اجلسى . . » وأمسكها بذراعها يريد اجلاسها ، فانطوت على نفسها وظلت مكبة على ذراعها ، وقد أغرقت فى البكاء

فالتفت طهماز الى توحيدة وهز رأسه استنكافا من تصرف ابنته ، فوقعت توحيدة فى حيرة ، وخافت الفضيحة ، فأشارت الى زوجها اشارة الاستمهال ، وأومأت اليه بعينيها أن يخرج ويتركها معها على انفراد فربما استطاعت اقناعها ، فتنحى الى بعض جوانب الغرفة ثم خرج ، فعلمت شيرين بخروجه من صوت مشيه ومن سعاله وهو خارج ، ثم سمعت والدتها تهمس فى أذنها قائلة : « لايليق ياحبيبتى أن تجيبى اباك على هذه الصورة . ولو علمت ما فعلوه برامز بعد القبض عليه لما . . »

فقطعت كلامها قائلة : « لقد علمت بكل شىء »

فقالت : «هل علمت انهم سيأخذونه الليلة الى الاستانة بأمر من السلطان؟»

قالت : « نعم . وأنا أتوقع اعظم من ذلك »

قالت : « فتبصرى اذن المركز الحرج الذى نحن فيه ، وانا على يقين اننا اذا سايرنا صائب بك ، فانه ينقذ رامزا وينقذنا اذا لحقتنا تهمة بسببه . بالله الا خففت من جفائك وسايرت اباك بحسب الظاهر لنرى ما يكون . قومى قبلى يده وخذى الهدية فانها لاتقدم ولا تؤخر »

فرفعت شيرين رأسها عن الوسادة ، وقد احمرت عيناها كأنها محمومة ، وتكسرت أهدابها من فرط البكاء وقالت : « لم اكن أحسبك تصدقين الاكاذيب أو تنخدعين بأقوال المنافقين . وهبى ان الرجل صادق فيما يقول فانى

لا أستطيع أن أتصوره ولا أقبل شيئا منه . لا تتعبى نفسك »

قالت : « أخاف أن تندمى ياشيرين اذا علمت بعدئذ انه كان فى امكانك ان تنقذى رامزا من الخطر ولم تفعلى »

فصرت بأسنانها وهى تتنهد وقالت : « لا . لن أندم لان هذا الرجل الذى يدعى الغيرة علينا وعلى رامز هو الذى رماه فى ذلك الفخ »

ففطت توحيدة فم شيرين بكفها مخافة أن يسمعها أحد ، وقالت بصوت ضعيف : « لانقدر أن نثبت هذه التهمة . وما علينا الا ان نتبع الكاذب الى باب الدار »

فبادرتها قائلة : « كفى يا أماه ، انى لم اعد استطيع صبرا على هـــذا الجدال . ان موتي وموت رامز اهون على من قبول هذا الرجل » . قالت ذلك وشرقت بريقها وعادت الى البكاء

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا وقع أقدام طهماز داخلا الغرفة وهو يقول : « اسمعى يا توحيدة ان صائب بك يحب أن يكلم شيرين رأسا . لعلها تقتنع بكلامه »

فلما سمعت شيرين قوله وثبت عن السرير ووقفت وأسندت يدها الى احدى قوائمه وقد حولت وجهها عن باب الغرفة كأنها تحاذر أن يقع بصرها على ذلك الرجل الذى لاتقدر أن تتخيله

فأعاد طهماز كلامه قائلا : « ان صائب بك يريد ان يكلم شيرين على انفراد »

فارتبكت توحيدة من هذا الاقتراح لانه يخالف العوائد المألوفة ، ونظرت الى زوجها كأنها تستشيره . فقال : « دعيهما فربما كان صائب بك أقدر على اقناعها منا ، وهو لم يقدم على ذلك طبعا الا لشدة محبته . وأظن شيرين لا ترفض هذا الطلب منى أيضا »

أما شيرين فاستجمعت رشدها وتجلدت ، واحست بميل الى مخاطبة غريمها وهى فى تلك الحال من الغضب ، لتقول له فى وجهه ما تعتقده فيه وتشفى غليلها بتوبيخه وتعنيفه ، والتفتت الى أبيها وقالت : « لا بأس من دخوله »

كان صائب واقفا بالباب ينتظر الاذن فى الدخول ، فلما سمع كلام شيرين استبشر كما استبشر أبوها أيضا . ثم خرج أبوها من الغرفة ودخل صائب وهو ينظر الى شيرين نظر المحب الولهان ، ويتشاغل باصلاح نظارته باحدى يديه ، وقد حمل بيده الاخرى العلبة وفيها الحلية المرصعة . فلما دنا منها وهى واقفة بجانب السرير التفتت اليه شزرا وقالت : « ما الذى تريده ياسيدى ؟ »

فتقدم بلطف كأنه يحاذر أن يدنو منها وقال : « أريد رضاك »

قالت : « وما الذى يهمك من رضاى ؟ »

قال : « ذلك كل ما يهمنى ، فاذا حصلت عليه فقد حصلتعلى السعادة . وتكونين أنت سعيدة ايضا ، بل تكونين أسعد مخلوقة على وجه الارض » . قال ذلك بنغمة التذلل والتودد

فقالت : « أية علاقة بين سعادتى وسعادتك ؟ »

فابتسم وقال : « لانك اذا رضيت وقبلت هذه الهدية الحقيرة بذلت نفسى فى سبيل سعادتك » . وقدم العلبة اليها ، فتباعدت هى عنه ، وخبأت يدها وراء ظهرها وهى تقول : « انت لا تقدر ان تجعل أحدا سعيدا »

فاستبشر بذلك التوبيخ وقال : « جربى ياشيرين وانظرى . فانك ترين منى خادما مطيعا أصدع بأوامرك واكون طوع ارادتك ، فأبذل جهدى فى كل ما تريدينه »

فقالت : « أصحيح ما تقول ؟ »

فسره سؤالها وتأكد رضاها ، فقال بلهفة : « أقسم لك انىأفعلماتريدينه»

فقالت : « ان غاية ما أريده ان تكون بعيدا عنى ، فاذا كنت صادقا فيما تقول فانصرف بسلام »

فنظر اليها نظر العتاب وقال : « أبمثل هذا الجواب تقابلين توددى ؟ ثقى ياشيرين أنى مفتون بك ، لا أدخر وسعا فى سبيل نيل رضاك »

فقطعت كلامه قائلة : « أكان من عظم حبك لى وشغفك بى انك رميت ذلك الشهم الحر فى أعماق السجن ؟ »

فتحمس عند سماع كلامها وقال : « أنا رميته فى السجن ؟ أعوذ بالله . أنا رميته ؟ . انما رماه طيشه وسوء تدبيره . ولكنى مستعد أن أنقذه من الفخ اكراما لعينيك »

قالت : « تنقذه من الفخ ؟ . ومن رماه فيه سواك ؟ »

فبالغ فىالاستغراب وقال : « أنا ؟ أنا رميته ؟ ارجعى الى رشدك» . واظهر الاستخفاف بقولها ليبعد التهمة عنه ، وقرب يده والعلبة فيها وقال : « دعى الاوهام عنك وارجعى الى رشدك واقبلى هذه الهدية ، واعلمى ان ذلك الغلام ليس أهلا لك . بل لقد أوشك أن يوقعك فى خطر لاينجيك منه أحد ، أوشك ان يجعلك سجينة مثله لتهمة مثل تهمته . ولولاى ، ولولا حبك لكنت الآن سجينة مثله . صدقينى ياشيرين انى خدمتك خدمة لا تقدر بالاموال » . قال ذلك والعلبة لا تزال مرفوعة على كفه يقدمها نحوها وهو ينظر فى عينيها نظر العاشـــق المفتون ، فاختطفت العلبة من يده ورمتها الى الارض وهى تقول : « دعنى من هديتك الملطخة بالدم ، وقل لى كيف انقذتنى من الهلاك ؟ ان حبل الكذب قصير »

فشق عليه عملها ، ولكنه تجلد والتقط العلبة فوضعها فى جيبه وقال : « انى أعذرك لجنونك ، ولا أعاملك بالمثل . لكننى انصح لك أن تصدقينى . صدقينى ياشيرين لقد انقذتك من الهلاك »

قالت : « كذبت ، ان مثلك لا يستطيع غير ايقاع الناس فى المهالك »

قال : « ولكن الذى يقدر أن يوقع الناس فى المهالك يقدر أن يخلص الناس منها » . ومد يده الى جيبه واخرج ورقة قبض عليها وقال بلحن التهديد : « اعلمى ان حياتك وموتك فى قبضة يدى هذه »

فضحكت ضحكة الازدراء وقالت : « خسئت ! . . يكفيك تمويها ، يكفيك ما ارتكبته بايقاع ذلك الشاب الحر فى ايدى القوم الظالمين . اوقعته بين مخالب الموت لترضى ذلك الطاغية السفاح . قبحكم الله من اشرار . ويل لكم من موقفكم يوم الحساب » . وغصت بريقها على رغم ارادتها ، ثم تجلدت وقد احست بقوة وبسالة لم تشعر بمثلهما من قبل ، وحولت وجهها عنه وجعلت تمشى فى الغرفة مشية الاسد الظافر

فأخذ الحنق من صائب مأخذا عظيما ، وصر بأسنانه ، ومد يده وهو قابض بها على تلك الورقة وقال : « لا اراك فهمت ما اقوله لك . قلت ان موتك وحياتك فى قبضة يدى هذه ، فاذا اطعتنى ورجعت الى رشدك ورضيت بما عرضته عليك كنت سعيدة والا فانى . . »

فقطعت كلامه وقالت : « انك أقصر باعا مما تشير اليه ! »

فتقدم نحوها ، وقد اخرج تلك الورقة وأمسكها بسبابته وابهامه حتى ظهرت كلها وانحنى مظهرا التهكم ، وقال : « الا تعرفين هذه الورقة ؟ »

فلما وقع بصرها عليها علمت انها من الورق الذى كانت تكاتب به رامزا احيانا فأجفلت ، ولكنها كظمت وقالت : « وما عساها أن تكون ؟ »

قال : « أنا أقول لك ما هى ، هى كتاب منك بخط يدك وجدته بين اوراق ذلك الطائش الغر . أتذكرين ما قلت له فيه ؟ »

فأوجست خيفة لعلمها انها كانت تكتب الى رامز دون حذر ، وقد يكون فيها ما تؤاخذ عليه ، لكنها أدارت رأسها وقالت : « لا أعلم مابها ، ولا يهمنى ان أعلم ! »

قال : « الا يهمك اذا كنت قد ذكرت له فيهـا انك تعدين بقاء الذات الشاهانية جلالة مولانا امير المؤمنين مصيبة على الامة العثمانية ؟ ! »

قالت : « اليس ذلك حقا ؟ »

قال : « لا أدرى . ولكننى اعلم ان وصول هذه الورقة الى يدى جلالته يجعلك تندمين ساعة لاينفع الندم . واذا كنت لم تصدقى ما أقوله فهـذا خطك فاقرئيه » . قال ذلك وفتح الورقة فوقع بصرها عليها فعرفت خطها فلم يبق عندها شك فى وقوع الخطر ، لكنها ظلت تظهر الاستخفاف

اما هو فقال : « هل تظنين هذه الورقة لا تحوى غير ما ذكرته لك ؟ لو قلت لك فحوى ما بقى منها لتراميت على قدمى تلتمسين كتمان هذا الكتاب. لقد ذكرت له أيضا انك تستغربين صبر الاحرار على بقاء هـــذا السلطان حيا ؟. فهل فى الدنيا ذنب أعظم من هذا ؟ هل تجدين سبيلا للانكار ؟ »

ثم خفض صوته وقال : « هل تحققت الآن ان حياتك وموتك فى قبضة يدى ؟ » . قال ذلك وشمخ بأنفه ، ووقف وهو يتوقع أن تترامى شيرين على قدميه كما قال ، لكنه رآها لا تزال مستخفة به كأنه لم يقل شيئا ، فتقدم نحوها وقال : « ومع ذلك فأنا حتى الساعة اعرض عليك حياتك . أى انى أهبها لك على أن ترجعى عن غيك وتعتذرى عما مضى وتعتقدى انى أحبك والا . . . »

فحولت وجهها عنه وهى تنظر اليـــه بطرف عينيها ازدراء وتمتمت متسائلة : « اعتذر عما مضى ؟ » . ثم التفتت اليه وقالت : « اسمح لى ان اثبت كذبك قبل كل شيء . لقد تنصلت من انك القيت رامزا فى السجن بوشايتك ، ولـكنك ذكرت الآن انك اخذت هذه الورقة من بين أوراقه ، فكيف حصلت عليها ان لم تكن انت الواشى به . ثم اعلم أن الحياة ليست هى وحدها غاية الانسان فى دنياه . هل تحسب السعادة بالطعام والشراب أو باكتساب الأموال ؟ اذا كنت تعد ذلك سعادة فاعلم أنها سعادة حيوانية رخيصة ، وانما السعادة الحقة سعادة الضمير الحر ، سعادة القلب السليم ، سعادة النفوس الابية نفوس طلاب الحرية . ولـكنك لم تذق هذه السعادة ولن تذوقها . انك وأمثالك تحسبون الغرض من الحياة أن تجمعوا الاموال بأية وسيلة ، ولهذا تبيعون ضمائركم بالجاسوسية وتخربون البيوت العامرة وتقتلون النفوس البريئة . . لـكن تمتعوا ما شئتم واقتلوا من شئتم . فلن يؤثر ذلك فى عقيدة الاحرار الصادقين . والآن وقد علمت ذلك فافعل ما تراه . فما انا بخير ممن سبقونى الى التضحية والفداء ! »

وكانت تتكلم كأنها تخطب فى جمهور أما صائب فكان يسمع كلامها ويهز راسه تارة ويقلب شفته تارة أخرى ، ولسان حاله يقول : « هـــذا هو الجنون بعينه »

فلما فرغت من كلامها سكت هنيهة مطرقا ، وقد اخذته الحيرة ، ثم رفع بصره اليها وقال : « اراك تتكلمين كلام اهل الطيش الذين يضيعون ايامهم فى الـكلام الفارغ . وقد كان يجدر بى بعد ما سمعته منك أن اكتفى برفع امرك الى صاحب الامر . لـكننى لا ازال ضنينا بحياتك شفيقا على شبابك ، اكراما لأبيك . . ولأنى أحبك . فأنا اعرض عليك الحياة مرة ثانية ، واجيبك بأن ما ذكرته من الالفاظ الضخمة كالضمير والحرية والنفس الابية انما يلجأ اليها اهل الفاقة الذين تضيق دونهم سبل الرزق . فاذا عجزوا عن اكتساب المال عدوا اكتسابه رذيلة !. أى فائدة

لأصحاب تلك النعوت ان لم يكن لديهم من المال ما يدفعون به الجوع والبرد ؟. وما هى الحرية أو ما الفائدة منها لمن خلا جيبه وخوى جوفه ؟. هل تجدين بين أولئك الذين يسمون انفسهم احرارا من يستطيع ان يعيش من ماله ؟. لقد أصبح لفظ حر لقبا لاهل الطيش الافاقين الذين يضربون فى الارض لخلو أيديهم من المناصب ، فيزعمون انهم تخلوا عن الخدمة رغبة فى الحرية ، ولكنهم يفعلون ذلك عن عجز ، ولو أعطيت لهم المناصب لنبذوا الحرية وركنوا الى العبودية كما فعل كثيرون منهم كنت سببا لردهم الى الولاء للذات الشاهانية . ولكن مالنا ولذلك الآن ؟ هذه آخر كلمة أقولها لك ، ثم يكون دمك على راسك .. انى اعرض عليك النجاة من خطر الموت ، ولا ازال أقول انى أعدك بانقاذ رامز ايضا ، ولا اشترط شيئا غير رضاك بى ، والا فلا تلومى الا نفسك » . قال ذلك بلهجة التهديد ثم تحول الى الباب وهو يتوقع أن تندم فتستوقفه وتباحثه ، فلم يسمع منها الا قولها : « افعل ما بدا لك ، واذا كانت الحياة لا تكون الا على يدك وأيدى امثالك فلا حاجة لى بها ! »

وهنا عاد اليها مسرعا وهو يشير بيديه اشارة الوعيد والتعنيف وقال : « تزعمين أنك تحبين رامزا ، وها أنت ذى تقتلينه بيدك . قد سنحت لك فرصة لانقاذه فلم تفعلى ! »

فأجابته : « ان حبى رامزا لا دخل لك فيه . وان رامزا لا يرضى ان تكون حياته منة من جاسوس منافق . واما انا فانى افضل أن يموت رامز ، وأموت أنا معه ضحية الحرية وقول الحق ، ولا نعيش عيشة المتملقين المنافقين . وزد على ذلك ان يدك أقصر من ان تستطيع خيرا . انك لا تقدر على غير الشر ، فانصرف عنى ودعنى »

فضحك صائب ضحكة طويلة مغتصبة ، وتحول وخرج وهو يردد قولها باستهزاء : « نموت ضحية الحرية وقول الحق ؟ ما شاء الله ! »

□

وكان طهماز وامراته جالسين فى حجرة الاستقبال يسمعان ما دار بين شيرين وصائب ، وكانا يتوقعان أن تذعن شيرين خوفا ، فلما رأيا عنادها قال طهماز : « قبح الله هذه الفتاة ، ما أشد جنونها . اذا كانت لا تخاف على حياتها فاننا نخاف على حياتنا بسببها »

وما خرج صائب حتى خف طهماز اليه وأخذ يستعطفه ويرجوه الا يعجل بالانتقام ، وأن يعذر شيرين على طيشها ويتمهل ريثما يقنعانها . ورفض صائب فى بادىء الامر ، وطهماز يبالغ فى استعطافه ، ثم وعد بأن يصبر يوما او يومين اكراما لخاطره ، وودعه وانصرف وهو ينتفض

من شدة الغيظ لما سمعه من شيرين ، وكان يتوقع استسلامها له فور اطلاعها على ذلك الكتاب الذي وجده بين أوراق رامز فاحتفظ به ليتخذه ذريعة لاذلالها . فلما رأى جفاءها حدثته نفسه بأن ينتقم منها ، لكنه خشي أن يفقدها الى الابد ، فلما استمهله ابوها ووعده باقناعها تربص ليرى ما يكون من أمرها

اما توحيدة فأصبحت لا تعلم ماذا تعمل ، وقد لامت ابنتها على ما بدا منها ، وصممت على اقناعها بالرجوع عن عنادها ، وأشارت على طهماز بأن يعول عليها فى اقناع شيرين ، وأن يلحق بصائب ليعاود استعطافه والاعتذار اليه ، فلبس ثيابه وسار فى أثره

وكانت شيرين بعد أن خرج صائب من غرفتها قد أغلقت الباب بعنف ، وأظهرت أنها تلتمس الانفراد والراحة فى الفراش ، فتركتها والدتها وذهبت الى غرفتها لتعمل فكرها فى حيلة تخترعها لاقناعها

فلما خلت شيرين الى نفسها فكرت فيما سمعته ورأته ، فتحققت فداحة الخطر عليها وعلى رامز ، وأيقنت أنهما مقتولان . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، وهى ساعة تستولى فيها الوحشة على قلوب البشر كأنهم يشاركون الطبيعة أسفها على فراق الشمس ، فتنقبض القلوب وتستوحش النفوس وتتسلط السويداء على العقول فلا يرى الناس من الدنيا الا وجهها المظلم ، فكيف بمن كان فى مثل حال شيرين من اليأس ، بعد أن قضت نهارها بين جدال وبكاء وحزن وخوف ؟

على أن شيرين بعد ان أغلقت غرفتها وجاش الحزن فى خاطرها عادت فتذكرت حبيبها وكيف كان يأتيها فى مثل تلك الساعة فيخفف أحزانها ويذهب وحشتها بلطف حديثه ، ثم تصورت ما هو فيه من الضيق ، وكيف أنه لا يلبث ان يذهب ضحية لذلك الظالم ، وقد يسجن ويعذب او يقتل او يلقى فى البوسفور فيذهب فريسة للأسماك . فلما تصورت ذلك اقشعر بدنها وغلب الحزن عليها ولم تجد ما يفرج كربتها غير البكاء ، فأطلقت لنفسها العنان ، واخذت تندب سوء حظها وتبكى وتشهق كالطفل ، وجعلت تناجى نفسها قائلة : « رامز .. حبيبى رامز ، اين انت الآن يا ترى ؟. انك مسجون ، وعما قليل يحملونك الى يلدز قبر الاحرار ومدفن الحرية .. لا تخف .. لا تبال الموت فى سبيل الحق والحرية .. ولكن أيموت رامز ؟. ايموت الحر الصادق ويبقى هذا الجاسوس وأصحابه على قيد الحياة ؟ »

قالت ذلك وصرت بأسنانها ، ووثبت من فراشها ، وقد أظلمت الغرفة ، واتسع مجال الخيال ، فتصورت رامزا فى ضنك ، وانه لاشك يفكر فيها ويخاف عليها ويخشى أن يحظى صائب بها بعده فقالت : « لا تخف يا حبيبى انى ثابتة على ودادك متفانية فى حبك ، وان يد ذلك المنافق

لأقصر من أن تنال منى شعرة ، وان يحظى منى بنظرة .. لكن آه ما الفائدة من ذلك وأنت فى خطر القتل الشنيع ؟!. ما العمل الآن يا شيرين ؟ »

وكانت تقول ذلك وهى تتمشى فى الغرفة وقد اصبحت فى غفلة عما يحيط بها ، ونسيت موقفها . ثم اخذت تستجمع قواها فرجعت الى السرير واستلقت عليه وأطلقت لتصورها العنان ، فسمعت وقع خطوات فى الدهليز عرفت أنها خطوات أمها ، ثم سمعت نقرا على الباب فعلمت أن والدتها تطلب الدخول عليها فتظاهرت بالنوم ولم تجب ، فألحت والدتها فى قرع الباب خوفا على ابنتها من أن يصيبها اغماء أو اى سوء فى وحدتها . فلم تجد شيرين بدا من النهوض ، فنهضت وفتحت الباب وهى تتجلد لتخفى ما فى نفسها . فدخلت والدتها وفى يدها مصباح وقد بلل الدمع عينيها ، فتأثرت شيرين بحنوها وحنانها . وكانت الرابطة بينها وبين والدتها اشد من رابطة سائر البنات بأمهاتهن ، لان شيرين كانت مستودع أسرار تلك الوالدة التعسة التى خانها الحظ وصارت زوجة لذلك الرجل الجاهل . فاحتملت فظاظته وحماقته اكراما لابنتها ، فربتها احسن تربية . ولما كبرت اتخذتها صديقة تشتكى اليها همومها ومصائبها ، وهى التى سهلت لها الاجتماع برامز . وكانت تسر باجتماعهما وينشرح صدرها لتحابهما ، وتعد الايام ليتم قرانهما . وقد احبت رامزا محبة الوالدة لولدها ، فكان وقوعه فى هذه الورطة من اكبر اسباب شقائها . وزاد بلبالها لما علمت — مما دار بين شيرين وصائب — أن ابنتها عرضة لذلك الخطر الا اذا رجعت عن عنادها ورضيت بصائب مع كرهها له واستنكافها دناءة اخلاقه . ولكن حنو الامهات غلب عليها فاختارت اهون الشرين لعلمها أن صائبا اذا لم ينل رضاء شيرين وشى بها وعمل على قتلها

كل هذه الهواجس مرت بخاطر توحيدة فى غرفتها بعد ذهاب صائب ، وكانت تنوى أن تؤجل مخاطبة شيرين الى الصباح ، لكنها لما تراكمت عليها الهواجس لم تعد تصبر عن رؤيتها لتطمئن عليها ، ولعلها تستطيع اقناعها بالقبول ، وكان زوجها قد غادر البيت فرحا برتبته ليقضى السهرة مع صائب ويطمئنه الى نيل بغيته



اختفاء شيرين

لما دخلت توحيدة على ابنتها ابتسمت كل منهما للأخرى تخفيفا عنها والدمع يتقطر من أعينهما . وغلب حنو الوالدة فوضعت المصباح من يدها على نضد هناك وأكبت على ابنتها تضمها الى صدرها وتقبلها وهى تقول لها : « اين كان هذا البلاء مخبأ لنا ؟. قبحك الله يا صائب . قد كنا فى نعيم وراحة فأتيت تكدر عيشنا » . ثم رفعت راسها عن عنق شيرين وقالت : « سامحك الله يا طهماز » . وامسكت بيد شيرين واجلستها على المقعد وهى تقول لها : « لا تحزنى يا عزيزتى ولا تيأسى . ان الله لا يتركنا »

فظلت شيرين ساكنة وقد أطرقت وعيناها مغرورقتان بالدمع ، فاخرجت توحيدة المنديل من جيبها ومسحت عينى ابنتها وهى تقول : « لا بأس عليك يا حبيبتى . تكلمى . فقد خرج أبوك وأتيت انا لأخفف عنك . ما من علة الا لها دواء »

فتنهدت شيرين تنهدا عميقا ولم تجب

فقالت توحيدة : « ان الامر صعب ، ولكن نجاتك فى يدك » . وسكتت وهى تراعى ما يبدو من شيرين ، فاذا هى لم ترد ، على انها نظرت الى والدتها بطرف عينها فقالت توحيدة : « ألا ترين الحق معى يا حبيبتى ؟ أليس خلاصك فى يدك ؟ »

فتنهدت شيرين ثانية وقالت : « اذا كنت تعنين خلاصى من الموت فنعم » . فقالت : « اذن فافعلى . ارجعى عن عزمك وقولى كلمة فتنقذى حياتك وحياة رامز أيضا »

فقالت : « ولكن اذا رضيت انا بانقاذه على هذه الصورة — لا سمح الله — فانه لا يرضى »

فاستبشرت بقرب رضاها فقالت : « اما رامز فانا اضمن انه يرضى . ولست اعنى ان تقبلى ما عرضه صائب على طول الخط ، بل اعنى ان نسايره ونعده ريثما نرى ما يكون من أمره . . فاذا انقذ رامزا فليفعل رامز به ما يشاء . ونكون نحن قد نجونا من الخطر الذى يهددنا به »

فقالت وهى تهز رأسها هزة الانكار : « كلا . . وان رضى رامز بذلك ، فأنا لا أرضى »

قالت : « بالله عليك أشفقى على والدتك ، اذا كنت لا تشفقين على شبابك . ان هؤلاء القوم لا يخافون الله ، فدعينا نخادعهم مرة واحدة التماسا لحياتك وحياة حبيبنا رامز وحياتى »

فتململت شيرين وبلعت ريقها كأنها تهم أن تقول شيئا وتمسك نفسها ، فعادت توحيدة الى الكلام قائلة : « شيرين . . قولى انك أصغيت لتوسلى »

فقالت : « دعينى الآن يا أماه ، انى لا أملك نفسى »

قالت : « سأتركك لتفكرى فى الامر الليلة ، وأرجو ان تتحققى صواب رأيى وتطيعينى ، وسأعود اليك فى الغد ان شاء الله . هل آتيك بالطعام ؟ انك لم تأكلى شيئا اليوم ! »

فأشارت برأسها ألا حاجة لها الى طعام ، ولكن أمها الحت عليها فى أن تأكل ، فردت قائلة : « لا اشعر بالجوع الآن ، واذا جعت فانى أعرف مكان الطعام »

فاطمأن بال توحيدة ونهضت وانهضت شيرين معها ، وساعدتها فى خلع ثيابها ، وبقيت معها حتى أوت الى فراشها ، ثم مضت وقد انعشها الامل

□

نهضت توحيدة فى الصباح مبكرة قبل أن ينهض زوجها ، وذهبت الى غرفة شيرين فوجدت الباب مفتوحا وليس فى الغرفة أحد ، فظنتها فى مكان آخر من البيت ، ولكنها لم تجدها بعد طول البحث . فعادت الى غرفة شيرين وفكرت فى الامر مليا ، فأيقنت انها غادرت البيت ، وذلك لعدم وجود حذائها وثوب خروجها . وفكرت فى المكان الذى يمكن ان تذهب اليه ، فتذكرت صاحبة لها كانت مستودع أسرارها تسكن على مقربة من بيتهم ، فنادت الخادم لترسله يسأل عنها فلم تسمع جوابا فظنته لايزال نائما فأسرعت الى حجرته فوجدتها مفتوحة وليس فيها أحد ، فوقعت فى حيرة ، وترقرق الدمع فى عينيها . ولكنها ما زالت ترجو أن تقف على خبرها ، فلم تشأ ان تبكى وعادت الى غرفة شيرين وجلست على المقعد خائرة القوى وأسندت رأسها بين كفيها وأخذت تفكر فى خروج ابنتها على تلك الحالة خلسة . وأول خاطر بدا لها انها هربت خوفا من غضب السلطان عليها اذا علم بكتابها الذى يحتفظ به صائب ، وفكرت فلم تجد سببا آخر لفرارها خلسة . ولم تهتد الى مكانها ؟ فتذكرت الخادم ، وهو البانى الاصل متقدم فى السن ، وقد ربى شيرين فى صغرها وكان يتفانى فى سبيل مرضاتها . وهو نشيط همام يحب الحرية ويكره أهل الاستبداد ، وكان يزداد احتراما لشيرين وتفانيا فى خدمتها

كلما رآها تحب الاحرار وتخدم مصلحتهم ، فظنت توحيدة انه أغرى شيرين بالفرار الى بلده

على انها لم تجد باعثا على فرارها دون استشارتها ، وبينما هي فى حيرتها اذ سمعت سعال زوجها وهو خارج من غرفته ، ثم رأته وعليه لباس النوم وقد انتفش شعر رأسه ولحيته ، وحمل على كتفيه منشفة واتجه نحو المغسل وهو يحك رأسه ويفرك عينيه . فلم تشأ أن تباغته ، لكنها سمعته ينادي الخادم ويلح فى المناداة ، فتقدمت نحوه وقالت : « ان خريستو ليس هنا »

فالتفت اليها وقال : « الى أين ارسلتموه فى هذا الصباح ؟ »

قالت : « لم نرسله الى مكان ، ولكن شيرين أيضا . . » . وغصت بريقها وبكت

فاستغرب بكاءها وقال : « ما بالك تبكين ؟ ماذا فعلت شيرين ؟ . انها لا تزال تتعبنا بأعمالها وعنادها »

فتجلدت توحيدة وقالت : « شيرين ليست هنـــا ، ولا أدرى الى أين ذهبت ! » . وكانت تتوقع أن يشاركها طهماز الدهش والحيرة فاذا هو تحول الى الصنبور وأخذ يعالج الصابون ليغســـل وجهه وهو يقول : « ولا أنا ادرى . . يظهر انها توجهت الى بعض صواحبها اللواتى يوافقنها على التحدث بالحرية والطعن فى السلطان وأعوانه . . انها سترمينا فى ورطة لا خلاص لها منها » . وأخذ فى غسل وجهه كأن الامر لايهمه ، فخفف استخفافه هذا بغياب ابنته دهشة توحيدة ، وظنت نفسها مبالغة فى الخوف ، فقد تكون شيرين فى زيارة بعض صواحبها كما قال ، على انها لم يطل صبرها على هذا الاعتقاد ، فعادت الى الوجل ، واحبت أن تبعث من يفتش عنها فى مظانها ، وليس عندهم احد ، ولم تجسر أن تطلب الى زوجها أن يذهب بنفســـه ، فأخذت تستعد للذهاب ، فلبست ثيابها ولم تقل شيئا حتى فرغت من اللبس ، وكان طهماز قد فرغ من غسل وجهه ، وهى تعلم انه سيطلب القهوة ثم الطعام ، فاذا وافقته ضاع الوقت ، فغافلته وخرجت الى الاماكن التى تظن شيرين ذهبت اليها ، وهى قريبة من المنزل ، فغابت نصف ساعة ثم عادت دون أن تقف لها على خبر هناك ، فوجدت زوجها قد صنع القهوة لنفسه واخذ فى لبس ثيابه

فقالت : « ذهبت للبحث عن شيرين عند صواحبها فلم اجدها »

فقال : « ستجدينها بعد قليل . ولكن يظهر من ذهابها مع خريستو انها هربت ، وكم من مرة اردت اخراج هذا اللعين من بيتنا وأنت لاتريدين . انه من اسباب تمسك شيرين بعنادها ومتابعة اولئك الاغرار الذين يســـمون انفسهم احرارا ، لانه من أهل ذلك الجنون ايضا . اذا كنت تظنين شيرين قد

هربت فلا حيلة لنا فيها ولا ذنب لنا ، لاننا نصحنا لها وكدنا نقبل يدها لترجع عن غيها وتوافق على طلب صائب بك لتنجو وتنجينا من الخطر ، لكنها لم ترض . وها قد هربت وتركت الخطر محدقا بنا . فالحكومة اذا طلبتها ولم تجدها ، سوف تتهمنا ، واخاف أن يكون صائب بك قد دفع كتابها الى ناظم بك رغم التماسنا ألا يفعل »

قال ذلك وهو يلبس ثيابه وتوحيدة واقفة بباب الغرفة مطرقة لا تدرى ما تقول ، ولما ذكر صائبا وكتاب شيرين خافت أن يصح قول طهماز ويكون صائب قد بعث بالكتاب الى أولى الامر غيظا من شيرين ، فقالت : « صدقت ، انى أخاف أن يفعل صائب بك ذلك . فما العمل ؟ »

قال : « لقد وعدنى أمس بانه يصبر الى صباح اليوم ، فاذا لم ترض شيرين بعث بالكتاب . وتواعدنا على ان يأتى الينا فى الصباح ، فلا يلبث أن يكون هنا . أعدى لنا الفطور »

فنهضت الى المطبخ وأخذت فى اعداد الطعام وركبتاها ترتجفان من شدة التأثر ، وتعجبت كيف يخطر لزوجها أن يطلب الاكل وهم فى تلك الحال من الاضطراب !

وبعد ساعة سمعت توحيدة قرقعة مركبة تقف بجانب البيت فعلمت انها مركبة صائب ، فأخذتها الرعدة غير انها تشاغلت باعداد المائدة ريثما يدخل ، ثم سمعت وقع خطواته وطرق عصاه على السلم ، وما لبث أن صار فى الدار ووضع عصاه على الحامل ، وخف طهماز لاستقباله وهو يهش له . فتصافحا ودخلا حجرة الاستقبال وصائب يمشى مرحا مشية الظافر ، ويتكلف التواضع والتلطف . وجاءت توحيدة بعد قليل للسلام عليه ، فلحظ دمعا فى عينيها ، فسأل عن السبب فقال له طهماز : « لاشىء . ولكننا اصبحنا اليوم فلم نجد شيرين فى البيت فاضطرب بالنا قلقا عليها »

فأجفل صائب ، وكان أول شىء خطر بباله انها هربت فصاح : « الى أين تهرب ؟ » . ونهض كأنه يهم بالخروج وقد بدا الغضب فى عينيه ، فاستوقفه طهماز قائلا : « تهرب ؟ لانظنها تفعل ذلك . انها لا تلبث أن ترجع الينا . افرض انها اختبأت عند بعض صواحبها يوما أو يومين ثم ... »

فابتدره صائب قائلا : « كيف تذهب وحدها ؟ »

قال : « يظهر أنها ذهبت مع خريستو الخادم لاننا لم نجده فى البيت »

فجلس وهو يهز راسه مهددا وقال : « مع خريستو الالبانى ؟ ها ها .. » . وأخذ يفتل شاربيه ويعمل فكرته ثم أخرج علبة السجائر وأخذ سيجارة فأسرعت توحيدة الى اشعالها بعود من الكبريت قدمته له ويدها ترتجف ، فأشعل سيجارته وأخذ فى تدخينها وهو ينظر الى

صورة معلقة بالحائط كأنه يتشاغل عن الغضب الذى تولاه ، فابتدرته توحيدة قائلة : « ان شيرين لا يمكن أن تهرب يا سيدى . لعلها عند بعض صواحبها ، وان كانت لم تفعل ذلك من قبل »

فقال : « وكيف تهرب ؟. اننا نسد الطرق دونها . واذا هربت فانها تطلب موناستير أو غيرها ، أو لعلها تذهب الى رسنه لان لكم أهلا بها . ولو أنها فرت مع خادمها الى ألبانيا بلده فانها تحمل الينا صاغرة »

فصاحت توحيدة بلهجة الاستعطاف : « أتوسل اليك يا سيدى أن تساعدنا فى استرجاعها »

فقال : « ولكننى لا أستطيع ذلك الا اذا أبلغت الحكومة ذنبها فتبعث الرسائل البرقية الى محطات السكك الحديدية للقبض عليها »

قالت : « لا . لا يا سيدى . ليس هذا ما نطلبه ، وأخاف حينئذ ان نقع نحن فيما هو شر من ذلك ، وأنت لا ترضى أن تلحق بنا هذا الاذى اذ لا ذنب لنا ، ولا لشيرين أيضا فانها مغرورة . ولو صبرنا عليها يوما أو يومين وأخذناها بالتؤدة لانصاعت الى ما نريد ، ولكننا تعجلنا رضاها وهى فى ابان غضبها فلم تطع . ومع ذلك لا أعتقد أنها خرجت من سلانيك ، لانها لم تتعود الخروج من المنزل ، فكيف تطلب موناستير أو غيرها . فلنصبر هذا اليوم فقط ريثما نبحث عنها فى بعض الاماكن التى نظنها توجد فيها ، فاذا لم نجدها تباحثنا فى الامر » . قالت ذلك وعيناها تذرفان الدمع وصوتها مختنق ، ولم تستطع الوقوف فانصرفت الى غرفتها

فلما خلا طهماز الى صائب قال له : « لا تخف انها لا تهرب . . وكيف تهرب ولا نقود عندها ؟. انها سترجع صاغرة مطيعة وتعترف بخطئها وقد صدقت توحيدة فى أننا أخطأنا بمباغتتها وتعجيل رضاها . انا وعدتك بها وانا مطالب بوفاء الوعد . قبحها الله أين تجد أحسن من صائب بك فى كل الذين حولنا ؟ »

فقال صائب : « لا يهمنى الآن رضيت أم لم ترض بعد الذى شهدته من فظاظتها وعنادها . لكننى أصبحت مطالبا الا اخون ولى نعمتى ! »

فأدرك طهماز انه يشير الى كتابها الذى عنده ، وانه ينوى تبليغه الى الحكومة فقال : « انك ان بلغت نبأ كتابها الى الحكومة ولم تجدها وقع غضبها علينا ولا ذنب لنا كما تعلم فنحن من أشد الناس اخلاصا للذات الشاهانية . فهل تريد أن نؤخذ بذنب سوانا ؟! »

قال : « أنت والحق يقال مخلص لامير المؤمنين ، ولو كان الكل مثلك

لخلصت البلاد من القلاقل ، وستنال المكافأة على اخلاصك . ولا ريب عندى أنك اذا أطعتنى وذهبت معى الى القصر لقيت ما يسرك .. »

فبرقت أسارير طهماز اعجابا بنفسه وقال : « اذن فلننتظر يوما أو يومين ، ولا بد من ظهور الفتاة بعد أن تكون قد قاست الهوان والعذاب ، فترجع عن غيها وتثوب الى رشدها وتعلم انك نصحت لها . ولا ينبغى لنا أن نحاسبها على ما فرط منها فانها لم تخرج عن كونها امرأة . وهل تحاسب النساء عن أعمالهن وهن ناقصات العقل ، ولا سيما فى هذا العصر الذى أصبح رجاله لا يحاسبون على غلطهم لشذوذهم عن المألوف ؟! انهم يخرجون على الخليفة ويطلبون قلب الحكومة .. أليس هذا من الطيش ؟ وهل يحاسب المجنون على عمل يعمله ؟ فكيف اذا كان فتاة ؟ والنساء لم يخلقن الا للطبخ والخدمة وتربية الاولاد . ولكن الزمان تغير ، وقانا الله عاقبة أعمالنا »

فصادق صائب على ما قاله طهماز ووافقه على الانتظار ، وكانت المائدة قد أعدت فنهضا للطعام

رامز فى السجن

سيق رامز الى دار التحقيق بعد القبض عليه فى مركبة مقفلة يحرسها اثنان من الضباط ، وحملوا معه أوراقه فى محفظة كبيرة قد ختموها فى غرفته بوجود ناظم بك . فكان وهو فى المركبة مستغرقا فى تصوراته ، وقد علم أنه صائر الى أشد الاخطار ، فلم يبال شيئا منها لولا شيرين ، لانها كانت مستقر آماله وينبوع مسراته ، يكفيه منها نظرة تودد أو كلمة اعجاب بما يكتبه لكى يستفزه الطرب وتهب فيه الحماسة فينشط الى مواصلة الاخذ بناصر الاحرار . وكانت هى التى زادته تمسكا بأذيال الحرية والدفاع عنها ، حتى تهور والقى بنفسه فى ذلك الخطر

وللمراة روح تبثها فى قلب الرجل فتنبه عقله وتثير همته ويصبح طوع ارادتها ، يحب ما تحب ويتفانى فى سبيل ما يرضيها . فاذا كانت قوية المبدا سامية الخلق شريفة الاحساس صعدت به الى سماء المجد ، واصبح همه التخلق بتلك الاخلاق . وكانت شيرين مفطورة على حب الحرية ، فكيف لا يعشقها رامز ويتفانى فى نصرتها ؟. وكم من قائد يخوض ساحة الوغى ويعرض حياته للخطر ، وهو لا يرجو من وراء ذلك الا ابتسامة أو كلمة اعجاب من حبيبته ! وكم من عالم أو كاتب أو جواد أو مصلح يشقى فى جهاده التماسا لرضا حبيبة عاقلة فطرت على حب هذه الفضائل ! فيا لسعادة الامة التى تسمو فيها أخلاق المراة حتى تعشق الفضائل فتكون عونا للرجل على المبرات أو الحسنات أو السعى فى سبيل الحق والحرية اذ تكون محرضة له ، تستنهض همته بنظرة أو كلمة ، وويل للأمة التى انحطت فيها أخلاق المراة فاقتصر همها على الاكل والشرب ، وانحصرت احاديثها فى الخرافات والاوهام

قضى رامز مدة الطريق من منزله الى دار التحقيق وهو غارق فى بحار الهواجس ، لم تبرح صورة شيرين مخيلته . وتذكر نصيحتها له بالا يستخلص صائبا ، فقال فى نفسه : « لابد أن تكون هذه الوشاية منه » . ثم أكبر أن يرتكب صديق مثل هذه الرذيلة

ولم يتنبه لنفسه الا وقد وقفت المركبة به ، وفتح بابها فنزل وهو يتجلد ويظهر عدم المبالاة . فاستقبله ضابط كان واقفا هناك واشار اليه أن يمشى فى اثره ، فتبعه حتى دخل قاعة ناظم بك القومندان .

وكان رامز طويل القامة جميل الطلعة متناسب التكوين وفى عينيه ذكاء ومهابة ، حسن الهندام نظيف الثوب ، لكنه لم يستطع اصلاح شانه فى ذلك الصباح ، لانه نسى نفسه وانصرف بكليته لما هو فيه . فلما دخل قاعة ناظم بك وجده جالسا فى صدرها بلباسه العسكرى ، وبين يديه المحفظة المختومة ، وبجانبه صائب بك ، فلما رأى صائبا اجفل وتحقق ظنه ، فارتعدت فرائصه من الغيظ ، لكنه تجلد ، فابتدره ناظم بك قائلا : « كيف ترى نفسك يا رامز أفندى ؟ »

قال : « لا أرى شيئا » . وهز كتفيه ازدراء

فتصدى صائب للكلام بلطف وهو يظهر الاسف ، وقال مخاطبا ناظم بك : « ان رامز أفندى مغشوش فى الطريق الذى سار فيه ، وانما اغراه أهل الطيش والخداع ، ولا شك عندى فى انه حمل على ما فعله مراعاة لاصدقائه »

فقال ناظم بك : « كيف يكون كذلك وهذه الاوراق تؤيد أنه خائن ؟. وهذه كتاباته فى الجرائد التركية والفرنسية تشهد عليه . واظنك تدافع عنه لانه من أصدقائك »

فقال صائب وهو يظهر الاهتمام : « نعم ، ان رامزا صديقى ، لكنى اقول الحق ، وانا اعرف أخلاقه ، فانه مغرور » . ثم حول خطابه الى رامز وقال : « أليس كذلك ؟ »

فهز رأسه بأنفه ورفعة وقال : « لا »

فقال ناظم لصائب : « ان هؤلاء الغلمان المتهورين الخارجين على جلالة السلطان ينبغى ان نجتث أرومتهم ونعلمهم كيف تكون عاقبة الخائنين »

وهم أن يأمر بأخذ رامز الى السجن ، فوقف صائب واظهر انه يبذل وسعه فى الدفاع عن صديقه رامز وقال : « تمهل يا سيدى انى أعرف رامزا من الصغر ، وكنا معا فى المدرسة . انه مغتر ، ومن غروره انكاره ذلك بين يديك »

ثم تحول نحو رامز وقال : « لا يغرنك الغلمان الذين يزعمون انهم ينصرون الحرية ، فانهم انما يطلبون وظيفة ، ومتى حصلوا عليها تركوك فى الخطر ، وقد سبق أن خدعوا كثيرين من امثالك ثم رجعوا الى صوابهم ونالوا رضا الذات الشاهانية وتنعموا بخيراتها . والمطلوب أن نعرف الاشرار الاصليين الذين يحركون هذه الشرور ، وهم قليلون ، واكثر الذين معهم مغشوشون مثلك . فأنت الآن اذا دللتنا على رؤساء هذه العصابة التى تسمى نفسها جمعية الاتحاد والترقى ، أو دللتنا على محل اجتماعها فقط ، فأنا كفيل باطلاق سراحك ، وأحفظ هذه المحفظة بما

فيهـا من الاوراق واضمن لك مكافأة عظيمة بالرتب السنية والرواتب العلية » . ثم بلع ريقه وتشاغل لحظة ليرى ما يبدو فى أثنائها من رامز ، فلما وجده ساكتا مطرقا خيل له قرب قبوله ، فعاد الى الـكلام فقال : « واعلم أنه لا يمكن أن يعجزنا الوصول الى سر هذه العصابة ومكانها من أحد أعضائها ، فلا بد من أن يعضهم الجوع ويتعبوا من مناطحة الصخر فيرجعوا الى مراضاة مولاهم ومولانا جلالة أمير المؤمنين ، كما فعل الذين سبقوهم فى باريس وجنيف ومصر وغيرهم ، ولا بد أن ينال المـكافأة الـكبرى من يبلغ خبر هذه الجمعية ويقع الغضب على الباقين . فكن أنت ذلك المبلغ ونحن نوافقك على اخراج من شئت من الاعضاء الذين تعتقد أنهم مخدوعون مثلك . يكفى أن تخبرنا عن المكان الذى يجتمع فيه أولئك العصاة الخوارج »

وكان ناظم بك يسمع كلام صائب ، وعيناه تراعى رامزا وما يبدو منه ، واستبشر حين طال سكوته . فلما فرغ صائب من كلامه رفع رامز بصره اليه وقال : « ان عـزة النفس والحرية الشخصية وشرف القول الفاظ لا معنى لها عندك ، ولا تقدر أن تتصورها ، فالـكلام معك عبث . أنا لست مغرورا ، وليس رفاقى مغرورين ، وانما المغرورون أنتم الذين تبيعون وطنكم وتسوقون أهله الى الخراب طمعا فى المـال . فاذا كان عندك كلام مفيد غير هذا فقل والا فافعلوا بى ما تشاءون »

فرجع صائب وهو يهز رأسـه استغرابا ، وجلس على كرسيه ، وتناول ناظم بك الـكلام قائلا : « ان صائبا اخلص لك النصح . . فكيف تخاطبه بهذا الاسلوب ؟ ان غاية ما يطلب منا أن نرسلك مغلولا الى الاستانة مع هذه الاوراق ، وأنت تعلم مصيرك . لـكن صائب بك أراد أن ينجيك ، فعـرض عليك هـذا الامر فأجبته بكلام قبيح تستوجب عليه القصاص »

قال : « لا حاجة لى بنصحه فافعل ما تشاء »

قال : « خذوه الى السجن »

فمشى رامز بقدم ثابتة وهو لا يبالى . وبعد انصرافه اتفق صـائب وناظم على ارسـال تلغراف الى القصر بخبر القبض على أحـد أعضاء الجمعية وضبط أوراقه ، والسؤال عما يجب أن يفعلوا به



الأستانة

كانت الاستانة داز الخلافة ومصدر متاعب الاحرار ومرجع آمالهم : وفيها قصر يلدز مدفن الافكار الحرة وبؤرة الجواسيس ومسرح أهل المطامع والاغراض ، وقد خصها الله بموقع طبيعي لا مثيل له ، لأنها موصلة بين القارتين ، ووسط بين البحرين ، تمنعها المضايق ، وتصونها البواغيز . وكانت فى أول أمرها تسمى بيزنطه ، ثم سميت القسطنطينية نسبة الى قسطنطين الاكبر الذى جعلها عاصمة المملكة الرومانية الشرقية سنة ٣٣٠ م

وهى ثلاثة أقسام : اثنان فى أوربا والثالث فى آسيا ، كأنها تتجاذب للمعانقة فتحول بينها المياه . او هى ثلاث مدن برية تفصل بينها ثلاثة أبحر . فالاقسام البرية هى استانبول فى الجنوب ، وبك اوغلى اوبيرا فى الشمال ، وكلاهما فى أوربا ، وأسكودار فى الشرق ، وهى فى آسيا ، يفصل بينها البوسفور فى الشمال الشرقى ، ومرمرة او الدردنيل فى الجنوب ، وقرن الذهب فى الغرب الشمالى . تلك هى أقسامها اليوم ، أما قبل الفتح العثمانى فلم يكن عامرا منها الا استانبول ، التى جعلها العثمانيون مقر حكومتهم ، وفيها أبنية الحكومة والمساجد والمدارس ، وأكثر سكانها من المسلمين ، وفيها أكثر الآثار التاريخية . وكانت بيرا عند الفتح ضاحية يقيم بها بعض الاجانب اذا نزلوا الاستانة ، ثم عمرت فصارت بلدا أكثر سكانه من الافرنج . ويوصل بين استانبول وبيرا جسران : أحدهما جسر غلطة القديم ، وهو أقربهما الى البوسفور ، والآخر الجسر الجديد الى غربية . أما أسكودار فانها بلد اسلامى تركى يتفاءل به الاتراك خيرا لانهم نزلوه قبل الفتح ، ومنه انتقلوا الى اوربا ومدوا سلطانهم فيها

ويمتد البوسفور من الاستانة شمالا الى البحر الاسود على مسافة ٢٧ كيلومترا ، فهى موصل بين البحر الاسود فى الشمال وبحر الدردنيل فى الجنوب ، وعرضه عند مدخله نحو كيلومتر ونصف ، وأضيق المسافات فيه عند روملى حصار وأناضول حصار نحو ٥٠٠ متر ، وأوسعها عند بيوك دره فان المسافة بين الشاطئين هناك ٣٥٠٠ متر . وتتألف هذه المنطقة من قرى متقاربة تمتد على ضفتى البوسفور شرقا وغربا . يهمنا منها مما على شواطىء أوربا محلة بشكطاش التى فيها يلدز وقصورها وحدائقها

وفى جنوب الاستانة قرى عدة على شاطىء أوربا وراء سور استانبول والبعض الآخر على شاطىء آسيا ، وهناك خط آخر بحرى تكتنفه القرى من الجانبين فى قرن الذهب وهو يعد من الاســـتانة نفسها . وهى كثيرة الشواطىء عليها الاغراس والاشجار بينها الابنية . ثم ان هذه الشواطىء سلسلة تلال أو هضاب بينها الاودية . والاستانة نفسها مؤلفة من هضاب تكسوها القصور والجوامع والشوارع ، اذا أطلّ عليها القادم بالبحر رأى تلك الابنية تتدرج صعودا من الشاطىء الى قمم الهضاب وتتخللها الحدائق . فاستانبول مثلا مؤلفة من سبع هضاب متصلة العمارة ممتدة على شاطىء قرن الذهب لا تظهر جليا للمتأمل : أولاها تشرف على الدردنيل وعليها بناية الطوبخانة والسراى القديمة (طوب قبو) وجامع ايا صوفيا وجامع السلطان أحمد . وعلى الهضبة الثانية جامع نورى عثمانية . وعلى الثالثة : سراى السر عسكرية وجامع السلطان سليمان أو السليمانية . وعلى الرابعة : جامع السلطان محمد الفاتح أو المحمدية ، وعلى الخامسة جامع السلطان سليم أو السليمية وحى الاروام المعروف بالفنار ، وفيه بطريركية الروم . وعلى السادسة : أبنية سراى لكفورعند محطة بلاطه وبعدها . وعلى السابعة : جامع أيوب وغيره

وبين هذه الابنية كثير من القصور والمنازل والاسواق والبساتين وغيرها وغيرها متلاصقة أو متقاربة تظهر للناظر اليها من البحر كأنها معرض منضد بعضه فوق بعض على هيئة مدرج . أما بيرا الواقعة تجاه استانبول على قرن الذهب فمؤلفة من تلال متقاربة . وهكذا أيضا ضفتا البوسفور وشواطىء الدردنيل ، فانها تلال متحاذية على الشاطىء يتراوح طول قاعدة كل منها بين نصف كيلومتر وكيلومترين . وعلوها بين مائة متر وبضع مئات من الامتار . وأجملها القرى التى على ضفاف البوسفور ، فكل منها تبدو أشبه بمعرض من الخمائل والقصور تتدرج بعضها وراء بعض من الشاطىء الى قمة التل ، وبينها بساتين بعضها من الشجر القديم كالسنديان والصنوبر والدلب ونحوها ، وقد تقادم عهدها وأهملت فنمت على الفطرة بلا تعهد ولا تقليم فاشتبكت أغصانها وتعانقت ثم أقيمت بينها قصور متفرقة أو بيوت صغيرة من الخشب سقفها من القرميد . وانما عمدوا الى الخشب دون الحجر لانه أقل كلفة وأبعد عن خطر الزلازل فوقعوا بذلك فى خطر الحريق

فالمتوغل فى البوسفور على الباخرة يرى نفسه فى بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوة بالخمائل والحدائق بينها الابنية مختلفة الالوان والاشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الخيال . وأجمل ما تشاهده من مناظرها قبيل الغروب انعكاس أشعة الشمس عن زجاج النوافذ من منازل الشاطىء الاسيوى لامعة تبهر النظر كأنها منعكسة عن الماس . ثم تحمر فيخيل لك ان النار شبت فى الغرف حتى كاد لسان لهيبها يندلع من نوافذها . فاذا غابت الشمس وخيم

الظلام ارتسمت السماء على صفحات الماء . والجالس فى أى منزل من منازل تلك القرى سواء أكان على الشاطىء قرب الماء أم فى سفح الهضبة أم على قمتها ، يشرف على المياه والبواخر تسبح فيها ويرى وراءها التلال المكسوة بالاشجار والابنية

واذا أوغلت فى البر وراءها لايقع نظرك الا على واد خصيب أو غابة غضة أو جبل مكسو بالاشجار الكثيفة بينها ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان تجرى صافية كالزلال . وقد أقيمت هناك أماكن للنزهة يقصدها الناس ليقضوا الساعات والايام كما يفعل المصطافون بلبنان فى خروجهم الى الينابيع المشهورة كعين الرمانة وعين حمانا ونبع العسل ونبع اللبن وغيرها . وان كانت هذه أشد برودة من ينابيع الاستانة الا ان هذه اجمل منظرا واكثر خضرة ، لان معظمها يجرى فى جبال تكسوها اشجار هائلة تعانقت اغصانها وتكاثفت أوراقها حتى تحجب أشعة الشمس لكنها لا تضيق الصدر لأنها عالية ، وبين جذوعها منفرجات . وقد تعاظم جرمها لقدم عهدها ويندر أن تكون للانسان يد فى اصلاحها . وهذه الينابيع كثيرة بعضها فى شاطىء الاناضول والبعض الآخر فى جهات الروملي . وأشهر المياه فى الروملي نبع الكاغدخانة فى آخر قرن الذهب ، وهو منتزه جميل مساحته عشرات من الافدنة مكسوة بالاشجار والاعشاب وتجرى فيها المياه ، فيقصدها الناس زرافات ووحدانا فى فصل الربيع ، ونبع جرجر ، وبالقرب منه نبع خونكار صو ، وهو أعلى منه كثيرا لايمكن الصعود اليه الا بالمركبات ويصعب تسلقه على الدواب

فالطبيعة وهبت الاستانة هبات يعز مثالها فى مشارق الارض ومغاربها ، ولكن هذه الهبة لم يحسن الحكام استخدامها فى عصر روايتنا هذه ، فمنازل الاستانة متراصة بعضها وراء بعض تشرف على البحر وعلى ما جاورها من المنازل ، ولكن شوارع المدينة ودروبها تكاد تكون خرابا لتقلقل بلاطها وقلة العناية باصلاحها فضلا عن ضيقها . وذلك لأن حكام العصر الماضي لم يكن يهمهم الا منافعهم الشخصية ، فكانت منازلهم على اتم نظام وحدائقهم على أجمل ترتيب يتعهدون أشجارها بالتهذيب ويرصفون الطرق بين المساكب بالحصى الملونة على شكل الفسيفساء . وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومنتزهاتهم ويضنون بالقروش على الاماكن العامة

اما يلدز فليست قصرا واحدا فخما كما يتبادر الى الذهن ، وانما هى قصور عدة تتفاوت قدرا وجمالا ، متفرقة بين الخمائل والغابات والبساتين والبحيرات على غير نظام . وليس فى وصف هذه القصور ما يدهش القارىء ، ولكن العبرة بما هنالك من المخبآت الغريبة فان البقعة التى أقاموا فيها قصور يلدز واسعة تزيد سعتها على مساحة بلد كبير ، أكثرها غابات كثيفة الاشجار ، بينها حدائق غناء وبحيرات تجرى فيها القوارب وهى مؤلفة من قسمين

كبيرين ، الحديقة الداخلية ، والحديقة الخارجية . وليلدز باب خارجي كبير تدخله المركبات الى بقعة فيها طريقان : احدهما الى اليسار يؤدى الى طريق الحديقة الداخلية ، والآخر الى اليمين يؤدى الى طريق الحديقة الخارجية ، وفى كل من الحديقتين قصور وأبنية عدة . فالحديقة الداخلية بستان كبير محاط بسور عال أشبه بأسوار الحصون منه بالحدائق ، يفصله عن الحديقة الخارجية . ولها باب كبير مذهب يؤدى الى القصور الداخلية ، وهى : قصر المابين الصغير مسكن السلطان ، وقصر جيت ، وقصر مالطة ، وقصر جهان نما ، ومعرض الحيوان . وهذه القصور متقاربة كل منها يستطرق الى الحديقة الداخلية . وفيها بحيرات تجرى فيها القوارب ومسارح للطير مؤلفة من عشرات من الغرف مصنوعة من الخشب المزخرف ملاصقة لجدار الحديقة الشرقى . ولها واجهات من الزجاج ونوافذ من الاسلاك ، وبعض الغرف كلها من الزجاج يسرح فيها الحمام كل نوع فى غرفة أو بضع غرف متقاربة وبينها الحمام الابيض والاسود والمرقط ، وذوات العرف الطويل أو الذيل العريض وغيرها . ولها فى مسارحها مجالس تأوى اليها وتبيض أو تفقس فيها على أبدع نظام . ويلى مسارح الحمام غرف لتربية الازهار الشتوية التى يضر بها البرد ، مصنوعة من الزجاج المضبوط التماسا للدفء . ويلى ذلك أقفاص فيها بنات آوى أو بعض الكلاب الضخمة . وفى بعض جوانب هذه الحديقة اسطبلات للخيل فى كل منها موقف لجواد خاص

وأهم القصور الداخلية فى يلدز قصر جهان نما ، وهو صغير لكنه غاية فى الاتقان يشرف على البوسفور اشرافا رحبا . ويليه قصر جيت وقد سمى بذلك لأنه مبطن بالانسجة بابه خارج باب الحديقة الداخلية لكنه يعد منها لانه من جملة أبنيتها . وقد يدخل اليه من باب سرى . وبه معرض للحيوانات فيه أنواع الطيور وغيرها محنطة . ثم قصر جادر ، وقصر مالطة ، وقصر مراسم فى الحديقة الخارجية وهو أجملها كلها وأفخمها ، وفيه من التحف ما يعجز القلم عن وصفه . ثم قصر المابين الكبير والجامع الحميدى ، ثم المابين الصغير أو مسكن عبد الحميد ، وهو أول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية الى يمينه ، ويرقى اليه على بضع درجات بسيطة ، ومدخله باب اعتيادى يؤدى الى ردهة صغيرة ، ومنها الى الدهاليز والغرف على غير نظام ، وفيها غرف المائدة والاستقبال والكتابة وغيرها

▭

كان أهل الاستانة قد ناموا واستغرقوا فى أحلامهم — والاحلام يقظة ثانية يكابد فيها الناس شقاء ثانيا فى عالم آخر . وكانت الليلة مقمرة ، وقد سطعت أشعة القمر على الاستانة وضواحيها وانعكست على مياه البوسفور

فأصبح سطحه كالصحيفة البيضاء ، لا يخترقه قارب ولا تمخر فيه سفينة خوفا من غضب رب يلدز الذى أمر الناس الا يعكروا ماءه ليلا ، والا أرسلهم الى قاعه جثثا هامدة

حتى الريح لم تهب فى تلك الليلة ، فظل سطح البوسفور هادئا لا تتلاطم فيه امواج ولا يتجرك فيها ساكن . أو لعله شارك أهل الاستانة فى رقادهم فانه كان رفيقا بهم ، وقد عاصر اجيالا منهم فلم يمر به جيل أتعس حالا من ذلك الجيل — حتى فى اقسى ازمنة الاستبداد . شاهد اليونان والرومان والفرس والعرب والاتراك ، واخترقه داريوس وقسطنطين ومحمد الفاتح وغيرهم من كبار الرجال ، وقطعه الصليبيون فى طريقهم الى الحرب المقدسة ، فلم ير بين هؤلاء واولئك من اشبع جوفه من الجثث كما فعل عبد الحميد

نام أهل الاستانة وهم ما بين كهل يحرق الارم اسفا على ما ذهب من شبابه عبثا فى معالجة باب الرزق فلم يجد له فيه مدخلا ، وسجين يدعو ربه خلسة أن يقتص له من القوم الظالمين ، وأرملة اغرق بعلها فى مياه البوسفور ضحية الجواسيس ، ويتامى يتضورون جوعا ولا ذنب لهم الا انهم ولدوا فى عصر طاغية لاينام عن الاذى ، تنتابهم المخاوف حتى فى الاحلام ، فتصور لهم عبد الحميد كالتنين فاغرا فاه ، أو كالثعبان ينساب بين أسرتهم ينفث سمه فى جراحهم

حتى يلدز ، وهى الجنة بأغراسها وقصورها ومياهها ، قد صارت نارا بمن ضمتهم من أعداء الانسانية الذين تغمض عيونهم ولا تنام افكارهم عن نصب الحبائل . وهكذا يمضى النهار بنوره ، ويقبل الليل بديجوره ، وتتبدل مظاهر الوجود ، ولا يتغير ما فى نفوسهم . فاذا خيم الظلام وسكنت الطبيعة وتجلت هيبتها اتسع مجال الخيال وانقشعت بهرجة النور عن وجه الحقيقة فيرى العقل من مساوىء النفس مالا يراه فى رابعة النهار — كالسكوت اذا استولى على المكان أسمعك أخفت الاصوات . فالليل بديجوره يكشف لأهل الارض سيئاتهم ويجسم أعمالهم ، فاذا نظروا الى السماء راوا نجومها كالعيون المحدقة اليهم تراقب أعمالهم ، وكأن النوم يجرد النفوس من الاجساد فتتقابل وتتوالى لا فرق فيها بين الملك والصعلوك والظالم والمظلوم كأنها فى حضرة الديان العظيم . ان الظلمة تكشف لأهل الظلم موبقاتهم فيرونها مكبرة فى ذلك السكوت المهيب ، كأن الطبيعة صامتة غضبا من أعمالهم

ذلك موقف يريك فضل الحيوان على الانسان . ان الحيوان لايؤذى اخاه الا اذا جاع ، فيتنازعان على الفريسة ، فاذا شبعا تآلفا وتكاتفا . أما الانسان فكلما زاد شبعا زاد طمعا ، وكلما زاد ثروة زاد جشعا . اذا شبع قتل اخاه الجائع ، ليقال انه شجاع جرىء ، وقد يقتل المئات ويستعبد الالوف ليسمى نفسه الحاكم . فيموت هو من التخمة ، وأخوه بجانبه يموت من الجوع !

وكما نام أهل الاستانة نام اهل يلدز ، ناموا ملء جفونهم بعد أن تآمروا وتجسسوا وتخادعوا وتواطأوا على خراب بيت أوتعذيب نفس او ابتزازمال. ولو اطمأنت نفوسهم وهدأت ضمائرهم لم يركنوا الى الاسوارالعالية والابواب الموصدة يقيمون عليها الحفظة سبعة آلاف رجل من الالبان والشراكسة

هناك الحدائق الغناء والقصور الزهراء ، يعيش من فضلات طعامها الوف من المتزلفين ، وقد أبيح دخولها للدواب تسرح فى ساحتها والطيور ترفرف فى أكنافها ، ولم يمنعوا الافاعى من الانسياب بين أغراسها .. حتى الحشرات والديدان وأدنى أنواع الحيوان وجدت فيها مقيلا أو مسرحا . ولكن ابوابها اوصدت فى وجوه طلاب الرحمة من بنى الانسان

وهذه القصور التى أنفقت الاموال لتشييدها بغير حساب ، وأريقت فى سبيل بنيانها وزخرفها الدماء ، قد اقيم على ابوابها وفى طرقاتها وحول أسوارها الوف من الرجال الاشداء بأسلحتهم وافراسهم ، وعيونهم كالشهب ، وقلوبهم كالرجم ، وقد جردوا السيوف واغمدوا الضمائر وباعوا الآخرة بالدنيا لحماية رجل واحد ، لاتقع العين عليه الا بعد اختراق الابواب وتسلق الاسوار . يحسبه غير العارف متمتعا بأشهى ملاذ الحياة وهو محروم مما يتمتع به أحقر رعاياه مع مخاوفهم ومظالمهم .. انهم ينامون بلا حراس ، واذا خافوا نزحوا ، وبلاد الله واسعة . أما هو فلا يستطيع نزوحا ، لأنه يخاف على حياته من كل أحد حتى من اعوانه وحراسه ومن اولاده ونسائه . يخاف من طعامه وشرابه . يخاف من فراشه ووساده ، لا يستقر به مضجع ولا يهدأ له بال . ويقضي ليله ساهرا حذرا ، واذا غلبه النعاس توسد كرسيا ونام غرارا يتقلب على اشواك المخاوف



السلطان عبد الحميد

كذلك كان عبد الحميد سلطان البرين وخاقان البحرين ، الذى دانت له الرقاب ، وكاد يسيطر حتى على عناصر الطبيعة فاذا غضب غضبت ، وان رضي ابتسمت . على أن ذلك كله لم ينفعه بعد ما ارتكبه من الشطط فى تلك السيادة ، وتجاوز بها الحد ، فتولاه الخوف والقلق . كما كانت حاله فى ذلك الليل

ولو انك أوتيت المعجزة ، فاستطعت أن تدخل ذلك القصر الفخم فى غفلة من الحراس ، ثم أقبلت على مسكنه الخاص فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل ، لعلمت أن أهل تلك القصور قد استغرقوا فى نومهم ، ولرايت الحراس الموكلين بالسهر والحذر قد غلب عليهم النعاس أيضا فناموا ، ولم يبق أحد ساهرا هناك الا صاحب ذلك القصر وسيده ، الذى اوصدت الابواب لوقايته وأقيم الجند لحمايته . فانه ما زال ساهرا يتقلب على كرسى طويل توسده ، وقد التف بملاءة من الصوف ، واخذ يقرأ تقريرا جاء من بعض جواسيسه فاقلق راحته وحرمه النوم . وقد غلب عليه التعب والارق وهو يطلب الرقاد ليريح جسمه ويبعد مخاوفه فلا يجد اليه سبيلا

فلما دقت الساعة الرابعة اطبقت اجفانه وأصبح كالنائم ، ولكنه ساهر مستيقظ بما انتابه من الاحلام المزعجة ، ففضل اليقظة لان النور يؤنسه والاستغراق فى الافكار المتضاربة أولى من الذهاب فريسة تلك الاحلام . فعمد الى كتاب لماكيافللى تعود أن يلهو بقراءته . ففتحه وقرأ فيه هنيهة ، ثم تركه وخطر له ان يلهو بالنجارة ، وعنده فى ذلك القصر غرفة فيها كل معدات هذه الصناعة ، ولكنه تكاسل

وظن العلة من الفراش ، فغادر الكرسى فى غرفة المائدة الى كرسى فى غرفة البيانو ، فلم يجده التغيير نفعا ، فرمى الورق من يده ومشى يطلب رقادا فى غرفة أخرى . ثم ندم فعاد والتقط تلك الاوراق المتناثرة ، فجمعها ورتبها واحتفظ بها وضمها الى صدره ، وذهب الى كرسى آخر فى غرفة الكتابة ، وطفق يقرأ وهو لا يفهم ما يقرأ لفرط التعب ، فغلبه النعاس فنام حتى طلع الفجر . وكأن صياح الديك نبهه فنهض . ودقت الساعة السادسة ، ثم سمع صوت المؤذن فخرج للوضوء ، فرأى صاحب الوضوء

ينتظره فهرع الى حمامه الخاص وفيه الاجران الرخامية المعرقة بالذهب والحنفيات المذهبة ، وافكاره تائهة . وادى فرض الصلاة ، وعاد الى التقرير فتأبطه ومشى نحو باب من ذلك القصر يستطرق الى الحديقة الداخلية ، وقد التف بعباءة كستنائية اللون واسعة الاردان تكسو اثوابه

وهو نحيف الجسم ربعة ، او دون الربعة ، لا يزيد طوله على خمس اقدام ، عصبي المزاج ، وكان فى شبابه طلق المحيا مستدير الوجه ، فاصبح يومئذ وقد تغيرت سحنته لفرط ما عاناه من بواعث الحذر على حياته ، لانه قاسى عذاب الموت خوفا من الموت ، وكابد مرارة الاستعباد رغبة فى الاستبداد . فمن عرفه فى شبابه ينكره الآن ، فقد برز فكاه ووجنتاه وانفه ، وخفت لحيته ، وغارت عيناه لارتخاء الجفن العلوى من الشيخوخة؛ وظهرت غضون وجهه ، وتساقط شعر راسه ، فصار يغطى صلعته بطربوش كبير ينزل الى اذنيه ، وقد لبسه فى ذلك الصباح فبان امتقاع وجهه من تحته

واصبح فى شيخوخته سوداوى المزاج ، فاذا رايته تحسبه مثقلا بالهموم ولو كان فى اسعد احواله ، فكيف وهو فى قلق مقيم مقعد ؟!

دخل الحديقة وهو ملتف بالعباءة ، وقد تابط ذلك التقرير تحتها . وكانت الشمس قد اطلت من وراء جبال آسيا فاصابت اشعتها اطراف الاغصان ، فاستيقظت العصافير واخذت ترفرف وتزقزق ، وابتسمت الازهار وصفقت الاوراق وسرح الاوز فى البحيرة حول القوارب ، وتطاير الحمام فى ابراجه واخذ يتداعب ، وبسط الطاووس ذيله ومشى فى قفصه مرحا مزهوا ، وتجاوبت الكراكي والحساسين ، وصهلت الخيول . واصبح كل حى فى تلك الحديقة ضاحكا مسرورا الا عبد الحميد ، فانه مشى فى اكنافها مقطب الوجه منقبض النفس فى غفلة عن كل ذلك ، والقهوجى باشى يسير فى اثره ومعه ادوات القهوة لعل سيده يطلبها . ولم يكن هناك سواهما ، مع كثرة من فى تلك القصور من النساء والرجال ، وعددهم يزيد على خمسة آلاف . لكنهم لا يجسرون على الظهور فى حضرته الا بطلبه ، على انهم كانوا يتشوفون اليه من النوافذ يراقبون حركاته خلسة

□

جال السلطان عبد الحميد فى الحديقة هنيهة ، ثم مضى الى كشك من الخشب بجانب البحيرة ، وجلس على مقعد فوق وسادة من الحرير ، واشار الى القهوجى باشى ان يهيىء له القهوة ، ثم تناولها وهو يعمل فكره فيما قراه . واذا هو يسمع ضحكا عرف من طوله واطلاقه انه ضحك ابنه احمد نور الدين افندى ، وهو يومئذ فى السابعة من عمره ، وليس هناك من



« والتفت عبد الحميد الى المربية وأومأ اليها أن تعيد الببغاء الى قفصه »

يجرؤ على الضحك في حضرة البادشاه سواه . فالتفت الى جهة الصوت، فرأى الغلام يلاعب ببغاء جميـل اللون بين يدى مربيته ويضحك ابتهاجا بذلك

ولم تكن المربية عالمة بوجود السلطان هناك ، فتركت الغلام مسترسلاق ملاعبة الببغاء . وما لبثت أن سمعت نحنحة السلطـان فأجفلت وهمت بالفرار . لكنها سمعته يناديها فتجلدت وقادت الغلام الى الكشك لتعتذر من جراتها بوجوده معها . فأفلت الغلام من يدها ، وأسرع بدالة الطفـل الى أبيه ، ورمى نفسه عليه ، فاستقبله أبوه وقبله ، واراد أن يخفف ما به بمحادثته فأقعده على حجره وسأله عن سبب قدومه الى الحديقة فى تلك الساعة

قال الغلام : « جئت لأكلم الببغـاء ! » . وضحك بسذاجة واشار الى الببغاء فى يد المربية الواقفة فى الخارج ، وكان قلبها يختلج خوفا من غضب السلطان لئلا يظن بها سوءا فيقتلها . وقد عرفت كثيرا من امثال هـذه الفظائع فى يلدز : يقتل فيها الرجل أو المراة بطلق نارى من يد عبد الحميد لمجرد التـوهم أنه جاء بدسيسـة . فظلت واقفة فى الخارج وودت لو أن الارض تبتلعها وتخفيها ، ولولا علمها بأن عبد الحميد يكون فى مثـل ذلك الوقت منزويا فى مكتبه يقرأ التقارير ما رافقت الغلام الى الحديقة

فلما أشار الغـلام الى الببغاء التفت ابوه الى المربية واومأ اليها أن تعيد الطير الى قفصه . وكان قفصه معلقا بشجرة من الدلب قريبة من الكشك، فما صدقت أنه أمرها بذلك حتى مشت الى احـد البستانيين فأعانها على ادخال الببغاء الى القفص ، وانزوت فى بعض جوانب الحديقة

وأخـذ عبد الحميـد فى مداعبة ابنه فقـال له : « اتحب الببغاء كثيرا يا نور الدين ؟ »

قال : « نعم يا بابا »

فقال السلطان : « تحبه أكثر منى ؟ »

فاهتم الغلام بذلك السؤال رغم طفولته لأن تعظيم شخص عبد الحميد كان قاعدة متبعة يتدارسها الكبار والصغار ، ولعله آنس فى عينى ابيـه ما بعثه على الاهتمام ، فقال : « العفو أفندم . لا ينبغى أن نحب أحـدا فى الدنيا أكثر من الذات الشاهانية »

فأدرك عبد الحميد أن مثل هذه العبارة لا يقولها الغلام من عند نفسـه فقال له : « ومن علمك ذلك ؟ »

فخاف الغلام ان يكون قد اخطأ فبدا الخوف فى وجهه مع التردد ، ولم يدر بماذا يجيب ، فضحك أبوه تشجيعا له على الكلام فقال الغلام: «علمتنى أياه قادين ج ـــ الوصيفة »

فبدا الغضب فى وجه عبد الحميد عند سماع ذلك الاسم ، وتمتم قائلا : « انها تحتال فى استرضائى .. يا لها من خائنة !.. وتظن هذه الحيلة تنطلى على ؟ » . ثم تجاهل وعاد الى مداعبة ابنه ، فأخرج من جيب عباءته سبحة دفعها اليه وجعل يلاعبه بها ويداعبه،والغلام يضحك وأبوه يتضاحك ويتلاهى . فتحرك الغلام حركة أوقعت التقرير من حجر السلطان ، فحاول ان يلتقطه فاضطر لذلك أن ينهض من مقعده ، فتحول وجهه نحو الببغاء فى القفص ، فرأى ان يعود الى مداعبة ابنه فقال : « هل تعطينى الببغاء وتأخذ هذه السجادة الجميلة ؟ »

قال : « ان الببغاء لك ايضا . ألسنا جميعا ملكا لك تفعل بنا ما تشاء ؟ »

فعلم ان ذلك الجواب من دروس تلك القادين ايضا فلم يعبأ به ، ولكنه اشار الى بستانى أن يأتى بقفص الببغاء بين يديه ، فجاء به ووضعه على مقعد خارج الكشك ، فخرج الغلام وطفق يكلم الببغاء وهذا يقلد كلامه . وشغل عبد الحميد باختلاس النظر الى ما يحيط به فرأى نادر أغا - رئيس الخصيان وصاحب النفوذ الاكبر فى تلك القصور - خارجا من مكان لم يكن يتوقع أن يراه فيه . فلما وقع نظره عليه صاح به بنغمة الآمر المستبد « نادر اغا ! نادر أغا » . فأسرع نادر حتى وقف بين يديه وسلم بالاحترام اللازم والدعاء فقال له : « من أين اتيت الآن ؟ »

قال : « من حوالى قصر مولاى »

قال : « وما الذى كنت تفعله ؟ »

قال : « كنت ساهرا على راحة مولاى لأنى شعرت بما أصابه من الأرق، وليتنى أستطيع نفعه بشىء »

فتحقق عبد الحميد صدق قوله ، وكان حسن الظن به ، ويرى سواد جلده بياضا.وكثيرا ما جعله عينا على حرسه الخاص الموكل بحراسته لانه كان سىء الظن بهم . فانبسطت نفس عبد الحميد وأثنى عليه ثم قال:«ادع سر خفية (رئيس الجواسيس) ليقابلنى فى القصر ويتناول الفطور معى »

فألقى تحية الاحترام وانصرف . وهم عبد الحميد بالنهوض ، واذا به يسمع صوتا مثل صوته تماما ينادي : « نادر اغا .. نادر اغا » وفيه نغمة الاستبداد مثله ، فأجفل وما لبث أن راى نادر اغا عائدا يكاد يتعثر بساقيه لطولهما ، فقال عبد الحميد : « من دعاك ؟ »

قال : « ألم يدعنى مولاى ؟ انى سمعت أمره بأذنى »

وكان نور الدين افندى واقفا بازاء قفص الببغاء وقد اغرب فى الضحك، فقال له أبوه : « ما يضحكك ؟ من دعا نادر اغا ؟ »

فأشار الغلام الى الببغاء متوقعا أن يبدو سرور الاعجاب فى سحنة ابيه لاتقان الببغاء التقليد ، ولكنه رأى عكس ذلك ، فبان الغضب فى عينى عبد

الحميد وصاح : « أخرجوا هذا الطير من قصري او اقتلوه ، فاني لا اطيق أن أسمع صوتا يأمر وينهى غير صوتي». قال ذلك بلحن الحنق والاستبداد حتى سمعه كل من فى الحديقة من الحاشية والنساء والسياس ، وتولاهم الرعب من شؤم ذلك النهار الذى ظـــهر غضب السلطان فى أوله ، وبادر البستاني فأخذ القفص ومضى به ، وتبعه الامير احمـــد نور الدين يتوسل اليه أن يستبقي ذلك الطير ، ولم يعد يجرؤ أن يخاطب اباه فى شأنه

ومشى عبد الحميد الى قصره ، ونظر الى القهوجي نظرة فهم منها انه يريد التدخين ، فقدم له سيكارا وبادر الى اشعاله ، فسار ــ وهو يدخن ــ فى دهليز يستطرق الى باب القصر الرئيسي حيث يقف الحرس الالبـاني بالأسلحة . فمر بين صفوفهم وهم يحيونه التحية العسكرية ، وهو يرمقهم خلسة ويلاحظ حركاتهم ، ويده فى جيبه تحت العباءة على المسدس لئلا يكون هناك من يتربص له لقتله ، فيسبقه هو الى قتله . وكان من امهر الناس فى الصيد بالمسدس . حتى وصل الى الباب . وكان نادر أغا واقفا فى انتظاره هناك ، ففتح له الباب فدخل يطلب غرفة اللبس ، ومر بطريقه اليها فى ممر قد كسيت جدرانه بالخزائن المملوءة بالتقارير السرية ، وفيها الوف منها جمعت بتوالي السنين . فلما وصل الى غرفة اللبس ساعده نادر أغا فى تبديل ثيابه ، فلبس « الاسطمبولينا » السوداء كالعادة ، وسأل نادر أغا : « هل دعوت السر خفية ؟ »

فقال : « نعم أفندم ، هو آت حسب الامر ومعه بريد الصباح »

فلما سمع لفظ البريد تذكر التقرير الذى كان معه فتفقده فاذا هو على مائدة هناك . وبعد أن فرغ من اللبس توجه الى غرفة المائدة ، وهى قاعة واسعة فى أرضها بساط واحد فيه رسوم جميلة تشبه رسوما مثلها فى السقف بألوانها وأشكالها . وفوق البساط مائدة كبيرة تسع حولها عشرين رجلا ونيفا . وفى صـــدر الغـرفة موقد التدفئـــة من « البورسلين » الابيض المذهب عليه حرف (H) مرسوما بالذهب . وتجاه الموقد ساعة كبيرة على نضد متقن الصنعة . ولا تخلو غرفة من غرف ذلك القصر من ساعة وترمومتر وبارومتر ، لان عبد الحميد كان شـــديد الولع بهذه المقاييس

والى كل من الجانبين خزانة من الخشب الثمين ، اذا فتحت ظهر انها بيانو من اعلى طراز . وهى هدية من امبراطور الالمان

دخل عبد الحميد غرفة المائدة والتقرير فى يده ، فوضعه على طرف المائدة ، وكان الطعام قد أعد على الطرف الآخر منهـا ، وهو بسيط مؤلف من اللبن والبيض وبعض المربات والفاكهة . ونظر الى السـاعة فرأى وقت مجيء رئيس الجواسيس لم يحن بعد ، فقام الى غرفـة

البيانو حيث بادر نادر اغا الى فتحها لعلمه ان سيده يحب العزف على تلك الآلة احيانا ، ولا سيما اذا كان قلقا

فجلس عبد الحميد الى البيانو والسيكار فى يده ، فوضعه على منفضة بجانبه ، وأخذ يوقع لحنا تعود الارتياح اليــه ، ونادر أغا واقف ينتظر أمره . ثم شعر عبد الحميد بخطوات فى الردهة الفاصلة بين تلك الغرفة وباب القصر . فامسك عن العزف والتفت ، فأسرع نادر اغا الى الباب ثم عاد وقال : « ان السر خفية جاء ومعه حقيبة البريد وضعها على النضد فى الردهة »

ثم دخل السر خفية ، وهو كهل قصير القامة ، فالقى التحية وانحنى الى الارض ، ووقف بالباب ، فتبسم عبد الحميد واشار اليه أن يدخل ، فدخل باحترام وهو يتلملم ويتأدب كالعادة المتبعة

فجلس عبد الحميد الى المائدة ، وأشار اليه ان يجلس تجاهه ، وأمر نادر أغا بالانصراف ، وأن يقف فى مكانه خادم للمائدة أصم أبكم معين للخدمة فى الجلسات السرية التى لا يريد السلطان أن يسمع الخدم شيئا مما يدور فيها . فأتى ذلك الخادم لتقديم ما يلزم للمائدة ، والسلطان يخاطبه بما يحتاج اليه بالاشارة

اما السر خفية فقعد وهو يعلم أن دعوته الى المائدة شرف عظيم قــل من يناله من الأخصاء ، وشعر بأن عبد الحميد لم يكرمه الى هذا الحد الا لأمر مهم . فلم يتناول من الطعام الا قليلا ، وذلك من قبيل التأدب فى مثل تلك الحال ، وبالغ السلطان فى اكرامه فقدم له سيكارا فتناوله ولم يدخنه

ثم فتح السلطان الحديث وقد بدل سحنته كأن لم يكن به قلق . ومن مزايا عبد الحميد اقتداره العجيب على اخفاء ما به والظهور بالحالة التي يريدهــا ، وقال : « كم ينشرح صــدرى بمجالسة الامنـــاء من أعوانى ؟ »

فقال : « انا عبيد مولانا امير المؤمنين ، والامانة فرض علينا »

فتناول فنجان اللبن وأدناه من فيــه وهو يقول : « نعم ، ولــكن الامناء قليلون ، وأنت واحد منهم » . ورشف رشفة من الفنجان واعاده الى الصحن وقال : « بل انت موضع ثقتى وعليك المعول فى استطلاع دسائس الخوارج من رعيتى وهم كثيرون »

فقال : « ان اكثر رعايا امير المؤمنين صادقون فى عبوديتهم وانما الخائنون شرذمة قليلة قادها فساد التربية الى الدسائس »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلا : « انهم كثيرون على ما يظهر » . وأشار بيده الى التقرير الذى كان يطالعه

فتناول السر خفية التقرير وهو يقول : « ارى مولاى البادشاه أيده الله قد أعار دسائس أولئك الاغرار اهتماما »

فقال : « هل قراته ؟ » . واشار الى التقرير

قال : « نعم افندم »

قال : « الم تقرأ ما فيه عن الجمعية التى انشأوها فى دمشق . ان العرب .. آه من العرب .. قد ذهب احسانى اليهم عبثا ! »

قال : « لم يذهب الاحسان عبثا يا سيدى . فقد جاء فى هذا التقرير ان بعض الاغرار من اهل دمشق أخذوا فى انشاء جمعية جديدة . ولكن اولئك قليلون لا ينبغى لمولاي ان يعتد بأعمالهم ، فكم انشأوا من الجمعيات السرية ، وكم كتبوا ونشروا ، لكن توفيق جلالة السلطان غلب كيدهم لان الله معه ! »

فقال : « الا ترى انهم اتخذوا فى جمعياتهم خطة جديدة ؟ »

قال : « أظن جلالة البادشاه يعنى دخول الضباط فيها »

فكادت تظهر البغتة فى وجه عبد الحميد عند ذكر الضباط ، ولكنه تجلد وقال : « الا تظن دخول الضباط فى هذه الجمعية يعظم أمرها ؟ »

قال : « ان العمدة فى الجند على العساكر ، وهم السواد الاعظم ، ونحن على ثقة بأنهم يتفانون فى الدفاع عن امير المؤمنين ظل الله على الارض »

فأثر ذلك الاطراء فى نفس عبد الحميد وقال : « أنا أعلم أن الخونة لا يقوون على شيء طالما كنا على بينة من اغراضهم ، لكن لا اكتمك ما يجول فى خاطرى ، لأني عظيم الثقة بأمانتك وصداقتك » . قال ذلك وتناول تفاحة واخذ فى تقشيرها ، واشار اليه أن يأخذ تفاحة لنفسه ، وقال بصوت خافت : « لا أكتمك اهتمامى بأمر العرب ، لا سيما أهل الشام .. لا اعنى انهم يقدرون على شيء .. ولكنهم أصحاب أقلام وفيهم همة ولهم يد فى أوربا بما يعرفونه من الالسنة الافرنجية .. وهل نسيت ما كانوا يكتبونه فى الصحف الاوربية من المقالات المحرضة على التمرد والعصيان » . وسكت

فقال : « لم انس ما كان من الضجة التى احدثوها فى أوربا ، ولكنهم غلبوا على امرهم وسكتوا »

فابتدره السلطان قائلا : « نعم سكتوا حينذاك . ولكن حركتهم الاخيرة تختلف عن تلك . انهم الآن على ما يظهر فى هذا التقرير داخلون مدخلا جديدا ، ليس فيه ضجة ، فهم عازمون على انشاء جمعية يجرون اليها ضباط الجند وهم يدعونهم باسم الامة العربية ، ويزعمون انهم مادة الاسلام وأصله ، وربما حدثتهم انفسهم باسترجاع مجدهم .

وقد يستطيعون خداع بعض ضباط جندنا بهـذه الحيلة ، واذا فعلوا ذلك . . » . وسكت ووضع قطعة من التفاحة فى فيه

فتبسم السر خفية تبسم الاستخفاف وقال : « اذا اذن لى مولاى البادشاه قلت ما يخطر لى وهو ما تدعونى اليه عبوديتى »

فاستبشر السلطان بشىء جديد يسمعه ، وان لم يفته شىء يخطر ببال محادثه لفرط دهائه وسرعة خاطره وحذره ؛ فأظهر الاصغاء وقال : « قل ما يخطر لك »

فقال : « هب يا مولاى أن العرب فى الشام عزموا على انشاء جمعيـة سرية يدخلون فيها ضباط الجيش . لنفرض ذلك ممكنا ، وأنهم نجحوا لا سمح الله ، وتكاثر عددهم ، ففى الامكان ارجاعهم أو اسكاتهم كما أسكتنا غيرهم قبلهم بالمال أو بالاسترضاء او بقوة الجند ، أو على يد بعض المخلصين للعرش العثمانى من عبيد مولانا السلطان ، لانهم فى داخل المملـكة لا يرجون نصرة أعدائنا دول أوربا » . قال ذلك وبلع ريقه وبان الاهتمام فى وجهه كأنه يكتم شيئا مهما

□

كان السلطان عبد الحميد يستمع لحديث رئيس الجواسيس متشـاغلا بفتات من لب الخبز يعركه بين الابهام والسبابة . فلما لحظ فيه الاهتمام ـ بعد أن ذكر دول أوربا ـ أدرك ما يشـير اليه فقاطعـه قائلا : « فهمت مرادك . صدقت ، ان العرب لا ينبغى أن نخافهم . هل حدث شىء جديد فى سلانيك ؟ . ان أشقياء هذه المدينة لا يركن اليهم لقربهم من أعدائنا » .

وبان الغضب فى وجهه ، فوقف ومشى نحو البـاب ، فوقفه السر خفيـة ومشى فى أثره ، وقد أدرك أنه يقصد حجرة الاستقبال التى جرت العادة أن يقابل فيها كبار موظفيه كالسر خفية والباشكاتب والسر عسكر وغـيرهم ليطلع على ما جاء به البريد . فقال السلطان : « أقصص على ما تعلمه من أمر تلك المدينة الجهنمية . هل أتاك شىء بشـأنها ؟ »

فقال : « أرجو أن نجد شيئا فى هذا البريد »

فدخلا الحجرة ، وكان فى وسطها منضدة مستديرة عليها غطـاء من المخمل المزركش حولها مقعد وكراسى ، وليس على جدرانها الا اطار معلق فى صدرها ، وقد كتب فى وسطه بخط جميل هذه الآية : « انا فتحنـا لك فتحا مبينا » وتحتها « أمان يا رسول الله »

وجلس السلطان على المقعد وحقيبة البريد بين يديه على المنضـدة ، وأشار الى السر خفية أن يقعد ، فقعد على كرسى وبادر الى فض الحقيبة

واخرج منها أوراقا واغلفة وظرفا ، والسلطان يساعده فى قراءة العناوين . فأفرد السر خفية ظرفا كبيرا عليه خاتم سلانيك ، فتناوله السلطان وهو يقول : « هذا من ناظم بك . انى أتوسم فى هذا الشاب خدمة صادقة . ألاتعرفه ؟ »

قال : « كيف لا ؟ انه حقيقة من العبيد المخلصين للسدة الشاهانية ، عرفت ذلك من بعض رجالى الذين بعثت بهم الى تلك المدينة »

فقال السلطان وهو يفض ذلك الظرف : « ماذا قال لك رسولك ؟ »

قال : « أكد لى صدق خدمة ناظم بك مما يكابده فى البحث عن أعضاء تلك الجمعية »

فلما قال السر خفية ذلك تغير وجه السلطان،وابرقت عيناه غضبا وقال: «كانت تلك الجمعية الملعونة ــ التى تسمى نفسها جمعية الاتحاد والترقى ــ فى باريس ضعيفة ، ولو لم ينشطها الداماد محمود وأولاده لزال أثرها »

فقال السر خفية : « قد زال اثرها يا مولاى من وقت طويل . ولكن بلغنى أنهم أعادوا الكرة واستأنفوا السعى . ولعل فى كتاب ناظم بك ما يكشف الحقيقة »

وكان السلطان يسمع وعينه على تقرير ناظم بك ، ثم وقف بصره على فقرة أخذ يقرؤها ويعيد قراءتها ، والسر خفية ساكت ينتظر ما يقوله السلطان . فاذا به يناوله التقرير ويقول : « تحقق ظنك . انك مجتهد فى البحث وقد صدقك مخبرك . خذ واقرأ »

فتناول السر خفية التقرير وقرأ فيه ما معناه : « ان الجمعية الملعونة التى رفعت الى اعتاب مولانا البادشاه خبرها على سبيل الظن قد تحقق لى الآن أنها تألفت وانتظم فى سلكها كثيرون من ضباط الجيش وغيرهم ، وأنا ساع فى كشف أمرها والاطلاع على مكان اجتماعها .. ولكننى علمت من بعض المخبرين أن مثل هذه الجمعية فى الشام تضم الضباط أبناء العرب ، وأن بعضهم جاء سلانيك للاشتراك فى هذه الجريمة ، ويقال انهم اكتفوا بجمعية سلانيك ووضعوا كل قوتهم فيها وغضوا النظر عن دمشق . فاذا وفقنا الى كشفها قطعنا دابر المفسدين . ولكننى أؤكد لمولاى البادشاه ملجأ الخلافة الاقدس أن عبده ساهر على مصلحة الدولة وخدمة الذات الشاهانية ، ولا البث أن أكتشف مكايد الخائنين . واطهر الارض من وجودهم »

فى سبيل الدستور

كان رئيس الجواسيس يقرأ التقرير والسلطان يتشاغل بتقليب السيجار بين انامله ، ويدخن بسرعة وبلا نظام، وادرك رئيس الجواسيس قلقه فقال: « صدق ناظم بك ، أن سلانيك أعظم خطرا من سائر مدائن المملكة ، وقد عرفت ذلك من قبل ، فأرسلت اليها رجلا من جواسيسى منذ بضعة أسابيع ، وعهدت اليه فى البحث والتنقيب عن جمعية جديدة تألفت هناك من ضباط الجيش . وقد عرفت ذلك من بعض الاعوان . فى دمشق ، فقد كتب الى أحدهم ان بعض المغرورين سافروا من دمشق الى سلانيك لهذا الغرض، فاذا كانوا قد جمعوا كيدهم كله فى سلانيك فسيرتاح بالنا من جهة الشام ونوجه اهتمامنا لمطاردتهم فى مركزهم الجديد »

فقال السلطان : « هل انت على ثقة من جاسوسك الذى أرسلته الى سلانيك ؟ »

قال : « نعم يا مولاى ، انه شاب ذكى اسمه صائب بك ، من اشد الأمناء غيرة على الجناب الملوكى الهمايونى . وقد جاءنى منه أمس انه اوشك أن ينجح فى كشف خيانة الخائنين » .

فهز عبد الحميد رأسه ، وقد تولاه الحنق وقال : « ويل للخائنين ناكرى الجميل . حتى الجنود تمردوا على وأنا الذى لم أدخر وسعا فى التوسعة عليهم ؟ . انى سأنتقم منهم شر انتقام ! »

فتهيب السر خفية من غضب السلطان وقال : « ان الجنود الشاهانية كما قلت لمولاى لا يزالون على ولائهم . وكذلك الضباط كلهم على الولاء الا نفرا قليلين اغراهم أولئك الخوارج على نبذ الطاعة . وهم يزعمون انهم يجاهدون فى سبيل الدستور »

فاجفل السلطان من ذكر الدستور وصاح : «الدستور ؟ لماذا يطلبونه ؟»

قال انهم مغرورون يا مولاى . وانا اعلم أن امير المؤمنين من أرغب الناس فى منح رعاياه الدستور متى رأى فيهم الاستعداد له. ولكن متى كان أهل الشرق يحكمون بالدستور ؟ وقد تكرم جلالة البادشاه فمنحهم اياه فلم يفلحوا ولا عرفوا كيف يستخدمونه »

فسرى عن عبد الحميد وقال : « قد أعطيناهم الدستور فأفسدوه انهم لا يصلحون له »

فقال السر خفية : « على أن الدستور يا مولاى يخالف الشرع الشريف، اليس جلالة السلطان خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينبغى أن يقتدى به ؟ هل كان الخلفاء الراشدون يحكمون بالدستور ؟ . انه من بدع النصارى أهل أوربا . ولو كان ملكهم خلافة دينية ما سلموا بالدستور ولا عملوا به ، ولكن بعض المغرورين اللئام من رعايا جلالة السلطان فسدت طباعهم بمعاشرة الافرنج فأرادوا أن يقلدوهم فى الحكومة كما قلدوهم فى اللباس والطعام والسكر والمقامرة ، فأغفلوا قواعد الدين الحنيف وعصوا أوامر النبى صلى الله عليه وسلم ، ويريدون أن يعصوا أوامر خليفته فخرجوا عليه و . . »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « والخوارج الملاعين ؟! . ما الذى حملهم على الخيانة ؟ . وما العمل الذى أوجب خروجهم ؟ هم يطلبون المناصب ويطمعون فى الترضيات المالية وقد تعبت فى مرضاتهم . من أين آتيهم بالمناصب التى يطلبونها ؟ أمن الاخلاص أنهم اذا جاعوا خرجوا على مولاهم ؟ ! »

فأخذ السر خفية يخفف عنه قائلا : « ان مساعيهم ستعود وبالا عليهم وما أظنهم الا نادمين عما قليل . وما هذه أول مرة رجعوا فيها صاغرين . لم يكن فيهم أشد وقاحة من مراد الداغستانى وأنصاره، وقد ندموا ورجعوا ، فأكرم جلالة السلطان مثواهم واغدق عليهم النعم . ولعل ملجأ الخلافة أيد الله ملكه قد بالغ فى الاحسان اليهم والاصغاء الى صراخهم . ولو انه اهملهم واستعمل القسوة فى عقابهم لكانوا عبرة لسواهم ، ولكنه عاملهم بالرفق والاحسان فطمعوا وتمردوا ، وقد آن الوقت الذى يدركون فيه شططهم وخطأهم »

فابتدره السلطان قائلا : «بل آن الوقت للاقتصاص منهم والفتك بهم». وصفق فدخل أحد الحجاب فقال له : « ادع الباشكاتب »

فخرج ولبث السلطان ساكتا وهو يرتعد من الغضب، وتهيب السرخفية من رؤيته فى تلك الحال . وبعد قليل دخل الحاجب يستأذن للباشكاتب . فلما اذن له دخل وحيى ووقف ، فأومأ اليه السلطان أن يقعد فقعد ، فقال له : « اكتب الى ناظم بك قومندان سلانيك أن يستعمل الدقة فى البحث عن الخونة الذين يزعمون أنهم يقفون فى سبيل ارادتى الشاهانية بتأليف الجمعيات السرية. أطلب منه أن يستعمل الشدة بأية وسيلة كانت، وليبادر الى ايفاء الوظيفة الموكولة اليه بما يليق بالشرف العسكرى رغبة فى صيانة الدولة من الادران الضارة ! »

فقال الباشكاتب : «سمعا وطاعة أفندم، وقد كتبت بأمر مولانا الى ناظم بك بهذا المعنى أمس »

فقطع كلامه قائلا: «اكتب أيضا وقل له أن يجرد السيف ويقطع الرقاب

ويقتـل ويفتـك » . قال ذلك وهو ينتفض . وتزحزح من مقعده فنهض الباشكاتب والسر خفية واستأذنا فى الانصراف،فأذن للباشكاتب واستبقى السر خفية

وبعد خروج الباشكاتب ظل السلطان مطرقا دقيقة ريثما هدأ روعه ، ثم خاطب السر خفية قائلا : « كيف ترى تحسينا الباشكاتب ؟ »

قال : « أراه مخلصا يا مولاى »

فتنهد تنهدا طويلا فهم منه السر خفية الف معنى ، وهو يعلم سوء ظن عبد الحميـد بكل احد ، ثم قال : « هب انه غير مخلص فانى لا أغفل عن كشف، اسرازه ، وقد خصصت له جاسوسا من انبه رجالى لاستطلاع حقيقته »

فقال : « أما وقد فهمت مرادى فكفى . انى لا أثق بأحد سواك »

وأحس السر خفية أنه قد آن وقت انصرافه فاستأذن وخرج

□

نهض عبد الحميد ، ومشى والغضب ظاهر فى وجهه حتى دخـل غرفة الكتابة ، وفيها كرسى ونضده من الزجاج ، اصطنعهما للجلوس عليهما اذا تكهرب الجو وخاف وقوع الصواعق،لان الزجاج لا يوصل الكهرباء. فجلس على الكرسى لحظة بغير تعمد ، ثم نهض وتحول نحو منضدة عليها اوراق فى محفظة ، فتذكر التقرير الذى اتاه من الشام ، فهرع الى غرفة المـائدة واخذه وأضافه الى الوف التقارير التى ذكرناها فى خزائن الدهليز . وكأنه تعب من شدة القلق فتوسد مقعدا من المقاعد التى ينام عليها واستغرق فى الافكار ثم جعل يناجى نفسه قائلا :

« تبا لكم من خونة !. انـكم لا تخدمون عبد الحميـد الا بالمال ، حتى السر خفية نفسـه لا يخلص لى ، وانما يداهننى رغبة فى المال . . وانا اخادعه واغريه بالآخرين ليطلعنى على اسرارهم ، واغريهم به ليطلعونى على سره . لا اخاف غدر هؤلاء وهم بالقرب منى ، لأنى أملأ قلوبهم بالوعود وجيوبهم بالأموال واجعل بعضهم على بعض جواسيس،وأقيم السرارى عيونا عليهم اجمعين . . ان عبد الحميد أدهى منكم جميعا ، فمن شككت فيه قتلته سرا او جهرا . وانما اخاف البعيدين الذين يتعذر التجسس على اعمالهم . ولكننى قاهرهم ، وهذا الملك لا يخرج من يدى ، ولن يخرج الا الى بعض ابنائى . انا السلطان عبد الحميد . أنا وحدى الآمر الناهى . انا وحـدى مالك الرقاب »

وسكت هنيهة متشاغلا بتأمل رقاص الساعة وهو يتحرك يمنة ويسرة،

واخذ يراجع فى ذاكرته ما دار بينه وبين السر خفية . حتى اذا وصل الى ما دار بينهما بشأن العرب عاد الى مناجاة نفسه قائلا : « ان السر خفية قلل من أهمية العرب فى نظرى ، وظننى صدقته ، ولكننى خدعته بسكوتى لئلا أريه مقدار خوفى من ابناء العرب . هل انسى ما رمانى به غانم والكواكبى وأرسلان وغيرهم ، وما أنشأوه من الصحف فى مصر وباريس وجنيف . آه منهم ! انى اخافهم لانهم اكثر عددا فى مملكتى من سائر العناصر ، وفيهم كتاب فى أكثر اللغات الأفرنجية ، وهم يكتبون فى جرائد أوربا ويجتمعون بدول أوربا ، ولا يسهل علينا اسكاتهم . هذا شأن المسيحيين منهم ، فهم لا يقلون أهمية فى نظرى عن الأرمن الملاعين ، على أن هؤلاء قد سحقتهم وقتلتهم وسبيلى اليهم سهل . واما العرب فالمسيحيون منهم تحميهم الدول . اما المسلمون فانهم أصل الاسلام . ومادته،ولا يزالون حتى الساعة ينكرون علينا حق الخلافة لأننا غير عرب. فكيف لا نخشى بأسهم ؟.ان هؤلاء المتملقين يموهون الحقائق،غير عالمين انى أموه عليهم وأظهر انى صدقتهم . ولولا ذلك ما قربت عزت وأبا الهدى وغيرهما من المشايخ الذين يتوهمون أنهم يخدعوننى ، وما يخدعون الا انفسهم »

وتنحنح ومد يده الى علبة السيكار فأشعل سيكارا وعاد الى المناجاة قائلا : « هم يحسبون أنهم يحتالون فى التقرب منى ليكتسبوا المال والجاه ، وأنا لاغنى لى عنهم لتوازن الاحزاب والعناصر . ولكنى مع ذلك أخافهم ولا أثق بهم ؟ »

ثم خطر له أن يطلب الرقاد فى سريره فنهض ومشى الى غرفة النوم،فمر بالحجرة التى تستطرق الى دار الحريم من باب كله مرآة ، وهم بفتحه فوقع نظره على صورته فيه ، فوقف يتأمل سحنته ويصلح من شأنه . وكان شديد الرغبة فى مظاهر الشباب،يستخدم فى ذلك الخضاب والتزجيج والتخطيط. وكان لرغبته فى الحياة ينكر على نفسه الاقتراب من الشيخوخة ويلتمس تعليلا لما فى وجهه من غضون حتى لا يعترف بأنه صار شيخا

وفيما هو ينظر فى المرآة وقعت عينه على صورة زيتية معلقة بجانب ذلك الباب تمثل قاربا عند الشاطىء ، وقد وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم ألبسة سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها مما يلبسه الرهبان اليسوعيون. وفى يدى كل منهم آلة موسيقية كالناى أو العود أو المزمار يعزف عليها . وهم جميعا فى حال عربدة أو سكر . وأمامهم على الشاطىء نحو عشر نساء عاريات يرقصن أو يتخالعن . وهى صورة أهداها الى عبد الحميد بعض المتملقين ، وفيها يظهر مدحت ورجاله الاحرار بما يحقر دعواهم ، ويدل على انهم يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تمويها على العقول ، وهم فى الحقيقة يريدون الخروج على الآداب الدينية ، والاقتداء بالنصارى فى خلاعتهم وسكرهم !

فلما وقع نظره على تلك الصورة حرق اسنانه وهز رأسه وتضاحك مستهزئا وقال كأنه يخاطب مدحت : « اتطلب الدستور ؟ ! . ما هو الدستور ؟ اتريد ان تقيد ارادتي ليسمع في الدولة صوت غير صوتي ؟ .. لا . لا ينبغي أن يسمع غير هذا الصوت. هكذا كان عمي وابي وهكذا ينبغي ان اكون أنا . اغرك ما قدرت عليه انت واعوانك حتى خلعتم عمي رغبة في الدستور ؟. الدستور ؟!.. انني أنا الدستور ، وارادتي هي الشريعة ، وقد نلت جزاء غرورك . مت واشبع موتا .. آه لو أستطيع ان اميتك ثانية . وهكذا سأفعل بمن يقولون قولك ويسعون سعيك . سأسحقهم سحقا واقتلهم قتلا ! »

قال ذلك ودخل دار الحريم يطلب الرقاد للراحة وهو ينتفض من الغيظ، وقد توسط النهار ، ولم يشته الطعام لفرط ما حل به من هياج العواطف المتضاربة بين الغضب والخوف والرجاء واليأس والانتقام

▭

ما كاد عبد الحميد يدخل دار الحريم حتى سكن ما كان فيها من حركة الجواري والخصيان . فاستولى عليها الصمت والجمود ، ولا سيما أنه كان قلما يدخل تلك الدار في مثل تلك الساعة ، لانها ساعة قراءة التقارير في القصر الصغير

وكان نادر آغا اول من خف لاستقباله ، فوقف له باحترام والقى السلام وقد توسم الاضطراب والغضب في عينيه ، ولم يكن يفوته شيء من احواله لما علمت من تقربه ودخوله في كل امر ، لموقعه من نفس عبد الحميد . ولعله أكثر ثقة فيه من سائر المحيطين به

ووقف نادر اغا ينتظر اشارة البادشاه الى ما يطلبه أو يختاره من غرف الجواري ، فاذا هو قد سار الى غرفة الرقاد ، فأسرع نادر اغا لخدمته فيما قد يحتاج اليه هناك ، فأومأ اليه أن يتركه وحده ، فانصرف وقد ادرك مقدار ما في نفس عبد الحميد من القلق

توسد عبد الحميد سريره في غرفة أغلق بابها من الداخل بيده ، وأخرج المسدس من جيبه ووضعه تحت الوسادة كأنه في الصحراء على موعد من هجوم أهل البادية عليه ! وكان رغم ما يظهره من الثقة بأعوانه ورجاله يخاف كلا منهم ، وقد تمكن في خاطره ان الانسان خلق شريرا ، وأن أول أغراضه في هذه الحياة أن يغتال اخوانه ويسلبهم مالهم بأية وسيلة كانت

وقد نشأ عبد الحميد من صغره حذرا سيء الظن ، وشاهد بعينيه خلع عمه ثم موته ، ومقتل عوني على يد حسن الشركسي ، ثم خلع

أخيه مراد . فلما تولى السلطنة رأى حياة السلطان ليست أكثر صيانة من حياة العامة ، او هى أكثر تعرضا للخطر منها . فزاد تعلقا بالبقاء ، واشتد خوفه على نفسه حتى بلغ درجة الهوس ، فأصبح لا يسمع حديثا أو يرى مشهدا أو يقول قولا أو يعمل عملا الا وهو ينظر من وراء ذلك الى علاقته ببقائه .. واضطر للمحافظة على نفوذه واستبداده فى أول سلطنته الى أن يسيء الى بعض الاحرار بالابعاد أو القتل بدسائس اشرك فيها بعض خاصته ، فأصبح يخاف نقمة أهل القتلى ، ويخاف دسائس أولئك الخاصة . ولعله كان يقيس شعور الناس على شعوره ، فيتصور انه لو توسم نفعا بقتل بعض أصدقائه أو محبيه لا يرى بأسا من قتله ، فأصبح يخاف ان يستولى أعداؤه الكثيرون على قلب بعض خاصته فيغريه بالمال أو غيره ليقتله . ولذلك فهو لا يثق بأحد أو يستسلم له كما يستسلم الصديق لصديقه أو الابن لأبيه كما يفعل أكثر الناس ، لانه يرى كل شيء عدوا له

ولم يلق رأسه على الوسادة حتى تصور ما مر به فى ذلك اليوم من الطوارىء وأخذ يفكر فيما عساه أن يطرأ فى الغد بشأن تلك الجمعية ، ويقدر الوجوه التى يمكن ان تقع ويدبر حيلة يتلافاها بها . ومع كثرة هواجسه غلب عليه النوم لفرط التعب ، فنام وأهل القصر جميعا كأنهم فى سبات مخافة أن ينغصوا عليه رقاده فيغضب

نام والغرفة مغلقة ونادر أغا جالس ببابها ينتظر ساعة اليقظة ليقوم بالخدمة اللازمة ولكى يعلم أهل القصر بوجود البادشاه هناك فلا يخطرون ولا يتكلمون

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر سمع نادر اغا نحنحة السلطان فعلم أنه استيقظ ، فوقف وما عتم أن فتح الباب واطل عبد الحميد فأشار الى نادر اغا ان يدخل فدخل فقال له : « سمعت مشيا فى هذا هذا الدهليز »

فاستغرب نادر اغا قوله وأكد له أنه لم يمر أخد . ولم يكن عبد الحميد قد سمع شيئا لكنه قال ذلك لسوء ظنه على سبيل الاستطلاع . ثم أشار اليه أن يأمر رئيس الاسطبل باعداد الجواد الابيض للتجول عليه فى الحديقة ، فأسرع نادر اغا وبلغ الامر لتخلو الطرق من المارة وبعد قليل نزل السلطان فركب الجواد وسار بين اثنان من ياورانه ، وهما مفوضان أن يقتلا كل من يجدانه فى الطريق

طاف الحديقة الصغرى والكبرى على هذه الصورة وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، فلاح له أن يلهو بزيارة المعامل ، ومنها : معمل للترميم ، وآخر لصنع البروسلين ، وترسانة لصنع الاسلحة من كل نوع

حتى المدافع والبنادق . وزار أيضـا ما هنـاك من المتاحف الصناعية والملاعب المختلفة ، ثم تحول الى الاسطبلات وفيها الجياد على اختلاف أشكالها . حتى وصل الى ابراج الحمام فى الحديقة الصغرى

وكان ينزل عند كل معمل أو متحف أو اسطبل ويلهو بتفقد ما فيها ، وعمالها يبذلون جهدهم فى عرض ما تفننوا فيـه من ضروب الصناعة ، وهو يظهـر أنه مهتم بكل ما يقولونه ولكنه فى الحقيقة مشتغل بهواجسه

فلما وصل الى الحديقة الصغرى دخل الكشك فتذكر ما كان من حاله فيه فى صباح ذلك اليوم . ووقـع نظره وهو داخل هنـاك على شىء اذكره بالمهرج المضحك وهم يسمونه فى اصطلاحهم « كاغد خانه أمامى » فأشار الى نادر اغا أن يأتيه به

وبعد قليل جاء المضحك ، واسمه علي افندى ، وهو كهل منظره يضحك الثكلى ، وكان قصير القامة كبير الراس عظيم الانف ، وقد لاث حول رأسه عمامة كبيرة ولبس جبة طويلة تزيد منظره غرابة . جاء وهـو يستعيذ بالله من تلك الدعـوة لان السلطان كان يبالغ فى تعذيبه التماسا للضحك . فحالما اقبل على السلطان وقف مطرقا بعد أن قبل الارض ، فأشار السلطان الى نادر اغا اشارة فهمها ، فأمر بعض الوقوف من الخدم أن يطلوا وجه المضحك بالسواد ففعلوا . ولما تم الطلاء وقف علي افندى وألقى التحية فضحك السلطان من منظره واشار الى نادر اغا اشارة اخرى ، فقبض على ذلك المسكين وحمله بين يديه والقاه فى البحيرة ، فقهقه السلطان ، ولكن الناظر فى ملامح وجهه يعلم انه يتكلف ذلك . فجعل علي افندى يخوض الماء وقد وقعت عمامته عن رأسه وعامت جبته على سطح الماء وهو يصيح ويستغيث والسلطان يضحك . ثم امر باخراجه فأخرجوه والماء يقطر من أردانه وقد أعدوا له ثيابا اخرى فى مكان آخر فمضى فبدلها وعاد وهو يتظاهر بالسرور والمجون ويده على أنفه يضربه ضربا متواليا ، فأغرب السلطان فى الضحك وابتدره قائلا : « ما الذى أصابك ؟ ولماذا تضرب انفك ؟ »

فقال : « اضربه لأنه اصل هذا البلاء على .. انا اعلم ان شكل هذا الانف هو السبب فيما اقاسيه من العذاب ! »

فأدرك السلطان انه يعنى الاشارة الى الارمن الذين هم كبار الانوف ، وقد اشتهروا بعداوة السلطان ، ولكنه تجاهل وقال : « هل نقطع لك هذا الانف ؟ »

فابتسم المضحك وقال : « اذا كان البادشاه يريد أن يزيدنى جمالا فليفعل »

فضحك السلطان وقال : « نادر اغا اقطع انفه »

فاظهر نادر اغا انه يهم بذلك فصاح المضحك : « أمان أفنـدم . أمان ! »

فأشارا بالعفو عنه وهو يضحك وقال : « قد عفونا الآن عن أنفك وأما بعد الآن فلن نعفو ! »

فقال : « الامـر لولى النعم .. اذا أراد أن يقطعنى اربا اربا فهـو صاحب الإمر .. ولـكن لا يخلو كبر الانف من فضيلة ، فان بين أصحابه من يتفانى فى رضى جلالة البادشاه ، وفيهم من يعشقه ويتمنى الموت تحت قدميه »

فتبدلت سحنة السلطان من المجون الى الجد ، وأومأ الى الحضور أن ينصرفوا الا على أفندى ، فذهبوا جميعا وظل هذا منتظرا يحسب لهذه الخلوة الف حساب

فلما انفرد السلطان به أوما اليه أن يقعد بين يديه ، فقعد على العتبة جثوا واطرق ولبث ينتظر ما يكون . فالتفت السلطان يمنة ويسرة ، ولما تأكد خلو الحديقة من الناس التفت الى المضحك وقال له جادا : « انزع عنك المجون وخاطبنى »

فاظهر الجد والاحترام وقال : « انى عبـد مولاى البادشاه وطـوع ارادته »

قال : « أنت تعلم منزلتك عندى »

قال : « يا سيدى ... ان نعم أمير المؤمنين قد غمرتنى وانا أخلص عبيده له »

قال : « هذا عهدى بك . ولا شك انك تعرف اعتمادى عليك »

فقبل الارض وقال : « نعم أفندم ، وهذا شرف لى »

قال : « هل عندك شىء جديد ترفعه الى ؟. يظن نادر وغيره من كبار الخصيان وسائر أهل القصر انى اقربك للهو والضحك ، وجعلتك لهذا نديمى ! » . وسكت ينتظر ما يقوله المضحك

فسرى عن على أفندى فقال : « أنا افتخر بهذه الثقة ، وأؤكد لمولاى البادشاه انى ساهر على راحته واقف بالمرصاد لـكل من ينحرف عن واجب العبودية ، لان الناس اشرار لا يعرفون حقوق النعمة »

قال : « كيف تجد نادر اغا ؟ »

فطأطأ المضحك رأسه وقال : « انه نعم العبد الامين »

قال : « وغيره ؟ »

قال : « لم الحظ شيئا جديدا هذين اليومين ! »

قال : « افصح .. لا اظنك الا فهمت مرادى .. »

قال : « يا مولاى ان نادر أغا ساهر على هذه القصور ومن فيها »
قال السلطان : « والوصيفة ج ؟ »
فأظهــر على أفنــدى الاهتمام والاحترام وقال : « من أين لى أن أراها ؟ »
قال : « لا تخف .. قل الحقيقة ، انك تراها ، وأنا اذنت لنادر أغا ان يتمتع المحظيات والوصائف بمجونك ، وكان ينبغى أن تعرف غرضى من ذلك . اهـ ! »
فأجفل المضحك من هذا التهديد وقال : « نعم يا سيدي .. أنا فهمت الغرض ، لـكن هيبة البادشاه أمير المؤمنين بعثتنى على التكتم »
فضحك عبد الحميد ضحكة متكلفة وقال : « طيب .. فماذا تعرف عن ... ج . قل لا تخف »
قال : « انها يا سيدى فى حالة يرثى لها ، لا تكف عن البكاء »
فاستغرب السلطان قوله وقال : « انى لم ارها تبكى قط »
فقال : « نعم هى لا تبكى فى حضرة أمير المؤمنين لان رؤيتــه تذهب كل حزن .. مسكينة ! »
فقطب السلطان حاجبيه وقال : « وتقول مسكينة ؟! »
قال : « اذا باح لى مولاى أن أقول ما أعرفه وأمننى قلت »
قال : « قل لا بأس عليك »
قال : « ان هذه المرأة سيئة الحظ »
فتطاول عبد الحميد بعنقه وحملق بعينيه وقال : « تكون فى قصرى وتعد من نسائى وتزعم أنها سيئة الحظ »
قال : « ألتمس حلم جلالة السلطان . ان سوء حظها مبنى علىوجودها فى هذا القصر »
قال : « وكيف ذلك ؟ »
قال : « لأنها تتفانى فى حب جلالة البادشاه وهو يعاملها بالجفاء »
فأطرق السلطان لحظة تشاغل فيها باصلاح لحيته ، وعيناه البراقتان يكاد الشرر يتطاير منهما ، ثم نهض فجأة ، فأجفل المضحك ونهض ، وخاف ان يكون قــد أغضب السلطان بما قاله ، ووقف متأدبا وركبتاه تصطكان ، وكان السلطان قد اتجه الى قصره ، لكنه بعد أن مشى بضع خطوات التفت اليه وابتسم تخفيفا لما حل به من الرعب ، فخف اضطرابه

السلطانة الوالدة

دخل عبد الحميد الى القصر الصغير من بابه السرى وهـو يتعثر بذيل جبته ، وأزاح طربوشه عن جبهته كأنه يلتمس تفريج كربته من قمةرأسه، فلما صار فى غرفة المكتب تنفس الصعداء واستلقى على الكرسى وهو مستغرق فى الأفكار ، وتناول سيكارا اشعله وجعل يدخن بعنف ويتنقل بنظره على ما فى الغرفة من الخزائن والكراسى بغير انتباه . ثم اخذ يناجى نفسه قائلا : « أ نا أعلم أنها تحبنى وتتفانى فى مرضاتى .. ولكن كيف أحبها وهى ستكون سبب بلائى ؟ »

ثم نهض عن الكرسى ومشى نحو منضدة فتح درجها واخرج ورقة من محفظة هناك ، وأخذ يقرؤها ويعيد قراءتها ، ثم عاد الى الكرسى والورقة فى يده وهو يقول « : كيف أحبها وقد ظهر فى هذا المندل أنه اذا جاءنى منها غلام سيكون شؤما على . لا ينبغى ان أقترب منها .. ان الحب شيء والملك شيء آخر . وأخاف مع ذلك أن تكون قد خدعتنى » . وأعاد الورقة الى المحفظة ومشى الى دار الحريم . فلقى نادر أغا فقال له : « أين السلطانة الوالدة »

قال : « هى فى غرفتها يا مولاى »

فمشى وهو يقول : « أحب أن أراها »

فأسرع نادر آغا حتى بلغها رغبة السلطان فى مقابلتها فتأهبت لاستقباله، لكنها ابتدرت نادر أغا بالسؤال قائلة : « ماهو لون ثوبه اليوم لألبس مثله » . وكانت العادة الجارية فى آداب بلاط عبد الحميد أن يلبس نساؤه عند مقابلته ثوبا لونه مثل لون ثوبه

فقال نادر أغا : « انه بثوبه الأسود الرسمى فلا حاجة الى لون معين » . ولم تكن هى والدة السلطان حقيقة لكنها تقوم مقامها فى ادارة دور الحريم ، وكانت قبلا (خزندار أوسته) أى خازنة دور النساء . فلما ماتت والدة السلطان تولت تلك الادارة ، واليها يرجع تدبير امور نسائه وسراريه . وكانت كبيرة السن ولكن الجمال مازال يتجلى فى وجهها، وفيها ذكاء ونباهة . فلما علمت بقدوم السلطان خفت لاستقباله ورحبت به ، وعليها ثوب يجللها ، وفى يديها الأساور وعلى صدرها الحلى الثمينة . ولحظت فى وجه السلطان القلق ، ولكنها تعرف منزلتها عنده فابتسمت له

وقالت : « هل من امر اقضيه لجلالة البادشاه ؟ »
فجلس على المقعد واشار اليها أن تقعد وقال : « جئتك فى أمر يهمنى »
فقالت : « روحى فداء مولاى »
قال : « كيف حال القادين ج ؟ »
فتغير وجه المرأة عند سماع ذلك الاسم ، وقالت والبغتة ظاهرة فى عينيها : « انها فى خير »
قال : « لا أسألك عن صحتها . ولكن هل قامت حاضنتها بما عليها ؟ »
فأدركت غرضه ، وتلعثم لسانها عن الجواب،لكنها غالبت نفسها وقالت: « انها لا تغفل عن رعايتها »
قال : « بل أسألك عن شيء آخر . هل خبرت امرها من عهد قريب ؟»
فلم يعد فى امكانها الصبر على التجاهل فقالت : « أخبرتنى الحاضنة انها ربما تكون حاملا »
فأجفل السلطان ونهض ولم يتمالك ان صاح : « حامل ؟! »
فنهضت احتراما له وقالت : « هكذا أظن »
قال : « كيف تغفل الحاضنة عن واجباتها ؟ انها اذا كانت كما تقولين فالذنب يقع على تلك الحاضنة الملعونة ! . اليس من واجباتها ان تمنع الحمل وقد خولتها أن تمنعه بأى طريقة كانت ؟ »
فتحيرت فى أمرها وارادت أن تخفف غضب السلطان فقالت : « لماذا يغضب مولاى من حملها ؟ اليست من نسائه ؟ »
فأمسك السلطان غيظه وتجلد وعاد الى القعود ، واشار اليها أن تقعد وقال : « قد جعلتها من نسائي مكافأة على خدمة قامت بها » . ثم تمالك وتجلد وقال بصوت منخفض : « نعم ان القاعدة كما تعلمين أن الجارية بعد أن تكون (كوزده) عند دخولها قصرنا ترتقى الى رتبة (اقبال) . فاذا حملت منا صارت (قادين) . ولكنى جعلت ج فى هذه الرتبة لانها تجسست لى اخبار أحد الخونة فى حوادث الأرمن ، وكنت فى ريب من امره ، فأنفذتها اليه فى جملة الجوارى اللائى أهديتهن الى الباشوات يومئذ ليكن لى عيونا عليهم ، وقد كشفن لى خيانات كثيرة . ولكن ج هذه كلفتها مهمة فوق العادة فعرضت نفسها للخطر علي وغد منى انها اذا أفلحت جعلتها قادين وان لم تلد منى ، وقد أفلحت فأنجزت وعدى »
فلما رأته يخاطبها بهدوء تجرأت على مباحثته فى الموضوع فقالت : « فاذا كنت قد انعمت عليها بهذه الرتبة فما المانع من حملها ؟ »
قال : « وما الفائدة اذن من كثرة الحواضن اللائى يتولين اتخاذ الوسائل لمنع الحمل ؟ وقد أوصيتك على الخصوص بهذه »

فتذكرت السلطانة الوالدة انه كان قد اختص ج بالوصاية ، وهى أوصت الحاضنة بما يلزم ، لكنها اخفقت فقالت : « ولكن لا تفلح الوسائل دائما . ان فى عصمة أمير المؤمنين الآن أربع نساء شرعيات ، و ١٢ قادين مثل ج ، وأكثرهن يحملن ، فلا بأس اذا حملت هذه أيضا »

فقال : « لا . هذه لا ينبغى أن تلد ، فاذا كنت تأكدت حملها فيجب أن تموت »

وكانت السلطانة الوالدة تحب القادين المذكورة لجمالها وذكائها ولانها تحب السلطان الى حد الكلف ــ وذلك نادر فى قصور الملوك ــ فأسفت لتشديد عبد الحميد فى أمرها ، فأخذت تخفف الأمر عليه فقالت : « فى قصر مولاى السلطان ٣٠٠ جارية . هب أن واحدة منهن حملت ، فماذا كنا نفعل ؟ »

فنهض وعلى وجهه علامات الغضب وقال : لا تجادلينى . ان هذه المرأة اما أن يذهب حملها أو تموت ، وقد قلت لك ذلك وكفى » . قال هذا وتحول نحو القصر الصغير ، وقد أزفت الساعة السادسة ، وآن وقت العشاء ولم يكن قد تغدى فوجد المائدة مهيأة

وعشاؤه بسيط ، وفى تحضير طعامه على بساطته مشقة كبرى لشدة خوفه على حياته وسوء ظنه بمن حوله . ومن الاحتياطات التى اتخذها لوقاية نفسه انه أبعد الطاهى الذى يصنع له الطعام عن كل علاقة بأهل الدولة وأمره أن يقيم فى حجرة بابها من الحديد على يسار باب القصر المسمى باب السلطنة « سلطنة قبوسي » فيضع الطعام تحت مراقبة الكلارجى باشا ، وكان لعبد الحميد ثقة شديدة فيه . فمتى نضج الطعام حمله الى غرفة المائدة اثنان من الخدم بلباس أسود على مائدة أشبه بصندوق مقفل طوله ٨٠ سنتيمترا عليه كساء من السجاد ، ويمشى وراءهما خادم يحمل طبقا مغطى بكساء أسود وقد ضمت أطرافه وختم عليه الكلارجى باشى . ويأتى بعد ذلك خادم يحمل وعاء الخبز ، ثم خامس يحمل زجاجة الماء مختومة أيضا . يسير هذا (الوفد) من المطبخ الى غرفة المائدة باحترام ، فاذا لقيهم أحد فى أثناء الطريق انحنى احتراما لصاحب الطعام حتى اذا بلغوا المائدة أدخل الكلارجى باشى الطعام وفض الاختام عنه بين يدى السلطان وقدم له الاطباق وعليها الالوان فيتناول ما شاء

فلما وصل عبد الحميد غرفة المائدة وجد الطعام قد وصل بأطباقه المختومة ففضها وأكل وحده كعادته وهو غارق فى بحار الهواجس ، وكان القصر قد أنير كله كالعادة فانتقل الى غرفة المطالعة وأخذ فى مطالعة التقارير وهى كثيرة ، لكنه أصبح بعد أمر سلانيك وجمعيتها لا يهمه غير الوقوف على خبرها . فترك التقارير ولم يشعر بالنعاس لانه نام فى أثناء النهار ، فأراد أن يلهو بحضور التمثيل فى مسرحه الخاص

وكان له فى يلدز مسرح للتمثيل وعرض الصور المتحركة لا يحضره الا خاصته ، فبعث الى الفرقة انه عازم على الحضور فى المسرح تلك الليلة ، فاستعدوا للتمثيل وأشار بمن ينبغى أن يحضره من خاصته ، وفى جملتهم كبار رجال القصر . ولما ظهر السلطان فى مقصورته وقف الحضور وصاحوا « بادشاه مزجوق يشا » وعزفت الموسيقى سلامه الخاص . ثم دار التمثيل، واتفق ان الرواية التى مثلت تلك الليلة فيها حكاية امرأة خانت زوجها واغرت ابنها بقتله ، فهاجت هواجس السلطان . وتذكر حاله مع القادين ج وتشاءم من الرواية واتخذها دليلا على صدق تخوفه ، وبعث الى مدير الفرقة يعاتبه لأنه لم يسأله عن الرواية التى يريد تمثيلها ، وأمره أن يمثل رواية أخرى بطلها ملك يفوز على مكايديه كثيرا ما كان يحضرها ويسر من حوادثها . ولو لم يكن مدير تلك الفرقة اجنبيا لأمر بقتله ، لكنه كان يخاف تدخل الاجانب

وكان الحضور مشتغلين بأحاديثهم ، وعبد الحميد غارق فى هواجسه ، ولاحت منه التفاتة فرأى نادر اغا واقفا فى مكان من المسرح تعود ان يقف فيه اذا أراد مخاطبة السلطان فى امر . فأومأ اليه فجاءه بخفة حتى دخل المقصورة فأمره أن يجلس ، وسأله عن غرضه فقال : « انى أتمنى هناء مولاى . . . وقلت لعله يحتاج الى فى شيء »

قال : « قد أصبت ، انى فى حاجة اليك . . هل لقيت السلطانة الوالدة ؟ »

قال : « نعم يا مولاى ، وقصت على خبر غضب الذات الشاهانية »

قال : « أرأيت ما فعلته تلك الحاضنة ؟ انها لم تفعله عن اهمال كما توهمت الوالدة السلطانة لكنها تعمدته بالرشوة — اغراها بذلك اعدائى قبحهم الله » . قال ذلك وصر بأسنانه وهز رأسه

فقال نادر : « لم أفهم سبب غضب سيدى من حمل هذه القادين ، فافرض انها احدى الجوارى الكثيرات فى يلدز . . و . . »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « لا ألومك على استغرابك غضبى ، ولذلك فانا أسر اليك السبب برهانا على ثقتى بك واعتمادى عليك »

فأومأ نادر اغا شاكرا تلك النعمة ، فأشار السلطان ، أن يرخى ستارة المقصورة حتى يختفيا عن الجلوس ففعل ، ثم قال السلطان : « هلم بنا الى القصر » . ونهض فأسرع نادر بين يديه من باب سرى يؤدى الى القصر ، ولم يشعر بهما أحد من الجلوس

مشيا توا الى غرفة المطالعة وهى لا تزال مشعشعة بالانوار ، فقعد السلطان وأشار الى نادر أن يقعد فقعد . فتناول السلطان سيكارا اشعله ونفخ الدخان من فيه مع زفرة طويلة ، وكرر ذلك مرتين ، فامتلأت الغرفة

من الدخان ، وهو مطرق ، ونادر بين يديه جامد كالصنم ، ثم رفع السلطان بصره الى نادر وقال : « الا تعرف القادين ج من يوم مجيئها قصرنا ؟ »

قال : « لم أكن أعرف عنها شيئا كثيرا ، ولكنى كنت اسمع قزلر اغاسى (قيم الجوارى) يثنى على ذكائها وجمالها »

قال : « ألا تعرف أنها أرمنية الأصل ؟ »

قال : « يظهر ذلك من شكل انفها وملامح وجهها،واظن هذا هو السبب فى نفور مولاى البادشاه منها »

قال « لا . لا . ليس السبب فى ذلك انها أرمنية أو أننى أكره هذه الطائفة بعد ما كان من تمردهم ودسائسهم ولكن .. » . وعاد الى التدخين ونفض رماد السيكار فى منفضة بين يديه وهو مطرق كأنه يتردد فى هل يطلع نادر اغا على ذلك السر الذى لم يطلع عليه احدا بعد ؟ .. ونادر جالس متأدبا لا يبدى حراكا لئلا يشوش على السلطان مجارى أفكاره

ونهض السلطان عن الكرسى الطويل الذى كان جالسا عليه فقصد المكتبة ، وفتح الدرج واخرج منه تلك الورقة من محفظتها ، وقبض عليها بكفه وعاد الى مقعده والسيكار فى فيه وقال : « اسمع يا نادر اغا يقولون ان والدتى أرمنية الاصل ؟ »

قال : « نعم يا سيدى هكذا يقولون »

فقال السلطان : « فكان ينبغى أن أحب الأرمن من اجلها »

قال : « نعم أفندم »

فأخرج السيكار من فيه وتنهد وقال : « ولكننى أكرههم .. لانهم الد أعدائى »

قال : « انهم يستحقون الغضب لعقوقهم وتمردهم »

فقاطعه السلطان قائلا : «انى أكرههم وأخافهم من صباى. أتعلم لماذا ؟»

فتطاول نادر اغا بعنقه ولم يجب اكتفاء بالاصغاء . فقال السلطان : « كرهتهم من صباى لان المنجم الذى تنبأ لى بأن العرش سيفضى الى . . . هل تعرفه ؟ »

فبغت نادر اغا لانه لم يكن يتوقع سؤالا فقال : « خيرا أفندم »

فقال : «كنت فى صباى أحضر مجلس التنجيم والمندل بين يدى السلطانة الوالدة ، وهى يومئذ والدة عمى السلطان عبد العزيز . وكان عندها جماعة من مهرة المنجمين نبوءاتهم صادقة . ثم عرفت منجما اسمه الشيخ عبد الرحمن من أهل صيدا جاءنى به نجيب باشا احد رجال الدولة عند رجوعه من منفاه فى قبرص واطرى مهارته فى استطلاع الغيب . فطلبت اليه ان يكشف لى عن مستقبلى ، فذكر انى سأتولى العرش قريبا ، وأبقى عليه

مدة طويلة ، فاعترضت بوجود عمي عبد العزيز حيا ثم أخي مراد ، فأكد لي ان طالعي يدل يقينا علي ما قاله . لكنه أسر الى أنه يرى ظلا أسود يحوم حول سعدى ، وانه اذا كان على خوف فهو من عشيرة أمي ، وهو يعتقد أنها أرمنية . فلم تمض مدة طويلة حتى صدق المنجم وتوليت العرش وكافأت الرجل مكافأة حسنة ، ثم خدمنى خدمات جليلة فى شأن حفظ السلطنة . . . فلما رايته صدق فى بعض نبوءاته خفت أن يصدق فى الباقي ، ولذلك رأيتنى اطارد الأرمن وأحاذرهم »

وسكت ريثما سحب نفسا طويلا من السيكار وفى ملامح عينيه أنه لم يتم حديثه بعد ، وظل نادر اغا مصغيا . فعاد السلطان الى الكلام قائلا : « قد علمت سبب نقمتى على الأرمن اجمالا ، ولم تعلم بعد سبب حذرى من هذه المرأة على الخصوص . . فاعلم أنى شديد الاعجاب بهذه الجارية منذ عرفتها لذكائها وسداد رأيها ، وكثيرا ما كنت أقضى الساعات فى مجالستها حتى شغلتنى عن سواها لما لها من الاطلاع على مختلف الكتب . وهذا ما جعلنى اثق بها حتى كلفتها بمهمة ذات شأن فى أثناء دسائس الأرمن التى انتهت بذبحهم فى الاستانة منذ عشرة أعوام »

واعتدل السلطان فى مقعده وتنحنح ، وقد ابرقت عيناه سرورا بما كان من نجاحه فى تلك المذبحة وقال : « كنت أسمع يومئذ أن بعض رجالى المسلمين ممن قدمتهم ورقيتهم ووليتهم المناصب موالون لاولئك الكفار فى تمردهم على ، فلكى أتحقق ذلك بعثت بعض السرارى النبيهات الى بعضهم على سبيل الهدية ــ وهم طبعا يفرحون بالهدية السلطانية ولا يجسرون على ردها ، فاطلعنى أولئك الجوارى بعد ذلك على أسرار مهمة . وكانت القادين ج يومئذ لا تزال من جملة السرارى ؛ فكلفتها بكشف أسرار (ع.باشا) لانى كنت اظن انه يتظاهر بالاخلاص . وحرصا على استرجاعها الى ، وخوفا من أن تنحاز لأبناء جلدتها ، لأنها أرمنية ، وعدتها اذا قامت بتلك المهمة أن اجعلها قادين ، واشترطت عليها شروطا خاصة تجيز رجوعها الى قصرى وأنا واثق بصدقها . والحق يقال انها أخلصت الخدمة ، وعادت بأهم الاخبار عن الارمن أنفسهم أيضا . فجعلتها قادين ، وأمرت لها بدائرة خاصة تقيم فيها، وعندها الخازنة والباشكاتبة والمهر دار والاسفنجى، فضلا عن الخدمة والجوارى والخصيان مثل زميلاتها. ولم اميز واحدة منهن عنها فى شىء ولكن ... آه » . وتنهد

وكان نادر اغا كثير الشفقة على تلك القادين ، ويحب أن ينقذها من الخطر اذا استطاع فأصغى بكليته الى حديث السلطان فلم يجد فى كل ما سمعه شيئا يوجب الغضب . فلما رآه يتنهد توقع أن يسمع ما يكشف له القناع عن السبب الصحيح

اما السلطان فبعد أن تنهد رمى بقية سيكاره فى المنفضة وقال : « انك

لا تجد فى حديثى عن هذه المرأة حتى الساعة ما يوجب الغضب عليها ، ولا أنا أيضا . ولكننى رايت فى المنام بعد ذلك رجلا أرمنيا اسمه مهران بك كنت اراه فى مجلس أبى ، ولم أكن أحبه لانه كان يفضل اخوتى على ، وربما أوعز الى أبى بذلك ، وكنت الاحظ أن أبى يسايره وينتهرنى ، فنشأت على كره هذا الأرمنى . وقد مات من زمن طويل ولم يخطر ببالى ذكره الا فى تلك الليلة ، فرأيته فى المنام بهيئته التى أعرفه بها وبيده سيف يشير به اشارة التهديد ، فأجفلت واستيقظت وانتبهت الى الخطر الذى يحدق بى من الأرمن وقلت : (ينبغى أن احترس منهم) . وحدث ذات يوم أن أمرت الشيخ أن يعمل مندلا على ما فى ضميرى ، ولم اذكر له شيئا . فكتب لى نتيجة المندل فى هذه الورقة ، فحفظتها عندى من ذلك الحين ، وتيقظت لنفسى ، وأوصيت الحاضنة أن تتيقظ جيدا للقادبن ج . وقد علمت اليوم انها حامل » . قال ذلك ودفع الى نادر أغا الورقة ليقرأها

ففتحها واقترب من المصباح وقرأ فيها : « لا ينبغى للسلطان أن يطمئن لأهل أمه بعد أن طاردهم وذبحهم ، فان ما كتب فى صحائف الدهور كائن ، والخطر سيأتى من طفل أمه أرمنية وابوه السلطان »

فلما فرغ نادر اغا من تلاوة الورقة اقشعر بدنه لانه يعتقد فى التنجيم مثل سيده ، وأطرق مفكرا ، فابتدره السلطان قائلا : « الا ترانى معذورا ؟ الا توافق على رأيى ؟ هل يجوز الاغضاء عن تلك المرأة اذا صح انها حامل ؟ قل »

فقال : « ان سيدى البادشاه صاحب القول . لا شك أن بقاءها على هذه الصورة خطر . ولكن هل ثبت حملها ؟ »

قال : « يكفى الشك للتعجيل بالقتل . قد نكون مصيبين وقد نكون مخطئين ، فاذا صبرنا ووضعت غلاما أصبح التخلص منه شاقا وتحوم حولنا الظنون . أما الان فالانسان عرضة للمرض والموت فى كل ساعة . والاطباء يرسلون الانسان الى العالم الآخر بجرعة لا يشعر معها بألم ولا عذاب . فأحب ارسال هذه المخلوقة من هنا ، وان كنت آسفا لذلك . لان المسكينة كانت تحبنى »

فقال نادر أغا : « لا فضل لها فى حبها ، ومن الذى لايحب مولانا الخليفةظل الله على الارض ؟ ان المحافظة على سلامته فرض لا بد منه ، ولو قتل الالوف فى سبيله . وانا اول من يضحى نفسه فى هذا السبيل ــ أطال الله بقاء أمير المؤمنين »

قد نجل ذكاء عبد الحميد عن أن ينطلى عليه هذا الاطراء ، او يعتقد صدقه ، ولكن الانسان ضعيف ، وقد يكون قويا من كل جهة الا من جهة اغتراره بنفسه ، فيكون غاية فى الضعف . يقبل الاطراء ولو كان بعيد التصديق ، ولا سيما اذا كان لا يسمع غيره ، وكل الذين حوله يتسابقون

الى استنباط عبارات الاطراء تملقا له وتقربا منه ، فلا عجب اذا صدق عبد الحميد مثل قول نادر اغا ، ثم قال له : « انني أكل أمر هذه المرأة اليك »

وكان نادر مخلصا لمولاه وان لم يعرف كيف يؤكد اخلاصه . فلما وكل السلطان اليه هذا الامر اشار مطيعا . ثم تحفز السلطان للنهوض فى طلب الرقاد ، فنهض نادر اغا وخرج بعد أن قام بواجب الاحترام

اما عبد الحميد فهاجت اشجانه فى ذلك المساء على أثر ما تحدث به عن المنجمين والأرمن والقتل ، فزادت مخاوفه وغلب عليه ميله الى التستر والاختفاء . فأظهر أنه ذاهب للرقاد فى دار الحريم ، وبعد أن خلا الى نفسه طلب النوم فى غرفة المائدة على كرسي طويل فوقه ملاءة من الصوف ، يوجد مثله فى كل غرفة بالقصر لينام السلطان متى شاء دون أن يعرف أحد مقره

▭

نام عبد الحميد فى تلك الليلة نوما متقطعا كالعادة ، ولما أفاق فى الصباح هرع الى الحمام وقام ببعض الحركات الرياضية ، ثم لبس ثيابه العادية وانصرف الى غرفة المطالعة ، وكان القهوجى باشي قد وقف هناك وأعد الادوات اللازمة لطبخ القهوة بين يديه

فقعد عبد الحميد ينظر الى القهوجي باشي وهو يهيىء القهوة ، وتناول سيكارا فأشعله ، وشرب القهوة بلذة ، وفكره مشغول بما عساه ان يأتيه من الاخبار الجديدة فى ذلك اليوم

ثم انصرف القهوجى باشي ، وجاء الخبر بأن المائدة معدة للفطور ، فنهض عبد الحميد اليها ، وتناول فطورا خفيفا من البيض واللبن ، وهو يتوقع دخول الحاجب بمجيء البريد أو السر خفية

وما عتم أن سمع رنين جرس الباب الخارجي ، فعلم انه الحاجب جاء بخبر جديد ، فنهض ومشى الى غرفة الاستقبال التى يطالع فيها التقارير ، فلقيه الحاجب وألقى التحية المعتادة وقال : « أن الباشكاتب بالباب »

فعلم عبد الحميد ان الباشكاتب لا يبكر على هذه الصورة من عند نفسه الا لخبر مهم ، فخفق قلبه تطلعا الى ما عساه أن يكون وأشار الى الحاجب أن يأذن للباشكاتب بالدخول

وبعد هنيهة دخل الباشكاتب ، والسلطان قد جلس الى المنضدة التى يقرأ عليها التقارير ، فحيى وهو يبتسم دلالة على طيب الاخبار التى جاء بها . فاستبشر السلطان ، واذا بالباشكاتب يقدم له ظرفا عرف من شكله أنه تلغراف فتناوله بلهفة وفضه وقرأه ، فبانت الدهشة فى وجهه ، وأغرق

فى الضحك ، وفى عينيه ملامح الشماتة والاستهزاء ، ثم انتبه لوقوف الباشكاتب فأومأ اليه أن يقعد فقعد

فأعاد عبد الحميد نظره فى التلغراف كأنه يتفهم معناه ثم قال : « عفارم .. عفارم ناظم ! » . والتفت الى الباشكاتب وقال : « متى جاءك هذا التلغراف ؟ »

قال : « فى هذه الساعة يا مولاى »

فدفعه اليه وقال : « اقرأ »

فقرأ ما ترجمته : « قد تمكنا ببركة الذات الشاهانية المقدسة وهمة الجاسوس صائب بك من القبض على رامز أحد أعضاء الجمعية الجهنمية ومعه أوراق مهمة تكشف عن خيانات كثيرة . وننتظر الامر بما يلزم ، والامر لصاحب الامر .. (ناظم) .. »

فقال السلطان : « من هو صائب هذا ؟ »

قال : «هو من الجواسيس الذين أرسلهم السر خفية الى سلانيك ، وقد سمعته يثنى على اخلاصه واجتهاده »

فاعتدل السلطان فى مجلسه وقال : « كيف ترى هذا الرجل ، أعنى السر خفية ؟ . احب أن أعرف رايك فيه لانى لا اثق بسواك كما تعلم »

قال : « هو من العبيد المخلصين يا سيدى ، ونجاح رسوله فى هذه المرة من أكبر الأدلة على ذلك . وكيف لا يكون مخلصا والذات الشاهانية وضعت ثقتها فيه ؟ »

فأظهر السلطان انه اكتفى بهذه الاشارة ، واعتمد على فطنة السامع لفهم ما يقتضيه هذا السؤال من مراقبة حركات السر خفية وقال : «ماهو رايك ؟ هل نستقدم ذلك الخائن المقبوض عليه الى هنا ؟ »

قال : « الأمر لأمير المؤمنين . ولعله اذا جىء به الى هنا يطلعنا على اشياء جديدة .. لله ما أجهل هؤلاء الغلمان ! »

فصفق السلطان فجاء الحاجب فأمره باستدعاء السر خفية ، وقال للباشكاتب : « قل لناظم ان يبعث بالخائن واوراقه حالا »

فنهض الباشكاتب وأشار اشارة الطاعة وخرج ، وعاد عبد الحميد الى سيجاره فأشعله وهو يعيد نظره الى التلغراف ، حتى انبىء بمجىء السر خفية فأمر بدخوله . وكان السر خفية قد علم بمجىء التلغراف فى ذلك الصباح وبفحواه . فلما دخل على السلطان حيى تحية الاحترام واظهر انه لم يكن يعلم بذلك ، فقرأ أمارات السرور فى عينيى عبد الحميد فشاركه ابتهاجه ، فمد السلطان يده ودفع التلغراف اليه وهو يأمره بالجلوس ، فجلس وتناول التلغراف وهو يقول : « اذا كان هذا التلغراف من سلانيك ففيه خبر القبض على أحد الخونة »

فأظهر السلطان الاعجاب بتيقظه وقال : « نعم انه من سلانيك ، وقد قام بهذه المهمة أحد رجالك مع ناظم بك »

فتناول السر خفية التلغراف وقرأه وقال : « نعم يا سيدى ان صائب بك من العبيد المخلصين »

فقال السلطان : « ان الاخلاص منك . وقد توسمت فيك صدق المودة منذ عرفتك . ولولا ذلك لم اضع ثقتى فيك وأجعلك عينى الباصرة . انك معتمدى الوحيد فى مراقبة الخونة المارقين وهم كثيرون حتى فى هذا القصر ولذلك فأنا أخاطبك رأسا »

وتنحنح وسحب نفسا من السيكار وقال : « امرنا الباشكاتب أن يستقدم ذلك الخائن واوراقه . ألم نفعل حسنا ؟ »

فانشرح صدر السر خفية من ذلك الاطراء وقال : « كيف لا ؟ . انه متى جاء استطلعنا منه سر تلك الجمعية وبددناها »

فقال : « نعم ، قد آن الاقتصاص من سلانيك واهلها ، وكل آت قريب ! » . قال ذلك بلحن التهديد . ونهض فنهض السر خفية واستأذن فى الانصراف

فلما خلا السلطان الى نفسه مشى الى غرفة النجارة وأخذ يتلهى بصنع اطار من الآبنوس كان قد بدأ بصنعه منذ أيام ؛ وافكاره تائهة فيما سيكون من أمر رامز متى جاء ، وكيف يحتال فى كشف سر الجمعية ، فطرأ على ذهنه رأى ، فمشى الى موقف التليفون وخاطب الباشكاتب وسأله : « هل ارسلت التلغراف الى ناظم بك ؟ » . فقال : « نعم ارسلته »

قال : « ماذا قلت له فيه ؟ » . قال : « طلبت أن يرسل المقبوض عليه واوراقه حالا »

قال : « متى جاء هذا الخائن فأرسله الى السر خفية . فهمت ؟ »

قال : « سمعا وطاعة يا سيدى »

وعاد السلطان الى غرفة النجارة . وبعد هنيهة خطر له راى جديد فعاد الى التليفون وخاطب الباشكاتب ثانية قائلا : « اذا جاء الخائن فأرسله الى عزت وأرسل أوراقه الى » . فأجاب بالسمع والطاعة

وعاد السلطان الى عمله ، وقد غلب عليه التردد فى هذا الامر لشدة القلق ، ولاح له أن يكون هو أول من يرى رامزا ؛ فعاد الى التليفون للمرة الثالثة وقال للباشكاتب : « أرى أن ترسل الرجل واوراقه الى »

فقال : « سافعل يا سيدى » . ولم يستغرب الباشكاتب هذا التردد فقد تعوده

أما السلطان فبعد ان رجع الى عمله عاد الى التفكير فى الامر ، فراى أن

استقدام الرجل اليه رأسا لا يخلو من الخفة ، فعاد الى التليفــــون وأمر الباشكاتب اذا جاء المقبوض عليه أن يبقيه عنده ويظهر الاســـتخفاف به ، مكتفيا بارسال أوراقه اليه ، فأجاب مطيعا

قضى عبد الحميد بقية ذلك اليوم كأنه على الجمر من شدة قلقه فى انتظار رامز وأوراقه . وفى صباح اليوم التالى لم يعلم عبد الحميد كيف يستحم ويبدل ثيابه ولاكيف يتناول الفطور من قلق الانتظار،وظل يتنقل من غرفة الى غرفة وقد نسى القادين ج ونادر أغا وما كان من أمرهما

وبينما هو واقف أمام خزانة الأسلحة يتأمل ما فيها من المســـدسات والخناجر اذ سمع صرير الباب ، فمشى نحو قاعة الاستقبال وهو يتجـلد ويخفى لهفته ، فرأى الحاجب داخلا ومعــه محفظة كبيرة مختــومة ، علم السلطان حالا انها محفظــة رامز ، فأشار اليـــه أن يضعها على المنضـــدة ويستدعى السر خفية . ولم يكد يقعد حتى كان السر خفية أمامه ، فأومأ اليه ان يقعد،واخذ فى فض المحفظة واخراج ما فيها من الاوراق والظروف، وبينها خطابات ومراسلات بالتركيـــة والفرنســـاوية ، وبعضهـــا بالارقام السرية (الشفرة)

وقضيا ساعة استغرقا خلالها فى القراءة صامتين ، ثم قطع السلطان حبل السكوت بأن سعل ومد يده بورقة الى السر خفية وقال : « إقـــرأ هذا جيدا »

فقرأها وأعاد قراءتها ثم قال : « يظهر ان الملاعين ماضون فى ســـعيهم الشيطانى ، ويعملون على بث تلك الروح الخبيثة فى أنحاء مقدونية يجمعون بين عناصرها ومذاهبها »

فتكلف السلطان الابتسام وقال : « انهم يطلبون مستحيلا اذ يريدون ان يجمعوا النصارى والمسلمين ليتحدوا على ، خاب فألهم كيف يجمعون بين البلغارى والصربى والمكدونى والتركى والعربى وقد فرقنا بينهم ومزقنا جامعتهم تمزيقا ؟! »

وكان السر خفية فى أثناء ذلك يقلب الاوراق ، فوقع نظره على عريضة كبيرة باللغة الفرنسـية فأخذ يقرؤها والسلطان ينظر اليه ، فرأى وجهـــه يتغير ، فبادره قائلا : « ماذا تقرأ »

قال : « هذه ياسيدى صورة مذكرة مقدمة من تلك الجمعية الشيطانية الى وكلاء الدول ! »

فبغت السلطان وقال : «الى وكلاء الدول ؟ ! أبلغت قحتهم الى هـــذا الحد ؟ . ما شأن الدول فى هذا الأمر ؟. لا يجوز للدول أن تتعرض لأوامرى فى مملكتى . وهب أنها تستطيع ذلك فانها لا تفعل ، وما أظنها تعبأ بأقوال أولئك الاغرار المتشردين . ماذا يقولون لهم فى هذه المذكرة ؟ »

قال : « انهم يقولون كثيرا ، ولــكن ما الفائدة والدول لا تعبأ بأقوالهم

بعد أن رأت فشلهم مرارا ؟ وهذه جرائد فرنســا قد دافعت عن الذات الشاهانية وبينت للملأ أن الذين يســمون أنفسهم احـرارا قوم خوارج يباعون بدريهمات قليلة »

ثم جعل السر خفية يترجم له بعض الفقرات المهمة ، من ذلك قولهـم يخاطبون الدول : « ان المرض استولى على بلاد العرب أو طرابلس الغرب هو عين المرض المستولى على مقدونيا . فكل الاقوام المؤلفـة من الترك والعرب والالبانيين والجركس والكرد والارمن والفلاخ واليهود والصرب والروم والبلغار ممن يشملهم الحكم العثمانى يكابدون تلك المشاق ويئنون تحت تلك المظالم . فليس بمقدونيا ولا بأى ولاية من الولايات العثمانيـة نوعان من الناس أحدهما ممتاز والآخر مظلوم. كلنا بلا استثناء مشتركون فى الظلامة ؛ كلنا رازح تحت استبداد واحد »

وكان السر خفية يقرأ والسلطان مطـرق يتلهى بالتدخين ، وعروقه تنتفض من الغيظ . فلما اتى السر خفية على آخر الفقرة اظهر السلطان الاستخفاف وقال : « انهم سلكوا الآن مسلكا جديدا ، ولكنهم لا يفلحون. . كلهم رازحون تحت اســتبداد واحد ؟ ! سيبقون تحت تلك الاثقال الى ما شاء الله . أهكذا يفعل أبناء الدولة الصادقون ؟ تبــا لهم . ولكن الدواء عندى . ماذا ترى ؟ »

فقال : « أرى ما رآه أمير المؤمنين ، وقد تفضل الساعة فقال ان الجمع بين هذه العناصر مستحيل . ولا سيما ان كل عنصر يحقد على العناصر الاخرى و . . . . »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « تبا لهم ! كيف يجمعون هذه العناصر ؟بل كيف يجمعون بين المسلم والمسيحى واليهودى؟والمسلمون طوع ارادتى انا خليفة النبى (صلعم) ولا يفعلون غير ما اريده. . ليس فى مملكتى فقط بل فى سائر انحاء العالم ... كأنهم يحسبون المســلمين قد مرقوا من دينهم كما فعلوا هم » . وضحك وعاد الى التدخين ، وتناول سيكارا دفعه الى السر خفية . فتناوله وقبله ووضعه فى جيبه،وادرك من ذلك أن السلطان يستحث غيرته لينبه قريحته لاختراع حيلة لمقاومة تلك المساعى ، فأطرق هنيهة ثم قال : « أن رأى مولاى الباد شاه فوق كل رأى ، ولكنى أستأذنه فى كلمة »

قال : « قل . انى أحب آراءك واعتقد محبتك ؛ فأنت صديقى الوحيد لا أعول على سواك . ونحن شركاء فى الامر لأن ما يمس الدولة يمســك وما ينفعها ينفعك . هل نترك أولئك الاغرار يغلبوننــا بصياحهم وعندنا السلطة الدينية والسياسية وعندنا الاموال. . . ». قال ذلك بلحن التهديد

فسر السر خفية بذكر المال وقال : « انى أرى ان يكون الجزاء من جنس

العمل ، هم يحاربون الدولة بجمع العناصر ونحن نحاربهم بتفريقها . ولا وسيلة لذلك أنفع من الدين »

فقال السلطان وهو يحك ذقنه بسبابته : « أصبت . هكذا الأمر »

فقال : « هم يزعمون لاوربا انهم جميعا مظلومون ، ويسعون فى تفهيم الرعايا أن الوسيلة الوحيدة لخلاصهم أن يجتمع المسلم والمسيحى ، وسنبين للمسلمين أن هذه المساعى انما يراد بها ضياع دينهم وادخالهم فى زمرة الكفار . . . »

فقطع السلطان كلامه بقوله : « حسنا ، ان شعبى المؤمن شديد الغيرةعلى الاسلام . وازيد على ذلك ان السير على هذه الضلالاتوالاصغاء اليها يقود الى خروج نساء المسلمين حاسرات الوجوه كنساء الافرنج الكفار . وانا أعلم تمسك عامة المسلمين بالحجاب »

فأخذ السر خفية فى اطراء ذكاء السلطان ودهائه ، ثم قال: « الواقع أن هدف ذلك الاتحاد ليس سوى هذه النتيجة وهؤلاء الأغرار انفسهميقلدون المسيحيين فى كل حركاتهم ، فيعاقرون الخمر ويجالسون النساء ويفعلون كل محرم . . . لله در ذلك العبد المخلص الذى صور مدحت ورجاله تلك الصورة فانه قد أصاب كبد الحقيقة »

فلما سمع السلطان اسم مدحت اقشعر بدنه ولكنه تجاهل وقال : « هذه افضل السبل . . اكتب الى رجالك بهذا المعنى . . ولا حاجة بى الى أن أوصيك بأن يبقىهذا الحديثمكتوما عن كل انسان حتىالباشكاتب وعزت وغيرهما ، فانى أعول عليك فقط . انفق ما استطعت فىهذا السبيل . ومتى عرفنا أعضاء تلك الجمعية نجعل جزاءهم القتل ! » . قال ذلك وتناول ورقة بجانبه وكتب عليها بيده أمرا الى وزير المالية أن يدفع اليه عشرة آلاف ليرة عثمانية حالا ، ودفع الورقة اليه وقال : « وخوفا من تأخير الدفع سأعطيك الآن دفعة مستعجلة » . ومد يده الى جيبه واخرج ورقة مالية بألف ليرة انكليزية سلمه اياها ، فتناولها وقبلها وجعلها فى جيبه ، واشار اليه السلطان أن يجمع تلك الاوراق فى المحفظة حتى يعيد نظره فيها مرة أخرى ثم قال : « وصائب بك ينبغى أن نكافئه ، لا تنس ذلك »

فقال السر خفية : « هو مغمور بنعم امير المؤمنين ، ولكنه بعث الى تلغرافا بطلب رتبة لواحد من المخلصين ساعده فى كشف ذلك السر »

فقال السلطان : « حسنا . قل للباشكاتب يعرض اسمه فنكافئه على اخلاصه . اننا لا نبخس المخلصين الامناء حقهم »

وبينما هما فى ذلك اذ دخل الحاجب وقال : « ان الصدر الاعظم بالباب ،

وأدرك السلطان عبد الحميد ان الصدر الاعظم لم يأته راسا الا لأمر يهم الدولة وله علاقة بالدول الاخرى . ولهذا لم يستطع رده رغم انه مشغول بما كان فيه . فأشار الى السر خفية أن ينصرف ، وأذن للصدر الاعظم في الدخول ، فدخل وحيى ووقف حتى اشار السلطان اليه أن يجلس ، فجلس متأدبا ينتظر ان يفتح السلطان الخطاب ، اذ ليس من آداب مجالس الملوك أن يخاطبهم احد قبل أن يبدأوا هم الكلام . فتجلد السلطان كأنه لم يكن في شيء مما كان فيه وقال : « كيف الأحوال ؟ »

قال : « ان الاحوال حسنة ، لكنها تحتاج الى نظرة من مولاى البادشاه »

ففهم ان الصدر لا يقول ذلك الا لأمر مهم فقال : « ما وراءك ؟ »

فأخرج الصدر ورقة من جيبه ودفعها الى السلطان وقال : « هذه خلاصة ما جاءنا اليوم . ان الدول الاجنبية تستخف بنا ! »

فتناول السلطان الورقة فقراها واعادها الى المنضدة وقال : « أراك قد علقت على هذا الخبر اهمية كبرى »

قال : « كيف لا ياسيدى ، وهذا قيصر روسيا وملك انجلترا قد اجتمعا فى (روال) وقررا ما يؤدى الى ذهاب تركية أوربا من ايدينا ؟ »

فهز السلطان رأسه وتكلف الابتسام وقال : « كثيرا ما قرروا مثل هذه القرارات وقد عرقلت مساعيهم »

فامتعض الصدر من تعبير السلطان فى هذا الموقف بصيغة المفرد كأنه هو الفاعل لكل شيء ، ولم يهمه هذا بقدر ما اهمه استخفافه بالأمر فقال : « لا شك أن حكمة أمير المؤمنين تتغلب على كيد الكائدين ، ولكن ذلك يفتقر الى المال والخزانة تشكو الفراغ »

فلما سمع قوله أظهر الاستغراب وقال : « عجبا ! لقد عهدت اليك فى أمر الصدارة لتتلافى ما وقع فيه أسلافك . ان مملكتى الواسعة كثيرة الايراد . أين تذهب الاموال ؟ »

ولو أراد السلطان ان يفهم مصير الاموال لعلم أنها تذهب بسبب دخول رجاله وخاصته فى كل فروع الحكومة ، يتسلطون عليها ويستولون على الايراد أو يضيعونه بسوء ادارتهم ، ولا تستطيع الصدارة أن تعارضهم حتى لا يقع الغضب عليها ، على ان الصدر لم يجرؤ على التصريح بذلك ، فاكتفى بأن قال : « ان مملكة جلالة السلطان واسعة ، زادها الله سعة ، ولكن الايراد يذهب من سوء الأدارة و . . »

فقطع السلطان كلامه بصوت عال قائلا : « وأنت المسئول عن ذلك فهمت ؟ »

فعلم الصدر الأعظم الا فائدة من الكلام ، وعاد الى مسألة روال فقال :
« ولـكن مسألة روال ؟. الا يرى مولاى الاهتمام بشأنها ؟ »
فقال السلطان : « .. ما روال هذه ؟. دعنا منها الآن . ولا بد من تدبير النقود ، فانى فى حاجة اليها لمساعدتكم فى ادارة هذه الحكومة . ولولا سهرى وتعبى لذهبت دولتنا هباء منثورا . تقعون فى الخطأ فأضطر أنا الى اصلاحه وهذا يقتضى الاموال » . وحملق بعينيه وتشاغل بنفض رماد السيكار فى المنفضة وسكت
فتهيب الصدر ، وهو يعلم أن غضب السلطان لا يرد ، ولـكنه لم ير بدا من الرجوع الى الموضوع فقال : « ان مسألة روال ، لولا أحوال أخرى ، لم يكن لها أهمية »
قال : « أراك عدت الى الشكوى من قلة المال ! »
قال : « يا سيدى انى لا اطلب المال لغير الجند . ان معولنا على الجنود ، وهؤلاء ينبغى ان يستولوا على مرتباتهم و .. »
فنهض السلطان غاضبا وقال : « الجنود ؟! لقد انفقت مالى وراحتى فى سبيل ارضائهم وهم يتذمرون !. أعطوهم رواتبهم . من اين آتى بالمال ؟. ان ايرادات الحكومة فى ايديكم . وانا لم استول على راتبى منذ اشهر ، واذا احتجت الى المال فذلك لانفقه فى سبيل مصلحة الدولة ، وكثيرا ما أطلبه فلا أجد منه شيئا !. لا .. لا .. هذا شىء لا يحسن السكوت عليه بعد الآن . وقد طلبت الآن صرف مبلغ زهيـد لمصلحة الدولة فادفعوه لحامل أمرى حالا !
ورأى السلطان أنه بالغ فى التعنيف بغير حق ، فخفض صوته واظهر التلطف وقال : « ومع ذلك لا بد من اتخاذ التدابير لزيادة الايراد ، وانا أكلفك ان تضع لائحة فى هذا الشأن . لا ينبغى لنا ان نجعل للأجانب سبيلا الى انتقاد اعمالنا »
وكان الصدر مخلصا فى خدمة الدولة ، لـكنه لم يؤت من الجراة ما يكفى للتصريح بفكره ، ولو أوتيها ما عادت بفائدة !. فلمـا رأى غضب السلطان نهض ، ووقف مصغيا لـكلام السلطان ، حتى اذا فرغ منـه ، أشار مطيعا وانصرف وهو يقول فى سره : « لا يرجى اصلاح هذه الدولة وهذا الرجل سلطانها ! »
وما خلا عبد الحميد الى نفسه بعد انصراف الصدر حتى نهض واخذ يتمشى فى الحجرة ويتمتم قائلا : « تطلبون المال منى ؟. لـكن اذا أعطيتكم ما عندى فكيف ادافع عن حياتى ؟ كلكم تحتفظون بالمال لانفسكم ، الا يحق لى ان افعل مثلـكم ؟ »
ثم مشى مستطرقا من غرفة الى أخرى وهو يتلفت كأنه يحاذر ان يتبعه أحد ، حتى أتى غرفة صغيرة مهملة لا يدخلها أحد ، وضغط على

زر وراء بابها فانفتح فى الحائط المقابل باب دخل منه فى دهليز الى حجرة فيها خزانة من الحديد ، فأخرج من جيبه مفتاحا فتحها به ، واذا هناك اكداس من المال والذهب والجواهر ، فلمـا وقع بصره عليها أشرق وجهه وانبسطت أسرته ، وجعل يقلب ما هنالك من الاوراق المالية الكثيرة ويقول : « اتريدون ان اعطيكم هذه الاموال التى هى عدتى فى محاربتكم ولولاها لم تأتوا الى صاغرين ؟. كيف اعطيكم اياها ؟! وبماذا أغرى بعضكم ببعض حتى لا تجتمعوا على ؟. لولا هذا المال لكنتم انتم اصحاب السلطة . فأنتم تخادعوننى طمعا فى المال ، وانا اخادعكم ولا اعطيكم اياه .. انه سلاحى وبه حياتى ! »

قال ذلك وعاد فأغلق الخزانة وباب الحجرة وهو يقول : « ليس هذا كل مالى . وهل جننت لأضع كل ثروتى فى مكان واحـد وانا محاط باللصوص والجواسيس ؟ »

ومشى حتى اتى غرفة النجارة ففتح درجا فى مكان لا يخطر لأحد وجود المال فيه وأخرج منه ظرفا فيه مئات من الأوراق المالية ربما زادت قيمتها على نصف مليون جنيه وجعل يقلبها ويقول : « هذا من مالى ، ومثله كثير فى هذه الخبايا »

□

عاد السلطان عبد الحميد الى قاعة الاستقبال ورجع الى مطالعة أوراق رامز ، فرأى بينها كتبا من شيرين فيها مداعبة ومشاكاة . وبينما هو يقرؤها سبح فكره فجأة ولاحت أمامه صورة القادين ج فأجفل وتحولت هواجسه الى دار الحريم ، فأراد ان يشغل نفسه بقراءة جريدة فرنسية فيها مقالة لرامز ، وأخذ يحاول أن يتفهم فحواها ، لكن صورة القادين لم تبرح ذهنه ، فرمى الجريدة على المنضدة واسترخى فى مجلسه على المقعد وتنهد تنهدا طويلا ثم قال لنفسه : « ماذا جرى لتلك المرأة ؟ هل تحقق حملها ؟. ويلاه ! بماذا ينبغى ان اشتغل ؟! أبالخوارق المارقين ؟ أم بالنساء فى دار الحريم ؟ أم بمطالعـة التقارير من الجواسيس وعلى الجواسيس ؟! »

ثم مد يده الى صندوق السيجار وتناول سيجارا وأشعله وهو ينظر من خلال الدخان الى السـاعة التى أمامه . ثم نهض متجلدا وقال : « ولـكن هذا العمل لا يصعب على همة السلطان عبد الحميد ! لم ير عرش آل عثمان سلطانا عاملا مثلى .. انى قابض على مملـكتى ودولتى وقصرى بيد من حديد ! » . وصفق فجاء الحاجب فصاح به : « ادع نادر أغا » . ثم مشى فى الدهليز بين خزائن التقارير السرية نحو دار الحريم وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة . واذا بنادر اغا قادم عليه من الباب

السرى المؤدى من دار الحريم الى القصر ، فحيى ووقف ، ولو كان أبيض اللون لظهرت دلائل البغتة فى امتقاع لونه ، ولكنها ظهرت فى عينيه رغم ما كان يحاوله من التستر . وادرك عبد الحميد ذلك فقال وهو يتحول الى حجرة النجارة ليلهو بالحفر : « ماذا جرى ؟ هل ارسلتموها ؟ » . يريد هل قتلوا القادين ج طبقا لمشورته . فقال نادر اغا : « خيرا أفندم »

فحملق السلطان فيه وقال : « ماذا ؟ الم ترسلوها ؟! »

فقال : « لم نتحقق بعد انها حامل . . . »

فقطع عبد الحميد كلامه وقال : « ان الشك وحده كاف لتنفيذ اوامرى . ولولا ما تعلم من منزلتك عندى لـكنت . . » . وسكت والتهديد ظاهر فى نظراته وحركاته

فقال نادر آغا : « ليس فى الدنيا من هو اسبق من عبدكم الى تنفيذ أوامر الذات الشاهانية المقدسة ؟ ولـكننى كنت احسب أمير المؤمنين يفضل بقاءها ما لم يثبت حملها »

ولما لاحظ الانكار فى وجه السلطان قال : « على أنه ينبغى الا اكتم شيئا عن سيدى وولى نعمتى . . »

فقال : « قل ما عندك »

قال : « لا اثق أن الحاضنة المكلفة بمثل هذه المهام تفعل ذلك بأمانة وربما كنت مخطئا فى ظنى . . . » .

فقطع عبد الحميد كلامه قائلا : « فهمت مرادك ، صدقت . لان تلك الحاضنة تعرف لتلك القادين جميلا اسدته اليها بتوسطها لها عندى . ولـكن لابد من التنفيذ »

فاطرق ذلك الخصى هنيهة وهو ينظر الى خفة يد عبد الحميد فى الحفر على الآبنوس كأنه من أمهر النجارين ثم قال : « أعرف طبيبا يتزلف الى القصر منذ حين ، ويتوسل فى طلب منصب ، وهو لا يعرف تلك المرأة ، فلا يشفق ولا يرحم . وهو أيضا جائع يطلب رزقا ، واذا علم أن جلالة السلطان يكافئه على تنفيذ أمره بأن يجعله من اطباء القصر الملكى فعل ما نريد »

فضحك عبد الحميد وقال : « تعجبنى آراؤك يا ابيض الخصال . ان ترقية الصغار لتسهل الاستفادة من أماناتهم ، اذ يحرصون على استبقاء النعمة التى نالوها . . ولـكن هل يستطيع ذلك ؟ »

فقال نادر : « أنا أخاطبه واجعل ذلك شرطا لتقدمه ، وليتدبر الأمر واذا لم يحسن الأسلوب عددنا ذلك ذنبا حاسبناه عليه »

فتبسم عبد الحميد وأشار الى نادر بالانصراف ، ومكث هو يفكر فى رامز ويود لو يراه لعله يستطلع أسرار الجمعية منه ، ولـكنه رأى من الحكمة أن يتصبر

فى قصر مالطة

كان رامز قد وصل الى الاستانة فى ذلك الصباح بعد أن حمل اليها مع أوراقه من سلانيك ، فساروا به الى دائرة الباشكاتب ، فأرسل هذا أوراقه الى عبد الحميد واستبقاه عنده فى حجرة خاصة ليس فيها احد . فجلس رامز على مقعد هناك ، ولم يهمه ما يهدد حياته من الخطر بقدر اهتمامه بشيرين ، وتفكيره فى حالها بعده ، ولا سيما لعلمه بأن أباها لا شفقة فى قلبه عليها ، وان صائبا ربما طمع فى زواجها فوافقه على ذلك

وبعد قليل جاءه الباشكاتب بنفسه فحياه وتلطف فى خطابه وسأله عن سبب القبض عليه سؤال من لا يهمه الامر وانما يسأل على سبيل حب الاطلاع

فقال رامز : « لا اعلم السبب »

قال : « لعلك متهم باشتراكك فى احدى الجمعيات السرية ؟ »

قال : « نعم . ولكن هذا ليس ذنبا »

فقال الباشكاتب وهو يظهر الاستغراب : « اذا كنت تعترف باشتراكك فى تلك الجمعية فانك تعرض نفسك لخطر شديد ، لأن جلالة السلطان يشدد فى منع تلك الاجتماعات الضارة . وما كان أغناك عن الاعتراف بذلك . أقول هذا شفقة عليك اذ يظهر لى انك من أبناء النعم وأهل الذكاء ، ولكنك قليل الخبرة فربما أغراك بعض المتهوسين الذين يسمون أنفسهم الاتراك الاحرار فأدخلك فى الجمعية التى سموها جمعية الاتحاد والترقى . واظنك لو عرفت تاريخ هذه الجمعية لعدلت عنها . . ان بعض المحرومين من الوظائف اتخذوها وسيلة للارتزاق بالتهديد . وكان أمير المؤمنين يقطع السنة الصائحين أحيانا بالوظائف . وأكثرهم كانوا يبيعون أصواتهم بدريهمات قليلة ، فتكاثر ادعياء الحرية . وما أظنك من هؤلاء الادعياء فالظاهر انك حر الضمير تقول ماتعتقد . ولكنهم خدعوك حتى أوقعوك فى الخطر . ولو أن احدهم وقع فيه ورأى خلاصه فى أن يوقعك مكانه . ما تأخر عن ذلك ، وقد فعلوا ذلك مرارا . وعلى كل حال مالنا ولهؤلاء . أظنك لم تتناول الفطور بعد ؟ » . ومد يده الى جيبه فأخرج علبة سجائره ودفع اليه سيجارة وخرج تاركا أباه يفكر فيما سمعه لعله يبوح بسر الجمعية ليتخلص من الخطر

وبعد قليل جاءه بعض الحجاب يدعوه الى الطعام ، فنهض وتناول قليلا منه

وهو مستغرق فى هواجسه ، ولم تبرح شيرين فكره . ثم أتوه بالجرائد للمطالعة ، فأخذ يقرأ وهو لايفهم ما يقرؤه ، حتى اذا آن الغداء تناوله وقد مل الانتظار وأصبح شديد الرغبة فى معرفة ما يكون من أمره فى ذلك القصر الذى لا يدخله غريب الا تهيب من كثرة من فيه من رجال العسكرية وكلهم من أهل الرتب العالية ، ولا سيما الياوران ، ولهم دائرة خاصة يقال لها دائرة الياوران ، وفيهم فحول القواد وقروم الابطال ، وهم ثلاث طبقات : ياور ، وياور اكرم ، وياور فخرى . والياور الاكرم فوق سائر المراتب قدرا . وكانوا يمرون به وعليهم امارات الشرف والابهة رؤوسهم تكادتناطح السحاب

اما دائرة الباشكاتب نفسها ، فكانت تحتوى عداه على عشرين كاتبا من ذوى الرتب الرفيعة ، وهم من الشبان الناشئين على الاخلاق الجديدة ، وكلهم عيون على الباشكاتب كما انه عين عليهم . وقد باعد الشقاق بينهم ، فتراهم جميعا وقلوبهم شتى . والباشكاتب هو الواسطة بين السلطان والحكومة ، اى يبلغ ارادته واوامره الى الصدر الاعظم أو شيخ الاسلام

وعلى الباشكاتب ترد الاوراق الرسمية من الباب العالى ومن شيخ الاسلام والنظارات والولايات ، كما تصدر عنه الى الباب العالى وجميع الجهات . وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الارادات بتبليغ الامناء أو من يأمرهم السلطان بالتبليغ من موظفى الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يبعث بالارادات السنية بامضائه فى أوراق صغيرة الى الصدر الاعظم أو الى من تخصهم من الوكلاء والوزراء

وحين يتسلم الصدر الاعظم أو غيره تلك الارادات يكتب على كل منها تاريخ تسلمها باليوم والساعة والدقيقة . ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيه صورة ما يبلغ من الارادات وتاريخها ، ويوقع عليها . وهذه عادة جديدة دعا اليها ما تبين من تبليغ ارادات لا أصل لها

وكان الباشكاتب يعد ركنا عظيما من أركان الجواسيس فى السراى ، وهو يعرض فوق وظيفته الرسمية العليا أوراق الجواسيس التى ترد عليه منهم ، ويوليها النصيب الاوفر من عنايته واهتمامه ، فلا تلبث فى يده الا ريثما يتناولها فيبعث بها الى الحضرة الشاهانية فتذهب أسرع من منحدر السيل ، فيتلقى عنها الارادة فى الحال ، سواء أكانت للاستجواب أو الاستيضاح او الالتفات والاحسان . وهذا عدا الاوراق الرسمية أو أوراق ذوى الحاجات ، فان لها طريقا فى العرض لايتغير ، وربما تأخرت شهورا ، وربما ضاعت ولاينفع لبحث عنها

على أن السلطان كثيرا ما كان يدعو رئيس الجواسيس اليه رأسا متى شاء للنظر فى شأن يهمه كما فعل فى مسألة رامز ، وقد يأتيه الصدر

الأعظم راسا لأمر مهم خوفا من اشتغال الباشكاتب عن مطالبه المهمة بتلبية مطالب الجواسيس

□

ظل رامز فى الحجرة التى أفرد فيها الى المساء ، ثم جاءه الباشكاتب وسأله : أهو فى حاجة الى شيء ؟ وقال له : « انما أتيتك بنفسى لكى تستأنس بى لأني أشفقت عليك فهل رأيت أن تسمع نصيحتى قبل أن أسلمك الى المحققين ؟ »

فقال رامز وهو رابط الجأش : « لم أفهم مرادك يا سيدى »

فقال : « نصحت لك ان ترجع الى رشدك وتعدل عن الغرور وأنا أضمن لك السعادة . المطلوب أن تخبرنا عن أسماء الأشخاص الذين أغروك بالدخول في تلك الجمعية . ان الاطلاع على خبرهم لابد منه لان الذين سيأتون الينا منهم كثيرون ، ولكننى احببت أن يكون ذلك على يدك لتنال الجزاء الحسن »

فهز رامز رأسه هزة الانكار وقال : « ان مثلى لا يخاطب بمثل ذلك يا حضرة الباشكاتب ! » . وسكت

فأظهر الباشكاتب الامتعاض من جفاء عبارته ، وتحول عنه وهو يقول : « لقد أخطأ ظنى فيك »

وبعد قليل دخل على رامز ضابط أومأ اليه أن يتبعه ، فنهض وخرج معه فوجد بضعة رجال من الجند ببنادقهم ينتظرونه خارجا . فأشار اليه الضابط أن يتبعه فمشى فى اثره فى طريق واسع يؤدى الى حديقة يلدز الخارجية ، ولم يكن قد دخل يلدز من قبل . فرأى السور الضخم الفاصل بين الحديقتين كأنه سور مدينة حصينة ، وسار به الجند بجانب ذلك السور حتى عرجوا فى بعض الطرق بين الاشجار الغضة الى قصر على بابه الحراس بأسلحتهم . فأشار الضابط اليه ان يدخل فدخل . ودخل أحد الحراس معه فى دهليز القصر ، ثم أصعده فى سلم مغطى بالسجاد الى الطبقة العليا ، ومشى أمامه حتى أوصله الى غرفة وقال له : « تفضل يا سيدى امكث هنا »

فقال رامز : « ما هذا المكان ؟ أين أنا ؟ »

قال : « لا تخف . انك ضيفنا وهذا القصر قصر مالطة »

فلما سمع رامز الاسم اجفل وتهيب ، اذ تذكر أن مدحت باشا أبا الاحرار حبس فيه حينا فى أثناء محاكمته التى حكم عليه بعدها بالنفى الى الطائف حيث وافته منيته . فجمد فى مكانه حينا لشدة التأثر ، ثم انتبه لنفسه فتجلد ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب وأقبلت طلائع

الظلام فأسرع بعض الفراشين لانارة غرف القصر وفى مقدمتها تلك الغرفة ، وهى مفروشة بالبسط الثمينة وفيها مقاعد وكراسى ومنضدة ، وآنس رامز فى الخادم لطفا فقال له : « أليس فى هذا القصر أحد سواى ؟ »

فابتسم الحارس وأجاب : « لا أعلم يا سيدى »

فاقشعر بدنه من ذلك الجواب لأنه توقع أن تكون وراءه أسرار رهيبة ، اذ طالما سمع بيلدز وفظائعها ، لـكنه تجلد وقال : « أيطلب منى أن أبقى فى هذه الغرفة ؟ »

فأشار اليه أن يتبعه حتى دخل من باب فيها الى غرفة أخرى فيها سرير مفروش وقال : « هذا هو الفراش الذى ستنام عليه دولتكم » . وقد خاطبه بهذا اللقب لأن هذا القصر لا يسجن فيه الا كبار رجال الدولة

جلس رامز على المقعد وقد اسودت الدنيـا فى عينيه واستغرق فى مخاوفه ، وأخذ يردد فى ذهنه ما مر به فى ذينك اليومين من الأهوال ، وتحقق أنه مقتول ، فجاشت فى صدره عاطفة الاشفاق على شيرين وما يكون من أمرها اذا بلغها قتله . وتذكر محاسنة الباشكاتب له وما وعده به من الحسنى اذا باح بخبر الجمعية . وتذكر أناسـا فعلو ذلك ونالوا المكافأة بالأموال والرتب ، فحدثته نفسه لحظة أن يستبقى حياته اكراما لشيرين ، ثم غلبت عليه الأنفة وعزة النفس ، فصمم على الثبات

وبعد هنيهة سمع وقع اقدام ، واذا بالخادم يدعوه الى العشاء ، ولم تكن نفسه تشتهى الطعام ، لـكنه لم يشأ أن يظهر الضعف ، فمشى الى مائدة كبيرة جلس اليها وحده لتناول الطعام ، وهو يفكر فى حاله . ثم نهض الى نافذة تؤدى الى شرفة تطل على حدائق يلدز وقد خيم عليها الظلام ، ولـكنه رأى بعض الانوار عن بعد فى بعض قصور يلدز وما بعدها ، وجلس على كرسى ، وقد أحس بالوحدة وغلبت عليـه الوحشة ، وهو لا يعلم مصيره ، وهل يقتل فى تلك الليلة أم يسأل عن أسرار الجمعية قبل ذلك

ثم شعر ببرد خفيف فدخل الى غرفة الجلوس ، وما استقر به المقام حتى سمع حركة ووقع أقدام فأصغى ، وما عتم أن رأى رجلا دخـل عليه وقد التف ببرنس يغطى أثوابه وتلثم حتى لا يبدو من وجهه شىء غير عينيه . فأقبل عليه وتناول كرسيا وجلس أمامه ، فاقشعر بدن رامز وصبر ليرى ما يبدو منه

فبادره الملثم بالسلام وسماه باسمه فأجفل ، ولـكنه رد التحية ، فقال الرجل : « قد أتيتك بنصيحة أرجو أن تقبلها »

فهز رامز رأسه هزة الاستفهام كأنه يسأله : « ما هى ؟ »

قال : « أنت شاب فى مقتبل العمر فلا تلق بنفسك الى التهلـكة »

فاستغرب هذه النصيحة من رجل لم يسمع صوته من قبل فقال : « واى تهلكة تعنى ؟ »

قال : « أنا اعرفك واعرف احوالك ، فاذا لم تشفق على نفسك فأشفق على شيرين »

فلما سمع اسم خطيبته ارتعدت فرائصه وتولته الدهشة ، وجعل يتفرس فى عينى الرجل وفى قيافته فلم يذكز شيئا عنه ، وأرتج عليه فقال الرجل : « لا تستغرب اطلاعى على حقيقة حالك . ليس فى هذه القصور أحد يعرف ذلك سواى ، وقد علمت ما كان من عنادك اليوم عند الباشكاتب ، وعلمت أن ذلك يذهب بحياتك وحياة خطيبتك ، فلا تستسلم للجهل واعلم الا سبيل للنجاة من القتل سوى الاقرار . وانما يطلب منك أن تذكر اسماء الشبان الذين أغروك بالدخول فى تلك الجمعية ، فتنال العفو مع المكافأة وتكسب حياتك وحياة شيرين ! »

قال : « وما دخل تلك الفتاة فى هذا الامر ؟ »

قال : « انها شريكتك فى الجريمة ، وهى التى كانت تشجعك على كتابة تلك المقالات ضد الذات الشاهانية ! »

فتجلد رامز وأظهر الاستخفاف وقال : « لا دخل لها فى شىء من ذلك . من أنت ؟ »

قال : « لا يهمك من أنا ، ولكن صدق ما اقوله يدلك على اخلاصى فى نصحك . واذا كنت لا تصدق فانى أطلعك على ما كتبته بيدها تشاركك فى النقمة على جلالة السلطان ! »

وكان رامز يعلم أن بين أوراقه كثيرا من خطابات شيرين ولكنها لم تكن تذكر اسمها صريحا ، فاستغرب اطلاع ذلك الرجل على اسمها وعلى أنها خطيبته ، فرأى الانكار أولى فقال : « لا شريك لى فى هذه التهمة . دع الكلام عن النساء . أما أنا فمتى سئلت عن الجمعية فسأجيب بما أراه »

قال : « لا فائدة من الانكار ، وأنا لا اطلب الجواب منك الآن ، ولكنى نصحت لك ، حتى اذا سئلت لا يأخذك الغرور وتقتل نفسك وأعز الناس عندك .. هذه نصيحتي لك ، وان غدا لناظره قريب » . قال ذلك ووقف ثم غادر الغرفة وترك رامزا يتقلب على الجمر من الدهشة والاستغراب وبقى رامز وحده وقد أحاطت به الهواجس والمخاوف ، وتصور انه فى حلم ، وراح يسأل نفسه من يكون ذلك الطارق ؟ وكيف عرف شيرين ؟ وما الذى حمله على اسداء تلك النصيحة ؟ .. ثم غلب عليه التعب لفرط ما قاساه من القلق والاضطراب ، فنهض وأوى الى فراشه يطلب الرقاد

وقضى اليوم التالي وحده وهو في كل ساعة ينتظر أن يأتيه من يستجوبه ويستطلع خبر الجمعية منه ، ويهيىء الأجوبة ويستعد للثبات على رأيه والمحافظة على العهود التي أقسم على صيانتها . على أن سياسة القصر اقتضت التظاهر بعدم الاكتراث ، ولكنهم وسوسوا له على يد الباشكاتب وذلك المتستر ما يبعثه على الخوف ويحمله على الاقرار . ولعل القارىء أدرك أن ذلك الملثم انما هو رئيس الجواسيس نفسه ، وقد اطلع على علاقة رامز بشيرين من رسالة خاصة جاءته من صائب بك ، وعلم انه اذا استطاع كشف سر الجمعية نال جزاء عظيما

□

كان السلطان يسأل باهتمام عما تم في امر رامز ، فلما علم بأنه مصر على التكتم رأى أن يحتال لحمله على الاعتراف على يد عزت باشا ، وكان هذا بالغ الذكاء والدهاء ، مما حمل السلطان على الاعتماد عليه في اهم شئون السياسة ، وجعله مشيره الاول . وهو الذي انقذه من عواقب مذبحة الأرمن ، وكان ذلك من أكبر أسباب تقريبه والوثوق به . فرأى عبد الحميد أن يكلفه استجواب رامز وان كان ذلك خارجا عن دائرة عمله ، ولم يشأ أن يطلب ذلك منه رأسا ، بل تطرق اليه في أثناء حديثه معه بشأن اجتماع روال فبعث اليه ، فلما جاءه قال له : « أنت معتمدي في المهمات السياسية ، وقد جاءني الصدر بخبر اجتماع روال ، فهل علمت بذلك ؟ »

فقال عزت : « لا أكذب جلالة مولاي البادشاه ان هذا الخبر من الأهمية بمكان عظيم ، لكنني لا أتوقع تنفيذه لاختلاف الدول في المقاصد والأغراض وان كان ذلك لا يمنع سعينا في سبيل افساده »

قال : « هل دبرت لذلك شيئا ؟ اني شديد الثقة بك »

قال : « ان هذه الثقة التي لا أستحقها تجعلني عبدا رقا ابذل حياتي في مصلحة جلالة السلطان . وانا مفكر في امر سأعرضه بعد قليل »

وكان السلطان جالسا على كرسيه في قاعة الاستقبال والمحفظة لا تزال أمامه ، فلما سمع قول عزت تشاغل بازاحة المحفظة الى ما بين يديه وقال : « أنت تعلم يا عزت انك موضع ثقتي بل انت صديقي الوحيد ، ولا أنسى الخدمات الجزيلة التي قمت بها دون سواك من رجالي ، وقليل فيهم الصادق المخلص . ومع كثرة الحائمين حولي قل من اعول عليه ، بل أنا لا أعول على سواك . اتعلم ماذا اطلب اليك ؟ »

قال : « اني عبد مولاي وطوع ارادته وأفديه بروحي »

قال : « بارك الله فيك ، أنت تعلم ما نقاسيه من أولئك الغلمان الذين

يسمون انفسهم الأحرار ، وكثيرا ما انباتنى بضعفهم وعجزهم عن غير الصياح ؛ وقد كفانى منير باشا سفيرنا فى باريس مؤونة كثيرين منهم حتى اضمحل شأنهم وانحلت جمعيتهم . لكننى علمت بالامس انهم استأنفوا أعمالهم من سبيل آخر ، فألفوا جمعية فى سلانيك دخل فيها كثيرون من الضباط ؛ ولم يعرف الجواسيس احدا من هؤلاء لأنهم شديدو التكتم . غير أن ناظم بك قومندان مركز سلانيك تمكن بواسطه احد أعوانه من القبض على واحد منهم وحمله الينا مع اوراقه وهى هنا فى هده المحفظة . وقد قرأتها وفهمت منها أن أولئك الملاعين يعملون بدهاء وحذر . ويهمنى الآن معرفة الأعضاء العاملين فى هذه الجمعية . وهذا لا يمكن الاطلاع عليه الا من زميلهم هذا ، وهو مسجون فى قصر مالطة للآن . لكنه صعب المراس فلم أرد أن يستجوبه احد سواك وان لم أكلفك مثل هدا الأمر من قبل . وهدا يدلك على مبلغ ثقتى بك »

وكان عزت يصغى لكلام السلطان متحفزا للرد والذكاء ينبعث من عينيه ويخترق أقصى ضمير السلطان . فلما فرغ هذا من كلامه اجابه قائلا : « لم يكن أمر هذه الجمعية غريبا عن عبدكم ؛ ولا انا ساكت عنها ، وان كنت لم أذكر شيئا من امرها لمولاى البادشاه تجافيا عن التنويه بسهرى على الدولة ومقاومة المارقين الأغرار . ان هذه النهضة لم يكن منشؤها فى سلانيك فقط لكنها ظهرت فى الشام وكادت تشتعل نارها لو لم ابادر بقطع دابرها من هناك »

فنظر عبد الحميد الى عزت نظر الرضا والارتياح ، وابتسم وعيناه تتلألأن ببريق الارتياح والاعجاب ، حتى ليتوهم من يراه انه مثال الاخلاص والطيبة . وكثيرا ما خدع هذا المنظر جلساءه . بل ان عزت رغم طول اختباره وفرط دهائه كثيرا ما كانت هذه النظرات تؤثر فيه . وهم بأن يتم حديثه فقطع عليه عبد الحميد كلامه قائلا : « بورك فيك من صديق مخلص . قد علمت ذلك من السر خفية ، وهذا عهدى باخلاصك .. فالآن أرجو أن تكشف لنا امر جمعية سلانيك من هذا السجين »

فأشار عزت مطيعا وقال : « سيكون ذلك بفضل الله وتوفيق الحضرة الشاهانية المقدسة التى أفديها بنفسى وأهلى »

فنهض السلطان وهو يقول : « ان صدرى ينشرح كلما رأيتك ، وأشعر اذا كلفتك بأمر أنه مقضى »

فنهض عزت واستأذن فى الانصراف ومضى الى قصره وخاطره مشتغل بأمر رامز وكيف يحمله على الاقرار . وراح يعمل فكره فى هذا وهو شديد الرغبة فى انقاذ السلطان من تلك الجمعية الجديدة لينقذ نفسه أيضا لان ما يصيب السلطان من شرها يلحقه ايضا . كما انه كان مقتنعا بانه

يخدم الدولة أيضا بهذا المسعى ، لأن خشيته على حياته من نجاح الأحرار كانت تريه كل اعمالهم من قبيل الأخطاء والأخطار

وقضى ليلته يفكر ويدبر ، ثم بكر فى الصباح فبعث فى طلب رامز ، واوصى بأن يحمل اليه فى مركبته . وكان قصر عزت فى الطرف الآخر من يلدز

□

وكان رامز قد مل الانتظار ، ويئس من الوقوف على مصيره . فلما اصبح فى ذلك اليوم ، لبس ثيابه وجلس يتناول الفطور غارقا فى هواجسه، ثم سمع وقع حوافر الخيل قرب القصر ، فأجفل ونهض الى شرفة تطل على الطريق فرأى مركبة يجرها جوادان،ثم سمع وقع خطوات فى الدهليز، وما لبث أن دخل عليه الخادم مسرعا وقال له وهو يبتسم : «أفندم. تفضل الى المركبة »

فقال : « الى أين ؟ »

قال : « ان مولانا عزت باشا يدعوك اليه فى قصره . وهذه مركبته بالباب »

فاستغرب تلك الدعوة ، ولكنه تجلد ونزل الى الباب ، فرأى جاويشا واقفا بانتظاره ، وأومأ اليه ان يركب فركب ، وركب الجاويش بجانب السائق . وسارت المركبة الى قصر عزت

وبعد بضع دقائق رأى نفسه بباب ذلك القصر فاستقبله احد الحجاب بالاكرام ودعاه الى حجرة الاستقبال ، فدخل وهو يفتكر فيما عساه أن يترتب على تلك الدعوة ، فدعاه الحاجب الى الجلوس ، وبعد هنيهة أقبل عزت باشا يمشى الهوينى وبيده جريدة يطالع فيها بدون اكتراث . فوقف له رامز ولم يكن يعرفه من قبل . فرآه كهلا ليس بالطويل ولا القصير ، يلوح الذكاء والدهاء فى ملامح وجهه

ودخل عزت باشا عليه دون أن يرفع بصره عن الجريدة كأنه مستغرق فى المطالعة ، ثم رفع رأسه بغتة وحيى رامزا وأشار اليه ان يجلس ،وجلس أمامه وبينهما منضدة وقال : « أنت ضيفنا رامز أفندى ؟ »

قال : « نعم يا سيدى ولى الشرف بذلك »

فمد يده الى جيبه وأخرج سيجارة من علبة مرصعة وقدمها له وهو يقول : « ربما تستغرب مجيئك عندى بعد أن كنت تتوقع أن تؤخذ الى السر خفية أو غيره من الجواسيس . الا تعد ذلك اكراما خاصا ؟ »

فقال : « أجل يا سيدى ، وشكرا لكم »

قال : «لا ينبغى لى أن اكتمك السبب الذى حملنى على دعوتك الى هنا. اعلم أنى قد استأذنت جلالة البادشاه فى مخاطبتك شخصيا لما بلغنى من الخطر الذى يهددك ، وقد علمت أنهم لم يحسنوا التفاهم معك فى الأمر

المطلوب منك ، فأحببت أن آخذ هذا الأمر على عاتقي،وتعهدت بأن امحضك النصيحة . فهل أنت عارف قدر ذلك ؟ »

قال : « نعم أفندم »

فقال عزت وهو يعتدل فى مجلسه : « انا أحب أن أباحثك وابين لك وجه الصواب ، وأنت تختار الطريق الأصلح . لا أهددك بالقتل ، ولا حاجة بى الى أن أبين لك الخطر المحدق بك ، فأنت أعقل من ذلك . انما اسألك عن السبب الذى حملك على الدخول فى تلك الجمعية . الم تكن تعلم أنها من الجمعيات الضارة ؟ »

قال : « عفوا يا سيدى ، هل لى أن أفهم الضرر الذى تعنونه ؟ »

قال : « أحسنت الاستفهام. ان الضرر الذى أعنيه أن وجود هذه الجمعيات مضر بصالح الدولة »

قال : « كيف يكون ذلك وغرضها الأول انقاذ الدولة من الأضرار ؟ . هل تأذن لى فى أن أخاطبك بحرية ؟ »

قال : « بكل سرور . تفضل قل كل ما تريده ولا تخش شيئا . انك تخاطب رجلا عركه الدهر ، ولم يمر بذهنك أو أذهان أقرانك خاطر لم يخطر له . وقد تبصرت فى هذا الامر مليا ، ولو وجدت فيه نفعا لم أرجع عنه »

فاستبشر رامز بهذا التصريح وقال : « هل سبق لسيدى الباشا أن فكر فى الخلل المتمكن من جسم الدولة؟ »

فأشار برأسه وعينيه أن « نعم »

فقال : « اذن ، قد علم سيدى ان هذا الخلل سببه سوء الادارة ؟ »

قال : « لا أنكر ذلك . ان الحكومة تحتاج الى اصلاح . لا شك فى ذلك »

قال : « هذا هو الأمر الذى نحن ساعون فيه »

فابتسم عزت وقال : « هذا هو وجه الخطأ . نحن متفقون فى تشخيص الداء ولكنا مختلفون فى وصف الدواء »

قال : « أشكرك يا سيدى لاطلاق حرية الكلام لى . انى أستغرب أن يكون هناك وجه للاختلاف فى العلاج . فما دامت أحوال الدولة مختلة بسبب سوء ادارة الحكومة الحاضرة ، فابدالها هو الدواء الوحيد »

قال : « أظنك تعنى أن تقلب الحكومة من نظام الاستبداد الى الدستور ؟ »

فقال : « نعم ، وهل ثمة طريق آخر ؟ »

قال : « هذا كلام جميل ولكنه أشبه بالخيال الشعري منه بالرأى السياسى . هل تظن الأمة العثمانية مستعدة للدستور ؟ » . قال : « نعم »

فسعل عزت باشا وأخذ يمسح فمه بمنديله ، ثم قال : « لو كانت مستعدة له ما ضيعته بعد أن نالته . أؤكد لك أن الذات الشاهانية منحت رعاياها

الدستور وهى تود من صميم القلب أن يكونوا على استعداد له . ولكن ظهر بعدئذ أنه كان السبب فى الخراب . ولولا حكمة مولانا السلطان لما انقذت الدولة من الاعوجاج الذى ظهر من النواب والانقسامات التى آلت الى زيادة طمع الدول فينا . ان الشعوب الشرقية على العموم ، والشعب العثمانى على الخصوص ، لا يصلح للحكم الدستورى »

فابتأنس رامز بذلك الكلام وقال: «لا انكر ياسيدي ان الحكم الاستبدادي اذا تولاه رجل عاقل عادل كان أسرع نتيجة فى الاصلاح ولكن . . . »

وسكت مكتفيا بفطنة السامع

فبادره عزت قائلا : « اسمح لى أن أقول بحرية تامة ان السلطان عبد الحميد مظلوم . انه أشد غيرة على سلامة الدولة من أى واحد منا ، لأن فى سلامتها سلامته وتأييد سيادته ، وهو لم يعدل عن الحكم الدستوري الا غيرة على الدولة وصيانة لها من مطامع الدول التى أحدقت بها من كل ناحية ، وقد استطاع بدهائه وذكائه وسهره ان يحافظ عليها . ولو لم يتدارك الامر بنفسه لانحلت وتقاسمتها الدول . انا أعلم الناس بالحقيقة صدقنى »

فأطرق رامز عند سماع ذلك ، وكاد يقتنع بأنه مخطىء لو لم يستدرك الأمر فقال : « يا للعجب ! كيف تقول هذا وليس فى الدنيا رجل واحد يوافقك عليه؟ لقد اجمع الناس قاطبة من عثمانيين وغيرهم على أن الخلل المستحوذ على الدولة سببه سوء الادارة الحاضرة ، ولا سيما لأنها فى قبضة القصر واهله . سامحنى على هذا التصريح »

فضحك عزت ملء فيه وقال : « هذا هو موضع الخلاف ، ومنشأ المتاعب . ان سبب ذلك فى الواقع هو أننا نسىء الظن بسلطاننا ، بينما الأجانب يسعون فى توسيع الخرق وتفريق قلوبنا . . هذه هى الحقيقة يا بنى ، فسبب الاختلال ليس رجال القصر ، بل الشبان الخوارج الذين يسمون انفسهم الأحرار . . أنهم يطنطنون ويصيحون رجاء أن يعمد جلالة السلطان الى اسكاتهم بالمناصب أو المال . ولا أنكر أن بينهم اناسا يعملون باخلاص ، ولعلك واحد من اولئك المخلصين ، ولكن الباعث الاول لحركتهم هو ما ذكرته لك . وقد مضى عليهم ثلاثون سنة ظهروا فى اثنائها بمظاهر مختلفة انتهت دائما بما يثبت قولى . يظهر انك حديث العهد فى هذا الأمر، وقد اندفعت فى تيار الأفكار الافرنجية التى يبثها الاعداء فى رعايا الدولة باسم الدستور أو الحرية ، أن لكل امة حالا غير حال الأمم الاخرى . ولو أنهم تركونا وشأننا لكنا فى خير . انهم ليسوا أكثر غيرة على دولتنا من جلالة البادشاه ، فهو ما فتىء منذ اخذ على عاتقه اصلاح الدولة ينشىء المدارس العالية لتخريج الشبان الجديرين بتولى مناصب الحكومة . ولكن المتخرجين أصبحوا أكثر من المناصب الموجودة ، وهؤلاء الغاضبون الطاعنون فى الحكومة هم الذين فاتتهم المناصب ، وقد اتخذوا ذلك سبيلا الى المال، لأن جلالة السلطان كان يقبل النادمين منهم ويحسن معاملتهم .

ومن هنا تكاثر الشاكون وتفننوا فى الأسباب والذرائع ، وقلدوا الافرنج فى جمعياتهم السرية. فالجمعية التى ألفت اخيرا فى سلانيك ليست الاولى من نوعها. وأوكد لك انه لا تمضى برهة وجيزة حتى يأتينا العقلاء من اعضائها مستغفرين طالبين رضا الذات الشاهانية . فأرى أن تكون أنت أعقلهم وانا اضمن لك حياتك ، وكل ما تريده ، وغاية ما يطلب منك أن تدلى الى جلالة السلطان بأسماء القائمين بهذا العمل »

وكان رامز يسمع هذا الكلام وهو مطرق يفكر ، فظنه عزت باشا قد اقتنع ولا يلبث أن يوافقه فقال له : « من هم أولئك المؤسسون للجمعية اظنهم بعض المتفرنجين الذين كانوا فى باريس أو جنيف ؟ »

فانتبه رامز لنفسه وقال : « ليس فى هذه الجمعية فرق بين مؤسس وغير مؤسس ، وأؤكد لك أن الخيانات التى بدت من بعض الأحرار فى الماضى لن تتكرر ، لأن الامة تعلمت كيف تطلب حقوقها، فاذا كنت من محبى الاصلاح حقيقة فهذا وقت العمل »

فهز عزت رأسه استخفافا وقال وهو يضحك : «يظهر ان الغرور متمكن من نفسك ، وقد استهواك ما يطنطنون به من الالفاظ الضخمة كالحرية والدستور ونحوهما . وأتأسف لأن نصيحتى ذهبت عبثا ، فاختر لنفسك ما يحلو ، وقد فعلت ما على . وسوف تعترف بالواقع مكرها عند ماتذوق العذاب » . قال ذلك وتحرك من مجلسه وهو يخرج علبة السجائر. ثم وقف وهو يظهر العتب او الغضب

ما رامز فظل جالسا مطرقا وعينه على غطاء المنضدة التى امامه ، وقد استغرق فى أفكاره . فتوسم عزت باشا قرب انصياعه ، وتشاغل باشعال السيكارة ، ثم رأى الخادم داخلا بالقهوة فقعد وأشار الى رامز أن يتناول الفنجان ففعل ، ثم تناول عزت فنجانه وهو يراقب حركات رامز ، فرأى الارتباك ظاهرا فى محياه ، فاستأنف الكلام قائلا : « قد أغضيت عما سمعته من حديثك لانى أحسبك قلته قبل اعمال الفكر . وانصح لك يا بنى بأن تفكر قبل الجواب ثانية . تأمل فيما يهددك من الخطر على حياتك اذا اصررت على التكتم » . وسكت وهو يلاحظ حركات رامز فرأى حيرته ظاهرة فى حركة يده وهو يدنى الفنجان من فيه وينظر الى ما بين يديه نظر المفكر

فقدم له سيكارة وقال : « لا ألومك على ما بدا من سوء ظنك بجلالة السلطان واهل القصر ، لانك لا تسمع أخبارهم الا من أعدائهم،ولو مكثت هنا حينا وتعرفت اليهم لتحققت انكم مخطئون . ولعلك تعود الى رشدك وتصدق الخدمة وترى صدق قولى »

وكان رامز قد فرغ من شرب القهوة ، فوضع الفنجان على المنضدة ونظر الى عزت باشا ، وعيناه تبرقان وقال : « اذا لم يكن بد من ان أقول شيئا آخر فانى لا أقوله الا للسلطان نفسه »

فبش له وقال : « انت مخير فى ذلك ، وانا اقدمك لجلالته واوصيه بك ». قال ذلك وقد سر لنجاح مهمته

ثم وقف رامز واستأذن فى الانصراف فأذن له ؛ وأشار الى الحراس أن يوصلوه الى قصر مالطة ، وودعه وهو يبش له

فمشى رامز بقدم ثابتة وقد زال ارتباكه شأن من يتردد فى أمر ثم يستقر على رأى ، وفيما هو مار بباب يلدز الخارجي وقع بصره على مركبة مغلقة داخلة منه ، ولمح فيها امرأة تشبه شيرين ، فاقشعر بدنه ،وخفق قلبه بشدة ، وبقي بصره عالقا بالمركبة حتى غابت عنه ، فوقف ذاهلا وظل كذلك حتى نبهه أحد الحراس بطرف البندقية فانتبه ومشى معللا نفسه بانه واهم فيما رآه ، وأن قلقه على شيرين أراه طيفها فهاجت أشجانه ، وما دخل قصر مالطة حتى عاد الى هواجسه

□

قضى رامز بقية ذلك اليوم وهو يفكر فيما يقوله للسلطان ، وطال انتظاره وهو لا يعلم الوقت الذى سيحدده السلطان موعدا لمقابلته ،وتهيب من تلك المقابلة ، لكنه تجلد وتشجع ، وما زال يجول فى ذلك القصر منفردا لا يرى احدا . وصورة شيرين لا تبرح ذهنه . ولما انقضى النهار ومالت الشمس الى المغيب تكاثفت هواجسه وتراكمت ، فقعد فى الشرفة المطلة على البوسفور واستغرق فى أفكاره ، وتصور شيرين بين يديه تعاتبه أو تشكو اليه ، فتذكر ما شاهده فى ذلك الصباح وقال فى نفسه : « هل يمكن أن تكون شيرين هنا ؟ لكن ما الذى جاء بها ؟ . . لا . . لا ؟ انما رايت خيالها»

وفيما هو غارق فى هذه التأملات جاء الخادم لانارة المصابيح كالعادة فلم يلتفت اليه ، ثم رآه آتيا نحوه الى الشرفة فاستغرب قدومه وتجاهل ، فاذا هو يخاطبه قائلا : « تفضل أفندم اذا شئت الى حجرة الاستقبال »

فأجفل ووقف وسار نحو القاعة ، وقبل وصوله اليها سمع سعالا اضطربت لهجوارحه وكاد الدم يجمد فى عروقه لانه يشبه سعال طهماز ، واستبعد ان يكون هناك ، لكنه تمنى أن يكون هو نفسه لعله يستطلع منه خبر شيرين . ولما وصل الى الحجرة راى طهماز يتمشى بقرب بابها وعليه ثوب مزركش بالقصب يلبسه أصحاب الرتبة الثانية،وقد تقاعس وتطاول وأصلح من شأنه وفتل شاربيه حتى كاد رامز لا يعرفه ، لكنه ما لبث أن استأنس برؤيته على رغم ثقل روحه عليه ، فتقدم نحوه وحياه ، فرد طهماز التحية وهو يبتسم ابتسام الاعجاب ، ومشى معه الى صدر القاعة ودعاه الى الجلوس،وجلس وهو يقول : «أهكذا تصنع بنفسك يا رامز ؟. ألم يكن الاولى بك أن تسمع نصيحتى ؟ »



وقال الخادم لرامز : تفضل أفندم اذا شئت الى حجرة الاستقبال »

فاستثقل رامز ذلك العتاب وان لم يستغربه من طهماز فقال : « ما لنا ولما مضى يا عماه ؟ . اين هى شيرين الآن ؟ »
فقال : « شيرين ؟ شيرين المجنونة ؟ من يعلم أين هى ؟ »
فقال : « كيف لا تعرفون أين هى ؟ »
قال : « الذى نعرفه أنها فرت من سلانيك مع الخادم خوفا من الوقوع فيما وقعت فيه أنت ، فذهبت الى مناستير أو الى رسنه لأن لها هناك بعض الرفاق من أمثالها وأمثالك أهل الطيش الذين يقلدون النصارى فى أفكارهم ، وسوف ينالهم ما نالك » .. قال ذلك وهو يفتل شاربيه وأخذ فى اصلاح القصب على كمه وطوقه كأنه يلفت نظر رامز الى الرتبة التى نالها
فأعمل رامز فكره فيما سمعه وأغضى عما تخلل الحديث من سوء التعبير وفساد الذوق ، لأن الأمر المهم عنده أن يعرف أين هى شيرين ، فغلب على ذهنه صحة ذلك القول لعلمه بالصداقة المتمكنة بينها وبين صديقة لها فى مناستير ، وهى خطيبة صديقه نيازى بك ، لكنه لم يفهم ذلك السبب الذى أوجب فرارها ، فتجلد وأعاد السؤال على طهماز قائلا : « لا تغضب يا عماه اذا سألتك سؤالا ثانيا . ما سبب فرار شيرين ؟ »
فضحك طهماز وقال : « سبب فرارها أنت ! . الا تعلم أنك أوقعتنا جميعا تحت غضب الذات الشاهانية . ولولا صديقنا صائب بك لكنا تحت طائلة القصاص مثلك . ولكنه بلغ صدق عبوديتنا الى مولانا السلطان فكافأنا بالانعامات والرتب . وأما تلك الجاهلة الحمقاء فأبت الا العناد ، وقد وقفوا على أوراق لها بين أوراقك تشترك فيها معك ومع أصحابك فى المفاسد ، وقد علمت هى بذلك لكنها بدلا من الاعتذار اصرت على عنادها وخافت القبض عليها ففرت »
فقال : « وأين أمها ؟ »
قال : « ذهبت الى مناستير لتفقدها هناك ، وهى لا تقل طيشا عنها . مع أنى كثيرا ما أنذرتها بهذه العاقبة منذ رأيت خروجك على جلالة الخليفة أمير المؤمنين . ولولا علاقتى السابقة بالمرحوم ابيك لم التفت اليك ، ولكن قلبى طيب ، وقد وصلت الى يلدز فى هذا الصباح ، ولقيت كل اكرام واحتفاء من سعادة الباشكاتب والسر خفية وسائر الباشوات والياوران ، وانعم على بالرتبة ، وعلمت منهم انك فى هذا القصر فأستأذنت فى مقابلتك لعلى أستطيع اقناعك لترجع عن عنادك . وقد أكد لى صائب بك انك اذا بحت بأسماء مؤسسى هذه الجمعية يعفى عنك وتنال الجوائز والهدايا ، كما يعفى أيضا عن شيرين . وقد نصحت لك مرارا فلم تنتصح ، حتى وقعت فى شر أعمالك ، وأرجو أن تكون قد عدت الى رشدك ، واقتنعت باتباع النصيحة »
وكان لكلام طهماز تأثير شديد فى قلب رامز لأسباب كثيرة أهمها انه ذكر

أباه ملقبا اياه بالمرحوم ، وكان لا يعرف احي هو ام ميت ؟ . كما أنه زادفى أسباب قلقه بما رواه له عن شيرين . وقد اغضى مرغما عما تخلل ذلك من الكلام البارد والدعوى الفارغة ،ورأى انه لم يعد يتوقع فائدة من حديث طهماز فأحب التخلص منه وقال : « سأتبع نصيحتك هذه المرة ، ولذلك اعتزمت ان أقول الحقيقة ، لكننى اشترطت ألا اقولها الا للسلطان نفسه . وأنا فى انتظار الموعد للمثول بين يديه »

فضحك طهماز وهز رأسه وهو يقول : « أحسنت يا رامز احسنت . وستقابل جلالة السلطان فلا تخف عليه شيئا،وارجو أن تذكرنى بين يديه وتبين لجلالته انى كثيرا ما كنت أنصح لك . لا شك انك ستنال العفو . هكذا اكد لى صائب بك ، وستنال الرتب والاموال » . قال ذلك ووقف فودعه وخرج يتهادى فى مشيته ، ورامز ينظر اليه ويعجب من كبر جثته وصغر نفسه وقلة عقله .

□

عاد السلطان عبد الحميد بعد خروج عزت من عنده الى التفكير فيما يحدق به من الاخطار ، ولم يكن لديه شك فى نجاح عزت فى المهمة التى عهد اليه فيها . فقضى بقية اليوم فى مطالعة التقارير . وبعد العشاء جلس يطالع فى كتاب لمكيافلى كعادته . واذا بالحاجب يدخل مستأذنا للباشكاتب، فعلم أن مجيئه فى تلك الساعة لأمر مهم ، واذن له ، فدخل وقدم له ظرفا علم من هيئته أنه تلغراف ، ففضه وقراه فاذا هو من الاستانة،وليس فيه الا كلمات قلائل هى «الى جلالة البادشاه.عندى أمورتهم الذات الشاهانية، أطلب الاذن فى المثول لعرضها ... شيرين »

فأعاد عبد الحميد قراءة التلغراف مرارا ، ثم نظر الى الباشكاتب قائلا : « من شيرين هذه . أتعرفها ؟ »

قال : « لا أعرفها يا مولاى »

فقال : « الى بالسر خفية ، وامض أنت وأجب عن هذا التلغراف بأن تأتى صاحبته حالا »

فأشار مطيعا وخرج ، وبعد قليل أتى السر خفية فدفع السلطان التلغراف اليه ، فحالما قرأه ابتسم وقال : « ان مجىء هذه الفتاة فوز عظيم يا مولاى »

قال : « ومن هى ؟ »

قال : « هى خطيبة الشاب رامز الذى قبض عليه فى سلانيك ، وهو يتفانى فى مرضاتها »

فانبسطت أسرة عبد الحميد وهز رأسه ولسان حاله يقول : « قد ظفرنا بالمطلوب ، ولعل الفتاة خافت على خطيبها اذا ظل على عناده فأتتنا

لتبوح بالسر وتنجيه » . ونظر الى السر خفية وقد استخفه الظفر وقال: « ماذا ترى ؟ »

قال : « الراي لمولاى ، واظنها ستطلعنا على ما يكره رامز ، طمعا فى نجاته،واذا لم تفعل فان اباها عندنا ، وهو من أصدق عبيد جلالةالسلطان، وقد نال المكافاة بالرتبة أمس على يد عبدكم صائب »

قال : « اهى بنت طهماز بك ؟ » . قال : « نعم يا مولاى »

فحدق السلطان فيما بين يديه من الأوراق وقال : « ينبغى كتمان أمر هذه الفتاة عن كل انسان حتى عن خطيبها وأبيها » . ثم طلب الباشكاتب بالتليفون وقال له : « ينبغى أن يكون مجيء هذه الفتاة سرا . ادخلها القصر وسلمها الى نادر اغا وأوصه بكتمان أمرها عن كل أحد . . فهمت ؟ »

فأجاب : « نعم أفندم » . ثم انصرف

وبات السلطان تلك الليلة وأفكاره تتقاذفه ، والأمل ملء صدره فى أن يفوز عزت بكشف أمر الجمعية

وجاءه الباشكاتب فى الصباح وانبأه بأن شيرين اتت وسلمها الى نادر اغا، فبعث الى نادر أغا وأوصاه بكتمان أمرها . ثم جاء عزت باشا واخبره بما ذكره رامز من انه لا يبوح بسره الا لجلالة السلطان،فازداد السلطان اقتناعا بالفوز وقال : « ليأتنى فى صباح الغد »

وكان رامز قد بات ليلته يفكر فى شيرين ، واكبر ظنه انها فرت الى مناستير . وفى الصباح جاءه ضابط البانى يدعوه الى القصر الصغير لمقابلة السلطان ، فتهيب الامر لأول وهلة ، ولكنه تجلد ومشى بين يدى الحرس حتى أتى باب القصر فاستقبل أحد الياوران ودخل به الى غرفة حيث فتش اثوابه للتحقق من خلوها من الأسلحة ، ثم استأذن له فدخل راسا بدون واسطة صاحب التشريفات كما أمر السلطان . ومشى متأدبا حتى وقف بباب القاعة التى يقرأ السلطان بها التقارير ، والقى التحيةووقف ، فأشار اليه السلطان أن يتقدم ، وأومأ الى كرسى وأمره بالقعود فقعد ، وهو لم يتعود الآداب المتبعة فى مثل تلك المقابلات ، ولم يهتم السلطان بذلك لانصراف فكره الى استطلاع سر الجمعية ، فصبر هنيهة ثم قال : « انبأنا كاتبنا عزت باشا أنك الهمت الصواب ورجعت الى الطاعة والولاء ، وقد سرنا ذلك ، ولم نر بأسا من مثولك بين يدينا فاننا ينشرح صدرنا بمشاهدة خدمة الدولة الصادقين ، وسنتحقق ذلك متى برهنت على اخلاصك لعرشنا »

فأشار رامز بالتمنى ولم يجب ، ولكنه غلب عليه التأثر . ولو كنت الى جانبه لسمعت دقات قلبه لفرط ما خاطره من التهيب لاقدامه على أمر لم يقدم عليه سواه . ولكنه تجلد وتماسك وبلع ريقه استعدادا للجواب،فبادره عبد الحميد قائلا : « تكلم يا بنى » . أخبرنا عن أولئك المفسدين الذين اغروك بالدخول فى تلك الجمعية ، يظهرون أنهم يريدون الاصلاح وهم انما يسعون فى

الخراب ويقفون عثرة في طريق العمل ويغررون بالشبان العقلاء فيصرفونهم عن خدمة الدولة الى أعمال صبيانية . قل من هم ؟ »

فتجلد رامز وهو يخاف أن يخونه لسانه وشجع نفسه بتصور شيرين واقفة تسمعه فأحس برباطة جأش لم يعهدها في نفسه من قبل فقال : « هل أقول وأنا آمن ؟ » .. قال : « قل ولا تخف »

قال : « ربما قلت أمورا لا يتوقعها جلالة السلطان من مثلي : وأنا أعلم انى اعرض حياتى للخطر ، وانما يحملنى على التصريح بها غيرتى على هذه الدولة »

فابتدره قائلا : « قل ما تريده ولا تخف »

قال : « أنا لا أسمي أعضاء تلك الجمعية مفسدين ، ولا اعتقد أنهم يسعون في خراب هذه الدولة ، بل أنا اعتقد أن المفسدين هم الذين ينقلون الأخبار الى جلالة السلطان . أعنى طائفة الجواسيس الذين يرتزقون بالدسائس والوشايات . .هؤلاء يا سيدى هم المفسدون »

فبغت السلطان لسماعه هذا التصريح الذى لم يسمع مثله من أحد ، لكنه تجلد كعادته واظهر الاستحسان وقال : « يعجبنى أصحاب الأفكار الحرة . لو كان رعاياى كلهم على مثل هذه الحال لنجت الدولة من المشاكل . قل ما تراه »

فلما آنس رامز هذا التلطف من السلطان ذهب تهيبه واعتقد انه فائز بما يريد، فأبرقت أساريره وخطر بباله انالأحرار يظلمون عبدالحميد بمايشيعون عنه من حب الاثرة والظلم ، في حين انه لين الجانب قريب الانصياع الى الحق ، فقال : « أخشى يا مولاى انى أكون قد تجاوزت حدود الواجب بالجراة فى حضرة جلالة البادشاه ، ولكننى أقول ما يوحيه ضميرى . ويلوح لى يا مولاى ان الخلاف بين جلالتكم ورعاياكم انما هو نتيجة لما يدسه المفسدون الطامعون ولو علم الشبان الاحرار ما عليه سلطانهم من لين الجانب والرغبة في الحقيقة لما جعلوا بينهم وبينه واسطة ، فيحسن التفاهم ويذهب ما في النفوس ، وهم عند ذلك عبيد طائعون لأن غرضهم خدمة الدولة و . . . »

فقطع السلطان كلامه وهو يظهر الاهتمام بما يسمعه وقال : « وأنا طبعا لا غرض لى غير مصلحة رعاياى ورفاهيتهم ، ولكنى عاتب على الذين يسيئون الظن بى منهم وينحازون الى الأجانب . واذا كانت لاحدهم شكاية فلماذا لا يرفعها الى ؟ انى لا أعد نفسى سلطانا عليهم ، بل اعدهم جميعا ابنائى ! »

فدهش رامز لهذا التلطف وظن نفسه في حلم ، وخطر بباله سوء الظن بما يقصد السلطان ، لأنه كان يسمع عن مكره ودهائه ، ويعلم أن الاحرار لم يقصروا في رفع تظلماتهم اليه . بالتقارير ونحوها . لكن تلطف السلطان اثر في نفسه فاعتقد خطأ ذلك الظن وأن التقارير التى كان الاحرار يرفعونها

الى السلطان لم تصل اليه . وبهذا ومثله كان عبد الحميد يؤثر فى جميع مخاطبيه ، فكان اشدهم حنقا عليه وسوء ظن به لا يلبث اذا جالسه وخاطبه أن يخرج من عنده مقتنعا راضيا ، وقد شهد كبار الساسة الأجانب له بهذه المزية فى مناسبات عدة

ولم يكن رامز من أهل الدهاء والحنكة ، وانما يغلب فى طباعه حرية الضمير واستقلال الفكر ، ولا يعرف الكذب والرياء والنفاق الا بالسماع . فهو لذلك سريع التصديق لما يسمعه ويأخذ الامور بظواهرها . فلما سمع كلام السلطان لم يشك فى صدقه ، وحمد الله على وقوعه فى تلك الورطة ليكون واسطة لحسن التفاهم بين السلطان ، والاحرار فقال : « انى أعد نفسى سعيدا لمثولى بين يدى جلالة السلطان ، وأرجو أن أكون واسطة لحسن التفاهم . وقد انتقد جلالته تقاعد رعاياه الاحرار عن رفع شكواهم اليه رأسا ، ولكننى على ثقة انهم فعلوا ذلك مرارا فرفعوا تقارير عدة مطولة عما تحتاج اليه المملكة العثمانية من الاصلاح ، وما لجأ بعضهم الى الأجانب الا يأسا من وصول أصواتهم الى مولاهم ! »

فهز عبد الحميد راسه هز الانكار واظهر الاستغراب ثم قال : « أين هذه التقارير ؟ الى من رفعوها ؟ »

قال : « رفعوها الى القصر يا سيدى »

فأظهر الغضب وهو يقول : « انى محاط بلصوص منافقين يهمهم توسيع الخرق ليستفيدوا من النزاع . قد فهمت الآن » . ثم نهض ونظر الى رامز نظر الاستئناس ، وقال له بصوت منخفض : « اكتم ما دار بيننا ، وسأعيدك الى سجنك حتى حين موصيا الحراس بأن يحتفظوا بك فلا تهتم لذلك »

فنهض رامز وأكب على يد السلطان يقبلها من الفرح والاعجاب ، فأمر السلطان الحاجب أن ينقله الى سجنه . فخرج رامز ومشى بين الحراس حتى أعيد الى قصر مالطة ، وقلبه يطفح سرورا وصدره قد امتلأ أملا

□

توجه السلطان عبد الحميد الى غرفة نومه بعد أن خلا الى نفسه ، وحينما وقع نظره على الصورة التى مثلوا له بها مدحت ورجاله ، وقف عندها وهو يحدق فيها بعين الغدر ، كأنه يرى مدحت بين يديه ، ويهم بأن يصفعه . ثم صر بأسنانه وزمجر كالأسد الجريح وهز رأسه وهو يتحول عن الصورة وقال : « ويل لكم من أشرار اغرار . تصدقون أن عبد الحميد يصبر على وقاحتكم باسم الحرية ؟. أبمثل هذه الجسارة يخاطب عبد الحميد سلطان

البرين وخاقان البحرين ؟ حتى هؤلاء الغلمان يزعمون انهم ينصحون لي ؟ ان رجلا يخاطبني بهذه الوقاحة لا ينبغي ان يبقى حيا » . قال ذلك ومشى الى علبة السيكار فأشعل سيكارا ونفخ دخانه نفخة ملأت الغرفة . وتنهد وهو يقعد على كرسي طويل هناك ، ثم استلقى عليه وهو يقول : « ولكن ما الحيلة في كشف سر هذه الجمعية ومعرفة أعضائها العاملين ؟ انى اذا ظفرت بهم ذهب خوفي . ان أولئك الاغرار يطلبون الدستور ... قد طلبه قبلكم رجال ذوو لحى وحنكة ودهاء وذهبوا قتلا ونفيا واغراقا ... وسأفعل بكم كذلك ؟ . لا بد ان اطلع على اسراركم ان لم يكن بالحيلة فبالسيف أو بالمال أو بأية وسيلة . لا ينبغي أن أعول في ذلك على أولئك الاعوان اللاعبين . سأبحث عنه بنفسي .. ان هذا الشاب عنده سر الجمعية فكيف استخلصه منه ؟ »

ونهض عن الكرسي وهو يحك عثنونه ليستحث ذاكرته وينبه قريحته ، ثم وقف بغتة وأشرق وجهه كأنه هبط عليه الالهام بالصواب فقال : « شيرين ! . هذه الفتاة التي حملها حبها رامزا على القدوم الينا ، لا بد أنها فعلت ذلك وفي خاطرها أن تفتدى حبيبها . ومن أهون الامور عليها أن تشتريه بكشف سر الجمعية ، وهي بلا شك عالمة بأعضائها » . ولما خطر له ذلك صفق فأتاه الحاجب ، فطلب اليه أن يستقدم نادر أغا . وما عتم ان كان ذلك الخصي بين يديه وقد وقف منتصبا وهو يتحفز للعمل بأمر مولاه فقال عبد الحميد : « أين ضيفتك الجديدة ؟.. الى بها »

فمضى نادر اغا ودخل عبد الحميد الغرفة المؤدية الى دار الحريم وأخذ في اصلاح شأنه أمام المرآة . وكان شديد الرغبة في المحافظة على نضارة الشباب حتى انه كثيرا ما كان يختضب ويتبرج لهذه الغاية ، ثم جعل يخطر في الغرفة مطرقا مفكرا حتى اتى نادر اغا ينبئه بقدوم الفتاة فأمر بادخالها، فدخلت وقد زادها التهيب رونقا ، وأخذت ركبتاها تصطكان من الخوف، لانها بعثت ذلك التلغراف ودخلت القصر وهي لا تقدر عواقب جراتها ، وانما فعلت ذلك مدفوعة بالخوف على رامز ، ورأت صائب بك يهددها بالوشاية بها فسبقته الى القدوم وفي نفسها مثل ما في نفس حبيبها من جهة السلطان وأعوانه . اذ لم يكن يدور في خلدها أن من يقبض على أنفس العباد ويتولى الخلافة يرتكب ذلك الشطط في سياسته الا وهو يجهل حقيقة حال مملكته . وانه لو عرف الحقيقة لرجع الى الصواب . على أنها كانت تتصور ذلك الأمر أهون مما هو . ولم تكد تدخل يلدز وترى قصورها وحدائقها وميادينها وما انبث في أطرافها من الحراس والاعوان حتى تهيبت وادركت خطأها . وكانت تتوقع أن تستطلع حال رامز ساعة وصولها فاذا هي لا تكلم الا صما بكما ولا يجيبها أحد عن سؤال

شيرين وعبد الحميد

دعيت شيرين لمقابلة السلطان ، فتجلدت جهد طاقتها . ودخلت واليشمك يغطي رأسها ومعظم وجهها ، وكان عبد الحميد عند دخولها يخطر فى تلك الغرفة مظهرا عدم الاكتراث . فألقت التحية ووقفت ، فأشار عبد الحميد الى نادر اغا ان ينصرف ، وأومأ اليها أن تقعد فظلت واقفة وهى تسترق النظر الى وجهه ، فرأت الشرر يكاد يتطاير من عينيه . ثم رأته يقعد على كرسى وهو يومىء اليها ان تقعد على كرسى بين يديه ، فقعدت وقد امتقع لونها ، وأدرك هو ما بها فابتسم وقال : « أنت شيرين ؟ »

قالت : « نعم يا مولاى »

قال : « يظهر لى انك من اهل الذكاء والاخلاص . فعساك ان تكونى قد حملت الينا خبرا يهمنا كما قلت »

فارتبكت ، ولكنها تمالكت وتجلدت ، وتصورت أنها تطلب نجاة رامز حبيب قلبها فقالت : « نعم يا مولاى ، انى لم اقدم على هذه الجراة الا عن اخلاص وصدق نية »

فقال : « قولى وأصدقينى ، واعلمى انك فى حضرة أمير المؤمنين »

فأشارت اشارة الاحترام وقالت : « ان ذلك شرف لى » . وسكتت وهى تود قبل الكلام أن تعرف ما اذا كان رامز هناك وماذا جرى له . وادرك عبد الحميد ما يجول فى خاطرها فأراد أن يجعل رامزا وسيلة لاقرارها فقال : « قد علمت السبب الذى حملك على المجىء الينا ، وتكبدت هذه المشقة من أجله ، ويظهر أنك خائفة . فلا تخافى اذا كنت تنوين الاخلاص فى قولك ؛ والا فانك ... » . وسكت

فتوسمت فى كلامه شيئا مما خطر لها فقالت : « أقسم لمولاى لا اقول غير ما يدعونى اليه الاخلاص و .. »

فقطع كلامها قائلا : « وقبل أن تقولى شيئا اعلمى أنك تتكلمين عنك وعن رجل آخر يهمك أمره ، وهو فى خطر القتل الآن »

فلما سمعت لفظ القتل اجفلت وقالت : « من يعنى مولاى ؟ هل رامز هنا ؟ »

قال : « هو هنا فى حوزتنا ، وقد خاطبناه وسألناه سؤالاً جعلنا حياته رهنا بصدقه فى الجواب عنه لـكنه لم يستطع التصريح بكل شيء ، لأنه اقسم الايمان المغلظة على الـكتمان ، فلم يبق سبيل الى نجاته ، فهـو مقتول حتما ، الا اذا أنقذته بصدقك » . قال ذلك وهو يراقب حركاتها خلسة ، فرآها ارتبكت فى أمرها وامتقع لونها وقالت : « وما الذى يطلبه مولاى منى ؟ »

قال : « انى اطلب شيئا يسهل عليك كثيرا ، ولا ريب عندى أن رامزاً لولا تقيده بالقسم لذكره بعد أن تحقق انه مخدوع ، وربما رجع الى صوابه فى الغد . أما أنت فلا يربطك قسم ، فأنقذيه وانقذى نفسك ، ولا اكلفك شيئا غير التصريح لى بأسماء مؤسسى الجمعية التى تسمونها جمعية الاتحاد والترقى فى سلانيك ، وبذلك تنجين نفسك كما ينجو رامز وكثيرون غيره ممن قد يكونون مثله أبرياء ، ونحن لا نحب أن نأخذ البرىء بجريرة المجرم »

فعجبت من ان يكون رامز قد تساهل فى أمر الجمعية وان يكون الثبات الذى تعهده فيه قد زايله . لـكنها ما لبثت أن عادت الى صوابهـا ، وتذكرت ما يقـال عن دهـاء عبد الحميد ، وتفرست فى عينيه فأدركت بشعورها النسائى ان ذلك الطاغية يخادعها ، وأن رامزا لا يمكن أن يبوح بشيء فقالت : « انى يا سيدى قد طلبت المثول بين يدى جلالة البادشاه لأتلو عليه أشياء تتعلق بالدولة ربما لم تبلغ اليه بعد ، ولو علم حقيقتها لأوقع القصاص بمرتكبيها »

فرأى عبد الحميد أن تعريضه برامز لم يغير عزمها فأراد ان يسايرها فقال : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « أعنى أن الذات الشاهانية تصل اليها أخبار الدولة على أيدى أناس يتكسبون بالـكذب والرياء ، فيزينون لجلالة السلطان غير الواقـع التماسا لرضاه ، ويكتمون الحقيقة وهم يعلمون ، ويقفون سدا بينه وبين رعاياه الصادقين المخلصين »

فوجد فى نغمتها نغمة حبيبها رامز ، فرأى أن يخادعها فقال : « قولى ما فى خاطرك ، انى أحب الاطلاع على الحقيقة »

قالت : « ان حالة الدولة فى اضطراب شديد . والجمعية التى تألفت فى سلانيك لا يستهان بها ، وأعضاؤها أخلص الرعايا لجلالة السلطان : فلو أن جلالته استخلصهم لأنقـذ الدولة من مهـاوى الانحطاط ومن مخالب الأجانب . ان مطاردة جمعية الاتحاد والترقى لا تفيد شيئا ، لان الأمة كلها ناقمة على الحالة الحاضرة لما تمكن من الفساد فى جسم الدولة بما يراه الناس من استئثار رجال القصر بالأموال : لا يهمهم أخربت البلاد أم عمرت . وقد ادرك هؤلاء هذه الحقيقة ، فأصبح همهم منصرفا الى

جمع الاموال لأنفسهم ، تفانوا فى اقتناء العقار . وخبأ العارفون منهم ثروتهم فى مصارف أوربا وأمريكا ، وطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها . واستفادوا من الحالة الحاضرة بقدر ما أمكنهم ؛ ولم يفكر أحد منهم الا فى نفسه واولاده ثم فى الأقرب فالأقرب من عائلته . واستماتوا فى الوصول الى السعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب من جلالتكم ، واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها ، وقد جرت العادة باعفائهم من الخدمة العسكرية هم ومن انتسب اليهم . حتى سقط اعتبار الدولة فى عيون الاجانب ، وأصبح العثمانيون المقيمون فى البلاد الأجنبية انفسهم يستنكفون من الانتساب الى الدولة العثمانية ، ولا يرون علاجا لهذه الحالة الا الرجوع الى الحكم الدستورى لاكتساب ثقة الدول ، بعد ان كانت نتيجة الحكم الاستبدادى خروج كثير من الايالات العثمانية الى سلطة الأجانب أو الاستقلال ، كما حدث فى الفلاخ والبغدان والروملي الشرقية والبوسنة والهرسك والجبل الأسود والصرب وقبرص وتونس وتساليا ومصر والسودان وغيرها ، وعدد سكان هذه البلاد يزيدون على ثلاثين مليونا كلهم خرجوا من سيادة الدولة العثمانية بسوء سياسة أولئك المقربين . ولا ريب عندى أن جلالة السلطان مخدوع بما ينقله اليه المتملقون الذين لا يهمهم الا مصالحهم الشخصية ، وقد اصبحت اكثر اموال الدولة تنفق عليهم ، وسائر اهل المملكة فى جوع ، حتى الجند »

□

كانت شيرين تتكلم والاهتمام باد فى عينيها ، وكان صوتها فى بادىء الأمر يرتجف وينقطع ، ثم انطلق لسانها وفاضت قريحتها ، ولم تتم كلامها حتى كلل العرق جبينها ، والسلطان مطرق يسمع ما تقوله ؛ ويعجب من جسارتها ، ويكاد يتميز غيظا من اقوالها . وحدثته نفسه أن يذهب بحياتها فى تلك اللحظة بطلق نارى من مسدسه ؛ لكنه كظم غيظه التماسا للوصول الى غرضه ، وهو الاطلاع على سر تلك الجمعية ؛ فقال وهو يظهر الاعجاب بما سمعه : « يسرنى أن يكون فى مملكتى نساء لهن هذه المعرفة وهذه الغيرة . ان امة فيها امثالك لجديرة بالدستور . وكم كنت أود أن أعرف زعماء هذه الحركة لاباحثهم ونتفق على طريقة للنجاة من الخطر . وأراك مع ذلك تكتمين عنى أسماءهم . وأنا ألومك على ذلك ؛ لأنك لو أخلصت الخدمة لذكرت بعض الذين تظنين فيهم اللياقة لهذا التغيير . ولعلك تفعلين بعد الآن اذا تحققت انى اشد غيرة على هذه الدولة من سواى » . قال ذلك واظهر عدم اهتمامه باستطلاع سر الجمعية لعل ذلك يهون عليها الاقرار

اما هى فظلت ساكتة ، وقد كادت تصدق ما قاله عبد الحميد من رغبته فى الاصلاح . على انها فضلت السكوت ، لأن شعورها حملها على سوء الظن بما سمعته ، وعادت الى أمر رامز ، وأحبت ان تحتال لمعرفة حقيقة حاله فقالت : « انى لا أعرف شيئا عن أعضاء هذه الجمعية . ولعلى اذا اجتمعت برامز أن نتعاون على خدمة جلالة السلطان فى هـذا الشأن »

فأدرك عبد الحميد أنها تكذب ، وأنها انما تحتال للاجتماع به للتعاقد على الانكار ، لـكنه اظهر الاقتناع بقولها وقال : « سوف أجمعك به » . ووقف ونادى : « نادر أغا » . فجـاء فاشار اليـه أن يأخذها الى محبسها ويعود

فلما عاد قال له عبد الحميد : « اخف هذه المراة عن عيون الناس كافة ، واحذر أن تعرف مكان خطيبها أو يعلم هو انها هنا »

فأشار مطيعا وهم بالخروج فناداه وقال : « ماذا تم فى امر القادين ج ؟ »

قال : « ستقتل الليلة »

قال : « أجل ذلك وابلغها انى اشتقت لرؤيتها ، فلتأت الى بعد القيلولة لتلبسنى ثيابى وحدها . واظنها ستفرح بذلك كثيرا »

فقال : « انها ستجن من الفرح طبعا »

فضحك عبـد الحميد وقال : « افعـل كما قلت لك » . فاشـار مطيعا وخرج

ثم عاد عبد الحميد الى مناجاة نفسه قائلا : « لا يقدر على كشف هذا السر منها الا تلك القادين الداهية . انها خبيرة بأساليب الدهاء ، وهى تحبنى وعلى كل حال سأكلفها القيام بهذه المهمة ثم ارى ما يكون »

وذهب عبد الحميد بعد الغداء الى غرفة المنام ، وبعد القيلولة اتت القادين ج وقد اصلحت من شأنها ، وكادت تطير من الفرح بهذه الدعوة التى يحسدها عليها سائر نساء القصر ، لا سيما بعد أن اهملها مدة طويلة ، وهى لا تعرف ذنبها

فلما دخلت عليه حيته بالطريقة المعتادة ووقفت تلتمس اشارة فقال لها وهو يمازحها : « أظنك اذا شغلت أنا عنك بمهـام السلطنة لا أخطر ببالك »

فقالت بلهفة : « العفو يا مولاى ، انى أمتك وطوع اشارتك ، وانت مالك الرقاب والقلوب . انى اقبل موطىء قدميك واتفانى فى . . » وتنهدت وتشاغلت بتقديم الدراعة لتلبسه اياها

فأدرك أنها تشير الى حبها الشديد له فقال : « تزعمين انك تحبيننى ؟ » . ومد يده ليدخلها فى كم الدراعة . فقالت وهى تدير الدراعة نحو يديه : « انى أعبدك يا سلطانى ومولاى . . انى لا اجد عبارة اعبر بها عن حبى »

فقال : « وأنا أيضا احبك كمـا تعلمين ، ولـكننى شغلت عنك وعن سواك بقيام بعض الغلمـان الملاعين فى سلانيك بتأليف جمعيـة سرية ، وهم يزعمون أنهم من الاحرار ، وأنا لا اخافهم طبعا . ولـكننى أحب أن أعرف من هم ؟ فأذكرنى ذلك صادق خدمتك فى الماضى . هل رأيت الفتاة المقدونية التى أتتنا بالامس ؟ »

قالت : « وانى لى ذلك وأنا فى قصرى لا اخرج منه ؟ »

قال : « ان هذه الفتاة اسمها شيرين ، قدمت نفسها لى فى الصباح ، وهى خطيبة احد أولئك الغلمان . ولا شك انها تعرف أعضاء الجمعية ، ولـكنها تتكتم ، وانا لم أشأ أن أسألها لئلا ترى منى اهتماما بأمرهم . ولا احب ان أكلف احد الجواسيس باستجوابها . وأنا أعهـد فيك الذكاء واللياقة ، فهل تقدرين على القيام بهذه الخدمة لصاحبك القديم ؟ »

فأثر ذلك التعبير فى قلبها ، وأذكرها أياما كان يظهر لها فيها تقربا ، وقالت وقد ابرقت أسرتها : « انى أفعل ذلك على الراس والعين »

وكان قد فرغ من لبس ثيابه فقال : « سآمر نادر اغا أن يأخذها اليك لتمكث معك بحجة الاستئناس بك ، فابذلى جهـدك فى استطلاع ذلك السر منها فى أقرب وقت بدون أن تشعر .. فهمت ؟ »

فأحنت رأسها اشارة الطاعة وقالت : « انى اغتنم مثل هذه الفرصة لأبرهن لسيدى وحبيبى على أنى ما زلت أتفانى فى خدمته »

فابتسم لها وقال : « لـكن احذرى أن تعرف شيئا منك ، خذى منها ولا تعطيها »

فقالت : « على الراس والعين » . وخرجت

ثم نادى عبد الحميد نادر اغا وامره بما ينبغى اتخاذه من الاجراءات

▭

عاد رامز بعد ان خلا الى نفسه فى قصر مالطة فأخذ يفكر فيما مر به فى ذلك اليوم ، وما سمعه من عبد الحميد ، وقد مال الى الاعتقاد بأن الناس يظلمون هذا الطاغية بسوء ظنهم فيه ، وانه انما يرتكب ما يرتكبه باغراء أهل القصر المحيطين به . وقضى بقية ذلك اليوم وهو ينتقل فى ذلك القصر من الشرفة الى النافذة الى حجرة الجلوس الى المائدة ، وأفكاره تائهة فيما عساه أن يتم على يده من الخير للدولة وللأمة ، وتوهم أن أهل القصر صاروا أكثر ايناسا له واحتفاء به . وكثر تفكيره فى شيرين ، وود لو انه يستطيع تبليغها تلك البشارة لئلا يقتلها اليأس من بقائه . وتذكر أباه وكان قد كثر ترداد صورته الى ذهنه منذ دخوله يلدز ، لاعتقاده أنه فقد هناك ، وان لم يقطع الامل من بقائه

وبعد العشاء ذهب رامز الى فراشه وقد طار النوم من عينيه لفرط تأثره من حديث ذلك اليوم . وبينما هو يتقلب على الفراش وقد اطفئت المصابيح اذ سمع وقع خطوات بباب الغرفة أعقبتها نقرات خفيفة . فجلس على الفراش ونظر نحو الباب وأنصت ، فرأى نورا يتخلل شقوقه ، فعلم ان شخصا قادما اليه بالمصباح ، فوثب الى الباب ففتحه ، فوجد خادم القصر وبيده قنديل فسأله عما يريده فقال : « ان رسولا جاء يدعوك »

فقال : « الى أين ؟ » . قال : « الى خارج القصر .. لا ادرى الى أين »

قال : « من هو ؟ » . قال : « أحد حجاب البادشاه . ولعله يطلب ذهابك الى جلالته »

فتوسم فى تلك الدعوة خيرا لما سبق الى اعتقاده من حسن الظن ، فأسرع الى ثيابه فلبسها واصلح من شأنه ، وخرج فوجد حرسيا فى انتظاره ويومىء اليه ان يتبعه . فمشى فى أثره بين الأشجار ، وقد خيم الظلام وأوت الحشرات والهوام ، وهدأت الطبيعة ، فلم يسمع فى ذلك المكان غير وقع خطواتهما ، حتى وصلا الى الشارع المحيط بسور الحديقة الداخلية وفيه بعض الانوار . فعرجا منه الى باحة يلدز المؤدية الى القصر الصغير ، فتصور رامز أن الحرسى ذاهب به اليه ولكن ما لبث أن رآه عرج فى طريق الى اليسار بين الاشجار ، حتى وصل الى باب قصر فخم ، فأخرج الحرسى مفتاحا من جيبه فتح به الباب ودخل وأشار الى رامز أن يتبعه ، فتبعه الى فناء يتطرق منه الى دهليز فى اليسار يؤدى الى غرف يستطرق بعضها الى بعض ، وقد أنير الدهليز بالنور ، فبانت جدران تلك الغرف فاذا هى تختلف عن سائر ما شاهده فى القصر السلطانى وفى قصر مالطة ، لأن الجدران فى هذا القصر مبطنة بالأنسجة الحريرية الملونة بالألوان الزاهية ، وعليها اطارات كبيرة لم يقدر ان يتبينها عن بعد ، فلما صارا فى وسط الدار أشار اليه الحرسى أنه ذاهب وسيعود اليه ، ودخل من الباب الأيمن المقابل للدهليز واغلقه وراءه

فاغتنم رامز تلك الفرصة .ودخل تلك الغرفة وهى مفروشة بالسجاد الثمين ، ونقش سجاد كل غرفة يلائم الوان الأطالس المكسوة بها جدرانها . ولكل غرفة نقش خاص بالوان خاصة . وآنس فى المكان هدوءا يدل على خلوه من السكان ، فعلم أنه من القصور التى انشئت لبعض المقابلات أو للاحتفال ببعض القادمين ، ولم يدرك سبب استقدامه اليه . على أنه تشاغل بالتفرج . فوجد فى الاطارات المعلقة خرائط متقنة الصنع ، مثل خريطة البوسفور وخرائط الروملى والأناضول ، والاستانة والبحر

الأسود ، من صنع كبار المهندسين العثمانيين ، أكثرها بارز الرسم يمثل حال البلد الطبيعية . فأعجبه أن يكون فى رجال الدولة من يستطيع ذلك الرسم الجميل . وتأسف لما حال دون ظهور مواهبهم من المظالم والمفاسد

وفيما هو يتأمل فى ذلك عاد اليه الحرسى وناداه فتبعه ، فأشار اليه أن يدخل فى الباب الايمن الذى خرج هو منه فأطاعه ، فرأى نفسه فى قاعة واسعة لم ير مثلها هناك ، فيها الرياش الثمين فوق السجاد الجميل ، وفيها المناضد عليها آنية البذخ كالساعات المذهبة والتماثيل المزخرفة ، وجدران القاعة مكسوة بالاطلس الاحمر المعرق بالذهب . وفى سقفها ثريات كبيرة قد أنيرت مصابيحها . وعلى جدرانها اطارات فيها خرائط وصور أهمها خريطة الكعبة تمثلها مع ما جاورها مجسمة فى غاية الاتقان . ولحظ الحرسى دهشة رامز مما يراه فقال له : « انت فى قصر جيت ياسيدى ، وهو من أفخر قصور يلدز . تفضل اجلس هنا حتى يرد اليك الخبر ، ولا تخف » . قال ذلك وخرج واقفل باب القاعة وراءه بالمفتاح

فاستغرب رامز ذلك ووقف ليتحقق اغلاق الباب فوجده قد أغلق باحكام وأصبح كأنه هو والحائط قطعة واحدة . ونظر فى أطراف القاعة فلم يجد فيها بابا سواه ، فاقشعر بدنه وتوهم انها احبولة نصبت له ، وانه لا يلبث أن يقتل أو يصاب بأذى ، لأنه سمع بغرائب أساليب القتل فى يلدز ، وقول الحرسى : « لا تخف » ، كان سببا فى زيادة خوفه

ومشى رامز فى القاعة معيدا النظر فيما حوله ، لعله يرى بابا آخر فلم يجد ومع تألق القاعة بالانوار أحس بالوحشة كأنه فى ظلام دامس ، فجعل يتلهى بالنظر الى الصور والخرائط المعلقة على الجدران حتى مل ، فجلس على مقعد بجانب منضدة عليها بعض الكتب ، وجعل يتشاغل بتقليبها ، وعادت اليه ذكرى أبيه : أهو فى أحد هذه القصور حيا أو سجينا أم فى قاع البوسفور ؟

وبينما هو على هذه الحال سمع قلقلة مفتاح فأجفل ، ونظر الى البـــاب وتوقع أن ينفتح ويدخل الحرسى يخبره بخبر جديد لخيره أو شره . فطالت القلقلة ودله سمعه على انها فى الحائط المقابل له ، وليس فى الباب الذى دخل منه ، فنظر الى الحائط فلم يجد بابا ولا ما يشبهه ، فكذب سمعه وأعاد نظره الى الباب ، ثم سمع طقطقة القفل وهو يفتح ، فأصبح يتوقع ان ينفتح الباب ، فرآه باقيا على حاله ، ولاح له تغيير فى ذلك الحائط ، فالتفت نحوه فاذا به قد فتح فيه باب دخل منه شبح ملتف بملاءة بيضـــاء كأنه خارج من القبر . فاقشعر بدنه ووقف شعره وخفق قلبه فنهض وقد جمد الدم فى عروقه ، وتوهم أن أباه خارج من بين الاموات أو ان هذا عفريت من الجن شق الحائط وخرج منه ، على نحو ما جاء فى قصص ألف ليلة وليلة ، ولم تمض لحظة حتى كشف ذلك الشبح الملاءة عن رأسه ، فاذا هو عبد الحميد بلباس النوم ، وعليه

برنس أبيض كالملاءة ، فدهش رامز واستغرب خروجه من الحائط ، ولكنه ظل واقفا مكانه وقد اصطكت ركبتاه

فلما صار عبد الحميد داخل القاعة أغلق الباب وأوصده من الداخل ، فعاد الحائط كما كان ، وتقدم نحو رامز وعلى رأسه عمامة صــــغيرة وقد التف بالبرنس ، وابتسم تخفيفا لما تولى رامزا من الرعدة . فاستأنس رامز به ، وتقدم نحوه وحياه ويداه ترتعشان فقال عبد الحميد : « لا تخف يابني ، انى جئتك من هذا الباب السري المستطرق الى القصر لإخاطبك فى أمر لا اريد أن يشعر به أحد من أهل هذه القصور » . قال ذلك وهو يقعد على مقعد هناك وأشار الى رامز أن يقعد

فقعد رامز وقد اطمأن خاطره ، وأصبح فى لهفة للاطلاع على الغرض من تلك الجلسة السرية

وأما عبد الحميـــد فانه لبث هنيهة مطرقا لا يتكلم ، وكأنه يفكر فى أمر مهم ، ورامز ساكت وكله آذان للسمع . ثم فتح عبد الحميد الحديث قائلا : « لاحاجة بى أن اوصيك بكتمان هذه الجلسة عن كل بشر »

فأشار مطيعا

فقال عبد الحميد : « ان حديثك بالامس عن أهل القصر كان له وقع شديد فى نفسي، وما زلت من تلك اللحظة وأنا أفكر فيه ، فوجدتك مصيبا ، وتحققت ان هؤلاء الاشرار أصل هذه المتاعب ، غير انى اصبحت مقيدا بهم لكثرتهم وكثرة أعوانهم . ولا أدرى كيف أتخلص منهم » . وتنحنح وهو يلتفت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد ، ورامز مصغ وقلبه يخفق تطلعا لما سيسمعه

فقال عبد الحميد وهو يخفض صوته : « فرأيت ان أستشيرك فى الامر سرا ، ولم اشأ أن افعل ذلك فى قصرى كالعادة لكثرة المراقبين والجواسيس على وعلى كل ناطق ، حتى الخدم والطواشية ، حتى النساء والجوارى ، فانهن يتلصصن على لسماع ما يقال . فاخترت هذا المكان ، وامرت الحرسي أن يأتى بك اليه لتكون سجينا فيه بدلا من قصر مالطة . واوصيته ان يغلق الباب عليك ويذهب ، وهو لايعلم بوجود هذا الباب السرى . فالآن نحن هنا فى امان فما الذى تراه لعلاج هذه الحال السيئة ؟ »

فاطمأن خاطر رامز ، وأصبح لغرابة ما يسمعه يظن نفسه فى حلم ، ولكنه تأمل فيما هو فيه فتحقق انه فى يقظة فقال : « يأمر سيدى البادشـــاه بما يريد فانى طوع أمره بكل ما فيه مصلحة الامة والدولة »

فتنهد عبد الحميد وقال : « آه لقد طالما سمعت كلمتى الامة والدولة هاتين ممن يحيطون بى من المتملقين ، ولكنى أعلم انهم يخادعونني كما اخادعهم ، بل لقد استغرقت فى الشطط وارتكبت أمورا أرجو ان يمحوها الله من سجل أعمالى اذا انا رجعت الى الصواب » . قال ذلك وصوته يختنق كأنه يجهش

بالبكاء . ورأى رامز فى عينيه دمعتين تتلألآن وهو مطرق كالنادم الآسف . فتأثر من منظره وشاركه فى البكاء ولم يبق عنده شك فى صدق قوله ، لكنه ظل ساكتا

فمسح عبد الحميد عينيه واظهر الاهتمام وقال : « أحب أن اتخلص من هؤلاء المنافقين المحيطين بى ، لكننى لا استطيع ذلك قبل أن أستوثق من اولادى الاحرار الذين أغريت باساءتهم وهم الآن بعيدون عنى ، فأحب ان اباحثهم سرا ونتفق على طريقة نقضى بها على هؤلاء الاشرار ، وننظم حكومة جديدة نحيي بها الدولة وكفانا ما مضى . فما هو السبيل الى ذلك ؟ هل اذا عولت على الاحرار يستطيعون الاخذ بناصرى والتغلب على هؤلاء ؟ .. انى اخاف على حياتى منهم اذا اظهرت تغيرا فى سياستى »

فاعتدل رامز فى مجلسه ، وقد ابرقت اسرته من الفرح وقال : « لاشك ياسيدى انهم يستطيعون . ولا اخفى على جلالة البادشاه بعد أن رأيت حسن ظنه فينا ان الاحرار هذه المرة ظافرون بلا ريب ، لأنهم اجتذبوا الجند الى حزبهم . ولم يبق ضابط فى سلانيك أو فى غيرها الا وهو عضو فى جمعية الاتحاد والترقى المقدسة ، فاذا أرادوا عملا انفذوه بالقوة ، ولاسيما اذا كانت ارادة الذات الشاهانية معهم »

وكان عبد الحميد يسمع ذلك وقلبه يكاد يتميز غيظا ، لكنه تجلد على عادته واظهر السرور ، فانبسطت اسرته وظهر الاستبشار فى محياه ، فاستأنس رامز بمنظره ، ورقص قلبه طربا ، ولبث ينتظر ما يقوله عبد الحميد فاذا هو يقول له : « هل انت على ثقة باقتدارهم على ذلك ؟ »

قال : « كيف لا وانا من صميم الجمعية ؟ انى واثق بأن الجمعية اذا تأكدت رضى جلالة السلطان عنها تفديه بالارواح وتقاوم اعداءه اشد المقاومة »

فقال عبد الحميد : « وما هى الطريقة للمفاوضة معهم فى هذا الشأن ، وانا سجين فى هذه القصور لا استطيع الخروج منها ؟ »

قال رامز : « اذا شاء مولاى كنت سفيرا بينه وبينهم » . قال ذلك وهو لايتوقع أن يوافقه السلطان على الخروج من سجنه ، فرآه قد أظهر الارتياح وقال : « نعم الرأى هـــذا .. ولكننى أخاف أن يطلع احد من هؤلاء على قصدنا ؟ »

قال : « لاخوف من ذلك ، فان لجمعيتنا طرقا للتكتم لا سبيل معها الى معرفة شيء . وقد رأى جلالة السلطان تكتمنا بالامس ، وكيف ان احدنا يعرض نفسه للقتل ولا يبوح بسره ، ولا غرض لنا الا خدمة الامة والدولة »

فاطرق السلطان لحظة وقال : « حسنا . لـكننى اود المفاوضة مـــع زعماء هذه الجمعية فى جلسة سرية مثل هذه . ان المخابرة عن بعد لا تشفى غليـــلا ، وعندى أمور كثيرة أحب تبينها والاحتياط لها ، ولا يتم ذلك

بالمخابرة عن بعد ، وانا لا يتيسر لى الخروج اليهم كما تعلم »

فقال رامز : « هم يتشرفون بالمثول بين يدى جلالتكم »

فقال : « لا أظنهم يفعلون اذ تعوزهم الثقة بى . فان أهل القصور لم يبقوا للأمة ذرة من الثقة بى » . وغص بريقه

ولم يكن رامز من أهل الدهاء فاعتقد اخلاص السلطان فى كلامه فقال : « انا أؤكد لهم حسن ظن جلالتكم ، واحملهم على تعيين وفد يتشرف بالمثول بين يديكم »

فقال : « لا يسعنا المطاولة فى الأخذ والرد ، فينبغى ان يكون ذلك الوفد مفوضا فى كل شىء ، فتنتهى هذه المشاكل فى جلسة واحدة تنتقل بها الدولة من حال الى حال . آه من هؤلاء المتملقين ! كم اغرونى بالايقاع بالأحرار واقنعونى بأنهم غير اهل للدستور !. فالآن انا ملق حملى عليك وواضع ثقتى فيك ، فعسى أن يتم هذا العمل على يدك . واذا جاء الوفد فليكن مؤلفا من خيرة الرؤساء العقلاء ، وعليهم ان يظهروا انهم آتون لمشروع اقتصادى أو علمى او نحو ذلك »

فأشار رامز مطيعا وقلبه يرقص طربا ولا يكاد يصدق ان عبد الحميد يطلق سراحه فقال : « ومتى يأمر سيدى بمباشرة ذلك ؟ »

قال : « تذهب فى هذه اللحظة .. تخرج من هذه القصور من باب سرى ارشدك اليه على يد أحد ثقاتى دون أن يدرى احد بخروجك ، فاذا اصبحوا فى الغد ظنوا انك فررت . وانما ينبغى المبالغة فى كتمان ما دار بيننا عن كل احد حتى تصل الى الجمعية وتعرض هذا الراى فى جلسة سرية .. فهمت ؟ » فأشار برأسه ويديه أن : « نعم »

وبلغ من استئناس رامز بعبد الحميد وتصديقه اياه ان اعتقد أن الدستور أصبح فى قبضة يده . وتذكر أباه وتلهفه على معرفة مكانه فاغتنم قربه من عبد الحميد للسؤال عنه فقال : « قد حملنى لطف جلالة السلطان على أن أجرؤ بعرض مسألة . هل افعل ؟ »

فقال : « قل يا ولدى ما الذى تريده ؟ »

فزاده ذلك التلطف دالة فقال : « لى والد دخل يلدز منع بضع عشرة سنة ولم نعد نعلم ماذا جرى له ؟ فهل هو يا ترى على قيد الحياة ؟ »

فأظهر عبد الحميد الاهتمام بهذا السؤال وقال : « أبوك فى يلدز منذ بضع عشرة سنة ؟ ما اسمه ؟ وما كان غرضه من المجىء ؟ »

قال : « اسمه سعيد ، وقد جاء للبحث عن أوراق فى قصر مالطة »

فتظاهر عبد الحميد بالبغتة وقال : « سعيد بك أبوك ؟ لقد اغرونى به وزعموا أنه جاء بدسيسة لينتقم لمدحت باشا لأنه صديقه ، وكدت اقتله ثم اكتفيت بسجنه »

فانحنى رامز انحناء الاستعطاف وقال : « هل يتاح لى أن أراه .. ان ذلك أكبر نعمة يسديها الى مولاى .. فاذا حصلت عليها تفانيت فى خدمة السلطان »

قال : « طبعا .. وهل تخشى أن تطلب منى ما تريده بعد أن صرحت لك بمقاصدى ، سآمر باخراج أبيك من السجن فى هذه الدقيقة واخرجكما معا من يلدز فى هذه الليلة » . فأكب رامز على طرف ثوب السلطان يقبله

فأمسكه عبد الحميد وقال : « أنا عائد الآن الى قصرى ، وسأبعث اليك بأبيك مع حرسى يدخل به عليك من باب هذا القصر كما دخلت أنت .. والحرسى يرشدك الى طريق النجاة » . قال ذلك ونهض ، فنهض رامز وهو يقول : « أخشى اذا صرت الى سلانيك أن يعرف ناظم بك بقدومى ، فيتعمد القبض على »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « لا تهتم لهذا الأمر ، أنا أدبره »

فأعاد تشكره وامتنانه ، وتحول عبد الحميد نحو ذلك الباب فى الحائط ففتحه وخرج منه ثم أوصده وراءه فعاد الحائط كما كان

وبقى رامز فى مجلسه وقد تولته الدهشة ، واخذ يفرك عينيه لئلا يكون فى حلم ، فتحقق انه فى يقظة فقال فى نفسه ؟! اذا تم ذلك على يدى فما أعظم سرورى !. ترى هل أرى أبى الآن وأنجو به ؟. رب شر ينتج عنه خير . لو لم يش بى عدوى ويلقينى فى هذه الورطة لم أوفق الى لقاء أبى ، ولا الى ما أرجوه من الانقلاب السياسى . لا أصدق انى أصل الى الجمعية واقص عليها أخبارى »

ونهض وجعل يخطر فى الغرفة وهو ينظر الى ساعة دقاقة موضوعة على منضدة مذهبة فاذا بها الساعة الثانية بعد نصف الليل ، فأخذ يعد الدقائق فى انتظار والده .. الذى صبر على بعده أعواما ، لكنه وجد هذه الدقائق أطول منها كثيرا . وأوحشه ذلك السكوت فاذا طنت بعوضة اجفله طنينها

ثم سمع وقع خطوات فى الخارج أعقبها قلقلة المفتاح ، فوثب من مجلسه الى الباب ووقف ينتظر فتحه ليرى القادم . ففتح الباب ودخل منه حرسى ملثم ، واشار الى رامز اشارة التحية ، ثم أومأ الى الخارج . فنظر رامز فرأى رجلا فوق الكهولة ، قد تغيرت سحنته وطال شعر رأسه ولحيته حتى صار كالنساك الذين لا يمسون شعورهم بقص أو اصلاح . ومع انتظار رامز لوالده واطلاعه على خبر قدومه فقد أنكره لتغير سحنته عما يعرفه اذ تولته الشيخوخة وشاب شعره واسترسل وامتقع لونه من طول الأحتجاب عن أشعة الشمس

اما الوالد فحالما وقع بصره على ابنه صاح : « ولدى .. رامز .. حبيبى ! » . واكب على عنقه وأخذ يقبله ويبكى من الفرح ، فلم يتمالك

رامز ان بكى وقبل أباه وهو يتفرس فيه . وما لبثا أن تعارفا وعادت الى ذهنيهما الصورة القديمة التى عرفها كل منهما فى صاحبه فقال رامز : « ابى ، ينبغى أن أشكر الله على وقوعى فى هذا الأسر اذ لولاه لم اوفق الى رؤيتك وانقاذك »

فقاطعه ابوه قائلا : « انما الفضل لرضى امير المؤمنين ومراحمه ، فلو لم يدب الحنو فى قلبه لم يأت مجيئك ولا أسرك بفائدة . فقد ابلغنى هذا الحرسي أن جلالة البادشاه اذن بخروجنا من هنا وانه عهد اليك فى أمور خاصة ، فنشكر الله على نعمه ، فالآن نحن هنا حتى يشير الينا هـذا الحرسي بما نفعل »

أما الحرسي فكان واقفا لا يتكلم ، ولما سمعهما يذكرانه اخرج من تحت ابطه صرة دفعها اليهما على أن يفضاها . ففتحها رامز فوجد فيها ثوبين مما يلبسه الياوران وأشار اليهما أن يلبساهما . ففعل رامز وهو ينظر الى نفسه فى المرآة ، فاذا هو كالياوران تماما ، ووقف ينتظر ما يشير به الحرسي فأخرج من جيبه ورقة كالبطاقة دفعها الى رامز اشار اليـه اشارة معناها أننى سأخرج بك من هنا ، ثم تنطلق توا الى محطة السكة الحديدية فتدفع هذه الورقة الى رئيس محطتها فيركبك القطار الى سلانيك ، والتفت الى سعيد بك واشار اليه ان يلبس فتوقف ، وقال انه لا يستطيع الخروج من يلدز فى تلك الليلة ، بل يفضل ان يصلح من شأنه قبل الخروج . فاستغرب ابنه ذلك منه وهم بأن يعترض ، فأوقفه الوالد قائلا : « لا بد من بقائى الليلة هنا ، وسأتبعك فى الغد فنلتقى فى سلانيك . فهل عندك شك فىأمر العفو ؟ » . قال : « كلا »

قال : « أستحيى من نفسى أن اخرج فى الأسواق وانا كالنساك . . . وقد قضيت فى هذا المكان أعواما ، وسأبقى فيه يوما آخر ، وفى الغد أخرج وألحق بك فى سلانيك ان لم يكن فى الاستانة »

فتأسف رامز على تمسكه بالبقاء لـكنه قال فى نفسه : « لا بد من سبب بعثه على ذلك » . ثم أشار اليهما أن يتبعاه وتقدمهما فى طريق قصر مالطة حتى بلغوه فأشار الحرسى الى سعيد ان يدخل القصر ، وامر الحراس هناك أن يتسلموه . وقاد رامزا فى طريق بين الاشجار حتى وصل به الى باب من ابواب السور الخارجى ففتحه بمفتاح معه وأشار اليه أن يخرج ، واذا اعترضه احد من الحراس خارج يلدز فليقل له : « الذات الشاهانية » . وهو شعارهم فى ذلك اليوم — وهى أول جملة نطق بها ذلك الحرسى اللثم منذ قدومه ومسيره مع رامز ، ولم يفعل ذلك الا مضطرا . ولما سمع رامز نطقه وجد صوته يشبه صوت عبد الحميد . لـكنه لم ينتبه لذلك الا بعد أن فارقه ، ولم يخطر له ان ذلك الحرسى عبد الحميد نفسه . وانما اعتقد المشابهة بين الصوتين

جمعية الاتحاد والترقى

بلغ من دهاء عبد الحميد انه اراد ان يخفى تهريب رامز حتى عن الحرس، فلبس لباس الحراس ، ومشى بين يدى رامز حتى اخرجه من يلدز . وله من وراء ذلك حكمة لا يدركها الا الذين فطروا على المكر والدهاء . وبعد رجوعه دخل قصره كما يدخل بعض الحرس الخاص . وكان الحرسى الذى لبس ثيابه محبوسا فى بعض الغرف فاخرجه وامره ان يعود الى موقفه فعاد . ولم يشك من رأى عبد الحميد داخلا بلباس الحراس وخروج هذا على اثر ذلك انه هو الحرسى الذى دخل

دخل عبد الحميد قصره وكل هله نيام ، فنزع تلك الملابس وارتدى ثياب نومه ، ومشى الي غرفة المطالعة وهو ساكت يفكر فيما فعله فى تلك الليلة وهل اصاب ام اخطأ ، ووجد على نضد هناك باقة من البنفسج تعود رئيس الفراشين ان يتحفه بها من وقت الى آخر لعلمه انه يحب رائحة هذا الزهر كثيرا فتناول عبد الحميد الباقة وتنشقها فانتعش ، ثم إعادها الى محلها والقى نفسه على مقعد وتنفس الصعداء وهو يهيىء سيكارا ليدخنه. ثم اشعل السيكار وتمدد وبسط رجليه ورفع بصره الى السقف وقد تألقت تلك القاعة بالاضواء وجعل ينفخ الدخان ويتأمل حلقاته وهى تتصاعد متتابعة متعانقة ، وافكاره منصرفة الى ما اتاه فى ذلك اليوم من الامر الغريب . . ثم ناجى نفسه قائلا : « ظن ذلك الشاب انى وثقت به وبوعده، وسيزداد ثقة بصدقى متى اطلقت اباه ! لكن بقاء رامز هنا لا فائدة منه لأنه مصمم على الانكار ، ولا فائدة لى من قتله اذا لم اقتل كبار تلك الجمعية الجهنمية . وزد على ذلك ان شيرين هنا فى قبضة يدى ، وهو لا يعلم ، فاذا علم بعد ذلك انها رهن عندى على وعده اتعب نفسه فى الانجاز . وقد اخبرنى صائب بك انه يتفانى فى حبها ، فاذا جاءنى ولم يفعل ، ولا هى اعترفت بأسماء اولئك الناس ، فتلتهما . ولكن حيلتى ستنطلى على مؤسسي تلك الجمعية ، ويرون من اطلاقى سراح أحدهم بعد ان قبضت عليه صدق نيتى فى التماس آرائهم للاصلاح فيأتينى كبارهم ، ومتى اتوا اذقتهم الموت ، فيخاف رفاقهم وتضعف عزائمهم، وتذهب هذه الجمعية كما ذهب غيرها من قبلها ونخلص منها »

ثم اعتدل فى مجلسه وزمجر كالأسد الجريح ، ووقف بغتة وقد اخذ

الغضب منه وقال : « تبا لكم من اغرار جهال ، لن يبلغ كيدكم كيدى ، ولسوف تذهبون طعاما للاسماك . انى لا ازال اسفك واقتل حتى تخلو الدنيا من المعارضين لى. ومهما يكن من ثقتهم بى فانى على راى ما كيافيلى. لله در هذا الفيلسوف !. صدقت يا ما كيافيلى ان الرجل العظيم لايستطيع أن يستقل بحكمه وينجو من الرقباء والحساد الا اذا أغضى عما يسمونه الشرف والأمانة والوفاء فى معاملته لأعدائه .. ولا بأس عليه اذا ضحى هذه الفضائل فى سبيل المحافظة على الدولة او الوطن واستبدل بها المكر والدهاء ، أو ما يسميه الجهلاء خيانة وغدرا . ليست الخيانة أن احتال على عدوى حتى أظفر به وأقتله ، وانما هو الدهاء . وما فائدة الوفاء اذا اضطرنى الى اطلاق سراح رجل أعرف انه يريد قتلى ... بورك فيك ياماكيافيلى .. نعم يجب أن أقتل كل من شككت فيه او اخشى منه شرا. تلك هى سياسة كبار الرجال. وهى التى سار عليها كبار القواد فى تأسيس الدول . الم يفعل ذلك أبو مسلم الخراسانى نصير العباسيين فى تأسيس دولتهم ؟ .. ألم يفعله بأمر الامام ابراهيم العباسى فكان يقتل على الشك ؟ ولو لم يفعل ذلك لما قامت للدولة العباسية قائمة ؟!. فهل يلام عبد الحميد اذا سار على خطوات ذلك الامام واقتدى بأكبر الفلاسفة العقلاء ؟ »

كان يقول ذلك قولا منقطعا كأنه يخاطب رجلا واقفا بين يديه ، ولو رآه احد يفعل ذلك لظنه أصيب بخبل . فلما فرغ من تلك الاقوال رمى السيكار من يده وتناول باقة البنفسج ومشى يطلب الرقاد فى غرفة من غرف ذلك القصر

نام عبد الحميد فى تلك الليلة نوما متقطعا ، واصبح مبكرا فبعث الى الباشكاتب وأمره أن يستقدم رامزا من قصر مالطة اليه ، فأسرع وأرسل فى طلبه ، فعاد الرسول وأخبر بأنه غير موجود هناك . فاظهر عبد الحميد الاستغراب وقال :« ألم يكن هناك بالأمس ؟ »

قال : « نعم يا مولاى . ولكنهم يقولون ان حرسيا من حراس القصر جاء فى طلبه »

فقال : « انها حيلة انطلت عليهم . كيف تتركون هذا الرجل يفر من بين أيديكم ؟ ما هذا ؟ ! انى لا أقدر أن اثق بأحد من هؤلاء المجانين الخونة!» . وأخذ يكرر أمثال هذه العبارات ويظهر الغضب والحنق ، والباشكاتب واقف لا يرد جوابا . ثم اظهر عبد الحميد انه هدأ روعه وقال للباشكاتب « ما العمل ؟ ينبغى لى أن أتولى كل شىء بنفسى حتى الاحتفاظ بالسجناء؟ فالرجل فر ولا فائدة من تعقب آثاره فى الاستانة ولا بد أنه عائد الى سلانيك ، فلنغتنم فراره ونستدل منه على مقر تلك الجمعية » . واطرق كأنه يعمل فكره ثم قال : « أرسل تلغرافا الى حبيبنا ناظم بك قل له فيه ان رامزا الخائن افلت من أيدينا وعاد الى سلانيك ، فليستقبله ويظهر له

لصداقة ، ثم يراقب حركاته ويقتص آثاره بدون أن يشعر به حتى يقف على مقر تلك الجمعية فيقبض على من يجدهم هناك وليرسلهم الى مكبلين بالحديد أو فليقتل وليفتك .. فاذا استطاع هذه الخدمة رقيناه وأجزناه »

وكان الباشكاتب يسمع اوامر عبد الحميد وهو يعجب لدهائه ، فكتب صورة التلغراف وتلاه عليه فأصلح به بعض الشيء وأمر بارساله حالا ، فخرج وفعل ما امر به . وعاد عبد الحميد الى تفكيره فأعجبه ما اتاه من الدهاء فضحك ضحكة يندر ان يضحك مثلها وقال فى نفسه مع الاعجاب بالذى اتاه : « ينبغى ان ادبر أمورى بنفسى . وهؤلاء اذا صح اخلاصهم فانهم قليلوا التدبير ». ومشى مشية الخيلاء وهو يقول : « اذا صح تدبيرى قضيت على تلك النفوس النجسة وعلمتهم من هو عبد الحميد ! »

ثم وقف هنيهة وقد أخذ يفكر فى أمر شيرين وما دبره من اغراء القادين بها ، وهو لا يشك فى أنها ستنجح فى استنطاقها لاعتقاده بدهائها وذكائها ، وتذكر ما يخافه من حملها ووضعها فقال : « ومتى فرغت من مهمتها اقتلها لاتخلص من حملها ! »

وقضى بقية ذلك اليوم فى مطالعة التقارير التى أتته من جواسيسه المنبثين فى أطراف المملكة وفيها أمور مهمة لكنه لم يهتم بها ، لاشتغاله بتدبيره الجديد

ولما امسى المساء تزيى بزى حرسى الامس وأخرج ابا رامز من يلدز كما فعل برامز

□

خرج رامز من يلدز وهو لا يكاد يصدق انه نجا ، فناداه احد الحراس الواقفين على بضعة امتار من الباب : « من القادم ؟ » فأجابه : « الذات الشاهانية » فوسع له ورحب به ومشى معه حتى تجاوز يلدز واصبح بعيداً عن الظنون

وطال مسير رامز قبل أن يصل الى محطة السكة الحديدية فوصل اليها فى الصباح قبيل مسير القطار ، فدفع البطاقة الى ناظر المحطة فرحب به وأنزله فى القطار المسافر الى سلانيك فى تلك الساعة فى عربة خاصة

فلما جلس فى المركبة وخلا بنفسه عادت اليه هواجسه وراجع فى ذاكرته ما مر به من الاهوال فى ذلك الليل ، واخذ يمنى نفسه قبل كل شيء بمشاهدة شيرين ، لأنه لم يصدق قول ابيها انها هربت ، واذا تحقق هربها الى مناستير أو غيرها سافر اليها . وفكر فى المهمة السياسية التى هو ذاهب بها ، فلم يخامره شك فى صدق عبد الحميد هذه المرة ، اذ لولا صدق نيته فى ذلك لم يطلق سراحه وهو اسير عنده ، ثم أطلق سراح ابيه ، فاعتقد انه صادق فيما قاله . على انه استغرب التماس والده البقاء هناك يوما آخر

فوق السنين التى قضاها فى أعماق السجن ، ولكنه حين آنس منه أصرارا التمس له عذرا أو غرضا . وان كان قد خامره ريب من بقائه واسف لتركه لئلا يحدث ما يوجب اعادته الى السجن، وقال فى نفسه : « لولم يكن للسلطان غرض فى اطلاقه فليس ثمة ما يكرهه عليه »

قضى الطريق فى مثل هذه الهواجس ، وشغل عما يمر به القطار من التلال والاودية والغياض . ووصل الى ســـلانيك فى الضحى فخرج من المحطة بسهولة بتذكرة أعطاه اياها ناظر محطة الآستانة

ولما خرج من المحطة أخرج منديله من جيبه فاذا فيه ورقة مطوية لم يكن يعهدها هناك ، ففضها فاذا هى بخط تذكر انه خط والده ، فقرأها فاذا هو يقول فيها : « احذر من مراقبة ناظم ورجاله السريين خوفا من معرفة مقر الجمعية . افعل ذلك ريثما آتيك » . فدهش واخذ يفكر فيما بعث والده على هذه الكتابة ، فبعثه ذلك على الشك فى ناظم ، ولم يعبأ بما فيها من سوء الظن بالسلطان ، ولكنه عزم على المحاذرة

فأول ما خطر له ان يفعله فى سلانيك ان يذهب الى بيت خطيبته ، ولما اطل على المنزل أخذ قلبه يخفق ، وتصور انه سيلاقى شيرين فى المنزل فشعر بلذة انسته متاعبه واخطاره

وصل الى بيت الحبيبة فرآه مقفلا ، فسأل الجيران عن اهله فقص عليه احدهم خبر غياب شيرين منذ ايام ، وان والدها سافر الى الآستانة ، وأما والدتها فقد سافرت الى مناستير للبحث عنها عند بعض اهلها هناك . فأسقط فى يده ، وتذكر قول طهماز فوجده صادقا فوقع فى حيرة ، واسودت الدنيا فى عينيه ، وحدثته نفسه ان يتبع الوالدة الى مناستير ، لكنه عاد الى التفكير فى المهمة ، فتذكر ان تلك الليلة موعد اجتماع الجمعية فعزم على الذهاب اليها وهو لايخاف انكشاف أمرها للتدبير الذى دبروه فى اخفاء مكانها . ولم يشأ أن يؤجل ذلك الى مجىء أبيه ، فذهب الى الفندق الذى كان نازلا فيه التماسا للراحة ، فوجد رسولا من ناظم فى انتظاره ، وقال له ان حضرة القومندان يطلب مقابلته للترحيب به ، فصدقه وذهب اليه فى قصره ، فرحب به وهنأه برضى الذات الشاهانية عنه ، وعرض عليه ما يريد أن يخدمه به ، فأثنى على فضله . ولولا الورقة التى وجدها فى جيبه لوثق بقوله ، لكنه اعتذر بأنه يطلب الراحة فى هذا اليوم ، فدعاه للنزول عنده فاعتذر ومضى الى الفندق ، وهو يتوقع أن تتبعه الجواسيس ، فلم يلاحظ شيئا من هذا القبيل

□

ارتاح رامز فى الفندق بقية يومه وهو يهيىء ما سيعرضه على الجمعية ، حتى اذا كان العشاء مشى الى قهوة تعود الاعضاء أن يتفرقوا فى أطرافها قبل

الاجتماع ، ليتواعدوا على مكان الاجتماع وكيفية الوصول اليه

وكانت الجمعية مؤلفة من عدد محدود لايزيد على ١٢ عضوا هم لجنة الادارة عليهم رئيس يسمونه « المرخص » تحاشيا من تمييز بعضهم بالرياسة ، وهؤلاء الاعضاء يتعارفون ويجتمعون غير متنكرين للمباحثة فى أعمال الجمعية واصدار الأوامر الى الفروع . أما من ينضم الى الجمعية غير هؤلاء فانه لايتأتى له أن يعرف أعضاء اللجنة معرفة شخصية ، وانما يعرف الشخص الذى يكون واسطة لادخاله فيها ، وذلك ان أحد اعضاء اللجنة اذا عرف شابا من العثمانيين آنس فيه ميلا الى الحرية وحب الاصلاح قربه اليه ، وتدرج فى اطلاعه على وجود جمعية حرة تطلب الاصلاح ، فاذا أحب الانتظام فى سلكها وطلب اليه ذلك وعده بالنظر فى طلبه ، ثم يخاطب اللجنة بشأنه ، فاذا قبلته اعطته رقما يعرف به فى سجلاتها ودعته للحضور فى جلسة سرية تعينها له يحضرها أعضاء اللجنة متنكرين ، فيدخل متهيبا ويقسم اليمين على الانجيل أو القرآن والمسدس ويخرج . وهذا العضو الجديد اذا رأى صديقا له استحسن ضمه الى الجمعية قدم طلبه على يد العضو الذى قدمه قبلا ، واذا قبل يأتى الطالب الجديد للجلسة السرية ويقسم اليمين ويخرج وهو لايعرف غير صديقه الذى أدخله. وأما هذا فصار يعرف اثنين : أحدهما بعده والآخر قبله . واذا أدخل اثنين أو ثلاثة أو أربعة فانه يعرفهم وهم يعرفونه

وهذا التحفظ قائم أيضا فى العلاقة بين الجمعية المركزية وفروعها فى الجهات ، فانها تتفرع أولا الى شعب فى المدن الكبرى ، وللشعبة فروع يقال لها قولات ، وكل شعبة أو قول مؤلف من لجنة ادارية لها رئيس وأعضاء مثل الجمعية المركزية . ومؤسسوا الشعب أصلهم من الجمعية المركزية ، وذلك ان أحد هؤلاء الاعضاء اذا رأى فى نفسه الكفاءة لانشاء شعبة فى بلد من البلاد عرض مشروعه على اللجنة فتخول له انشاءها ، فينتقل الى ذلك البلد ويجتمع بأناس يثق بحريتهم وصدقهم ، ويؤلف معهم لجنة يخبرهم أنها فرع للجمعية المركزية ، ولكنه لايصرح لهم بأسماء أعضائها . ومتى تألفت الشعبة عملت على ادخال الاعضاء بالكيفية التى سنتها الجمعية المركزية ، وهذه اللجنة لا تعرف من أعضاء الجمعية المركزية الا الذى أسس الشعبة

وهكذا يقال فى انشاء الفروع الصغرى فان أحد أعضاء لجنة من لجان الشعب يأخذ على عاتقه انشاء فرع للشعبة ، ويخرج للقرية ويؤلف لجنة من أهل ثقته لايعرفون من أعضاء الشعبة الا هو ، وقس على ذلك

وتختار الجمعية لنشر آرائها صحفا ينشئها افراد منها يظهرون للناس وقد لايظهرون

وكان رامز من اعضاء لجنة الادارة فى سلانيك ؛ فلما أتى القهوة عرف من لقيهم هناك من الاعضاء ، وكانوا قد يئسوا من حياته ، فأخبرهم انه جاء بمهمة ذات بال تغنيهم عما يقاسونه من العذاب ، وأخبروه عن محل الاجتماع

فى بعض أطراف المدينة ودلوه على طريقة الوصول اليه

فتفرقوا من هناك وسار كل منهم الى منزله . وتذكر رامز أباه وظن انه قد يأتى فى أثناء الاجتماع تلك الليلة ، فأسرع الى بيت طهماز ، واوصى الجار اذا جاء رجل صفته كذا وكذا أن يقول له ان رامزا ينتظره فى بيت فلان ، المؤدى الى محل الاجتماع . ولم يلحظ رامز ان احدا يتبعه ، على أنه لم يكترث بذلك لعلمه أن طريقة الوصول الى ذلك المكان لا يستطيع الجواسيس كشفها . فلما كان قبل منتصف الليل خرج من الفندق ومشى فى شارع استطرق منه الى آخر فآخر حتى وصل الى منزل طرقه ففتح له فدخل فيه ثم خرج من باب سرى منه الى زقاق لايهتدى اليه غيرالعارف فاذا تعقبه جاسوس يشك أن ذلك المنزل هو محل الاجتماع ، فاذا دخله وسال عن القوم لا يجد فيه احدا ولا يهتدى الى المكان الذى خرجوا منه . وهو منزل بعض الاجانب ممن لا يجسر رجال الشرطة ولا غيرهم أن يطرقوه ، ولم يكونوا يذهبون الى كل اجتماع فى نفس ذلك الطريق . فأوصى رامز صاحب ذلك المنزل اذا اتى والده أن يرشده الى محل الاجتماع ويخبره عن كلمة السر

فلما صار رامز فى الزقاق اصبح فى مأمن من الرقباء ، ومشى مدة فى طرق مبهمة حتى انتهى الى محفل ماسونى يجتمع فيه الماسونيون ولا حرج عليهم ، وقد أحيط المكان فى تلك الليلة بالرجال من اعضاء الجمعية المنبثين فى جهات مختلفة لا يراهم أحد ، وعليهم العدة والسلاح للدفاع عند الحاجة

فلما وصل الى الباب تلفت حتى تحقق خلو الطريق من الجواسيس ، فطرق الباب طرقا خاصا ففتح له ، ودخل فى دهليز مظلم فى أحد أركانه مصباح وجه نوره نحو الباب بواسطة عدسة مقعرة ليقع النور شديدا على وجه الداخل ، وقد اصطف على الجانبين بعض الرجال فى ملابس سوداء ، وكلهم ملثمون لا يظهر منهم الا عيونهم . فلما دخل رامز رفع الحراس سيوفهم المجردة فوق رأسه ، فرفع يده باشارة خاصة وسعوا له الطريق على اثرها ، فمشى الى غرفة هناك حيث ارتدى فوق ثيابه برداء أسود فى أعلاه لثام يرسل على الوجه عند الحاجة ، ومشى الى قاعة الجلوس يتقدمه احد الحراس ليهديه الى الباب ، فلما وصل اليه قرعه قرعا خاصا ففتح له ودخل . وفى هذه الحجرة ١٢ كرسيا هى مقاعد لجنة الادارة لا يحضر تلك الجلسة سواهم الا باذن خاص ، وكان رامز واحدا منهم . وقبل دخوله افهم الحراس أن أباه سيحضر بعد قليل فعليهم أن يدخلوه الى القاعة بعد الاستيثاق من امره حسب المتبع

وكانت القاعة مربعة الشكل نظمت بها الكراسى بشكل دائرى ، وفى صدرها كرسي الرئيس ، وأمامه منضدة عليها كساء أسود ، وفى منتصف القاعة منضدة أخرى صغيرة عليها الانجيل والقرآن والمسدس ، وفى صدر

القاعة فوق مجلس الرئيس صورة مدحت باشا مجللة بالسواد . فعرف رامز من الأعضاء : الأميرالاى حسن رضا بك من الطوبجية ، والقائمقام فائق بك اركان الحرب ، والبكباشيين اركان الحرب فتحى بك وحقي بك ، والمحامي رفيق بك ، وطلعت بك ، والبكباشى انور بك ، والقائمقام اركان حرب جمال بك ، ورحمى بك . وكانوا جميعا مثله فى ملابس سوداء وقد رفعوا اللثام عن وجوههم

طرق الرئيس المنضدة التى امامه طرقة خاصة ثم قال : « تفتح الجلسة باسم الله وبذكرى مدحت باشا ضحية الدستور »

فوقف الجميع احتراما ثم جلسوا ، وقام الرئيس فقال : « أيها الاخوان ان اخانا رامزا قادم الينا من يلدز فى مهمة خاصة يرجو منها خيرا ، فلنسمع ما يقول »

فوقف رامز وقال : « انتم تعلمون انى اخذت غيلة الى يلدز منذ ايام ، ولعلكم قطعتم الامل من حياتى ، لأن الذاهب الى ذلك المكان كالذاهب الى القبر او الى الجحيم »

فضحك الحضور وقال الرئيس : « علمنا بذلك ، وكانت اخبارك تأتينا بواسطة احد اخواننا الشجعان هناك لا نظنك تعرفه ! »

فاستغرب رامز ذلك وقال : « انى لم اشاهد أحدا لانى كنت هناك فى مكان منعزل عن الناس »

قال : « ان اخانا هناك اخبرنا ببعض ما قاسيته ، وذكر انك كنت مسجونا فى قصر مالطة »

فازداد رامز استغرابا لأنه لم يكن يعرف وجود جاسوس للجمعية هناك ، فقال : « نعم انى كنت مسجونا وقد قاسيت كثيرا ، ولى الشرف بأنى بررت بالقسم الذى اقسمته للمحافظة على أسرار الجمعية المقدسة ، ورغم محاولات السلطان وغيره من رجال القصر والحاحهم على لأبوح بأسماء الأعضاء العاملين ، وكنت أتوقع أن اتشرف بالقتل بعد هذا ، ولكن الاقدار فتحت لى بابا لم يسبق لأحد انه وفق الى مثله ، وفيه منجاة من سفك الدماء والوصول الى المقصود على أهون سبيل »

فتطاول الأعضاء بأعناقهم لسماع حديثه ، وقال الرئيس : « ما هو ذلك الباب ايها الأخ ؟ اننا من ارغب الناس فى المسالمة ، وانت تعلم أن خطة جمعيتنا هذه نيل الدستور وانقاذ الدولة من الدمار بالطرق السلمية ما استطعنا الى ذلك سبيلا »

فقال رامز : « نعم ، أعلم هذا ، ولذلك اعد ما وفقت اليه نجاحا باهرا »

فاستأذن انور بك وقال : « هل يأتى من القصر أمر فيه مصلحة لا يعتوره سفك دماء ؟. انى لا أرى الاصلاح ينال بغير السيف وسفك الدماء »

فقاطعه الرئيس قائلا : « لله درك يا أنور من رجل حرب وحزم ! على أن ذلك لا يمنعنا من الاصغاء الى ما يعرض علينا ، وليس على الله مستحيل »

فعاد أنور الى مجلسه واستأنف رامز كلامه فقال : « أنتم اهل حرب وكفاح يهون عليكم القتل . وأما أنا فاني رب قلم وبحث ، ولا أرى الوصول الى الاصلاح بالحسنى مستحيلا ، ومع ذلك فاني عارض عليكم ما جئت من أجله »

فأصغى الجميع ، وأخذ رامز يقص حديثه مع السلطان حتى وصل الى ما دار بينهما في قاعة قصر جيت ، وكيف اعترف عبد الحميد بخطئه وكلفه أن يخابر أعضاء الجمعية في شأن المجيء اليه ، وأطلق سراحه لهذا الغرض — الى أن قال : « ومما يؤكد لي صدق نية السلطان هذه المرة أنه أطلق سراحي بعد أن كنت في قبضة يده . وكتم نبأ ذلك عن كل انسان حتى لقد تولى اخراجي بنفسه خفية ، وقد أطلق سراح أبي أيضا ، وانتم تعلمون أننا يئسنا من بقائه حيا و . . . »

فلما ذكر اباه ظهرت البغتة على الحاضرين ، ولم يتمالك الرئيس عن قطع حديث رامز قائلا : « أبوك اتى معك ؟ أين هو ؟ »

قال : « لم يأت معي ، اذ استمهلني ريثما يصلح من شأنه ويأتي في الغد . الا تعدون هذه المعاملة دليلا على اقتناع عبد الحميد بخطئه ؟ وانه الهم الرجوع الى الصواب على أيدي الاحرار العثمانيين ؟ »

وكان الكل يسمعون وهم يستغربون هذا الاقتراح ، فلما فرغ من كلامه قال الرئيس يخاطب الأعضاء : « انتم تعلمون قانون جمعيتنا المقدسة ، ولا يخفى عليكم أنه يقضي بالمطالبة بالدستور وقلب الحكومة الاستبدادية بالحسنى بلا سفك دماء على قدر الامكان . ولذلك لا يمكننا رفض اقتراح عبد الحميد مع ما فيه من نيل الدستور على أهون سبيل . ولا يخفى عليكم ايضا ان هذه الجمعية ترى اذا نالت الدستور ان لا تلحق بالسلطان سوءا ، اذ لا رغبة لنا في الانتقام وانما نريد الاصلاح »

فوقف أنور بك ، وشارباه المرتفعان ينتفضان من التأثر ، وقال : « يا اخواني ان اقتراح عبد الحميد جميل ، وحجب الدماء جميل . ولكن نيل الدستور بالحسنى مما يخالف النواميس الطبيعية الاجتماعية التي جرت عليها الأمم من أقدم أزمنة التاريخ . هل سمعتم بأمة نالت حريتها وتخلصت من حكومتها الاستبدادية الا بالسيف ؟ كلا أيها السادة ، ان الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم . ولا اقول : ان نيل الدستور بالحسنى مستحيل ، فالواقع أننا ساعون في

هذا السبيل ، ولـكنني ارى أمر ذلك يطول ، وقد جعلنا هذه الجمعية عسكرية ، واعضاؤها أكثرهم من الضباط الشجعان المثقفين الذين يعرفون قدر الحرية ، أو الـكتاب الاحرار العارفين ، فينبغي لنا أن نبادر الى العمل . هذا هو رأيي ، ولا ارى اقتراح ذلك الطاغية الا حيلة يدبر لنا من ورائها مكيدة »

قال ذلك وجلس بين ضجيج الاستحسان ، وارتفع صوت الضابط الملازم (ك) المعروف بحماسته يقول : « اقتل .. اقتل .. لا يفيد غير ذلك ! » فضحك الجميع معجبين . أما الرئيس فوجه كلامه الى انور بك وقال : « لله درك يا أنور ، وبارك الله فى بسالتك وحزمك ، ان جمعية فيها أمثالك لفائزة باذن الله . ولـكننا نبحث عن اقتراح عرضه علينا السلطان وهو يوافق غرض جمعيتنا . هل نرفضه ؟ »

فنهض القائمقام فائق بك وقال : « أيها الأخ الرئيس ، قد يكون قانون جمعيتنا المقدسة لا يأذن لنا فى رفض هذا الاقتراح . ولـكن التجارب الماضية دلتنا على أن ذلك الطاغية لا يركن اليه ولا يوثق بقوله : فكم استرضى الأحرار بمثل هذه الوعود ثم غدر كما فعل بجمعية باريس . وحديث مراد وغيره أشهر من ان يذكر ، وقد بدأ غدره منذ يوم مبايعته . ألم يعد مدحت باعلان الدستور ثم أخلف ولم يعلنه الا قهرا ثم أفسده وفتك بأصحابه ؟. ان عبد الحميد متأثر بفلسفة مكيافلى الايطالى فى السياسة ، ولا يقرأ غير كتبه التى تعلم الفتك بالناس فى سبيل مصلحة الدولة بلا مبالاة بالشرف ، وقد زاد عليه عبد الحميد باقتداره العجيب على اخفاء عواطفه والتظاهر بما ليس فيه كما تعلمون . ولو أنه اقترح علينا المخابرة كتابة لم يكن ثمة بأس من قبول اقتراحه ؛ أما الذهاب الى يلدز ، مدفن الاحرار ، فانا لا أوافق عليه ؛ بل ارى أننا اليوم في خطر أشد مما كنا فيه قبلا »

فصاح أنور بك قائلا : « هذا حق .. هذا حق »

فنهض رامز وقال : « يحق لـكم الشك فيما سمعتوه ، وقد لبثت حينا بين الشك واليقين ، ولـكنني رأيت الدمع يتساقط من عينى عبد الحميد وهو يتكلم ، واصبح بين يدى كالطفل النادم على ذنب اقترفه خوف العقاب . أما المخابرة بالـكتابة من بعيد فلا تفيد ، لأنه يريد الا يشعر أحد من رجال القصر بهذا الأمر ، لأنه يخشى على حياته منهم اذا شعروا بأنه سينقل النفوذ من أيديهم الى أيدى أعدائهم . وعلى كل حال سيأتى أبى بعد قليل ، وسنسمع رأيه فى ذلك »

فقال الرئيس : « نؤجل الحـكم فى هذه المسألة للتأمل فيها ، واذا شئتم أن نعقد جلسة عامة يجتمع فيها كل الاعضاء فعلنا » . فوافق الجميع على ذلك

مدحت وسعيد

وجه الرئيس كلامه الى رامز بعد انتهاء الجلسة فقال : « لقد شغلنا بهذا البحث عن حديث سعيد بك أبيك ، هل التقيتما فى يلدز ؟ »

قال : « نعم ، وسيكون هنا الليلة أو غدا »

فقال حقى بك : « سعيد بك صديق مدحت باشا لا يزال حيا ؟ »

فقال الرئيس : « نعم ، ونحمد الله على ذلك . ولعل بعضكم لا يدرى مهمة هذا الأخ الجليل ، ولهذا أقصها عليكم باختصار . ان سعيد بك صديق مخلص قديم ، وكان أكثر الأحرار التصاقا بأستاذنا مدحت باشا ، وشاركه جهاده وأكثر مصائبه ونكباته حتى رافقه أخيرا الى منفاه فى الطائف ، وهو يتعشق الدستور الذى ذهب مدحت ضحيته . وقد قص على أنباء الفظائع التى قاساها مدحت فى منفاه من الجوع والتعذيب الى أن انتهى الأمر بقتله على مشهد منه بأيدى ضابطين وسبعة من الجنود الخونة . قتلوه خنقا وقطعوا رأسه وأرسلوه فى صندوق الى يلدز كتبوا عليه أنه يحتوى عاجا يابانيا وأدوات صناعية لجلالة السلطان . قص على سعيد بك ذلك وهو يبكى . ان عبد الحميد قتل مدحت ولكنه لم يقتل روحه وتعاليمه . ووجودنا هنا وسعينا فى سبيل الدستور انما هو نسمة من تلك الروح الطاهرة . وليس ذلك كل أفضال مدحت فانه علمنا تجنب الخطر وعدم الثقة بوعود الطغاة . وقد بعث الى الاحرار العثمانيين بوصية على يد الأخ سعيد بلغنا اياها ، وقال ان هناك وصية مخطوطة كتبها المرحوم وهو فى قصر مالطة يوم قبضوا عليه واخذوا فى محاكمته تلك المحاكمة الظالمة ، وكأنه احس بالخطر القريب وهو هناك فاغتنم انفراده وكتب وصية للأحرار ووضعها فى مخبأ فى قصر مالطة على أن يحملها معه ويدفعها الى بعض خاصته بعد خروجه من ذلك القصر . فأخرج فجأة ولم يمهل ريثما يأخذ الوصية فبقيت هناك . وظن نفسه يعود بعد تقلب الاحوال ، فلما يئس من ذلك واحس بقرب الاجل أسر الى سعيد خبر الوصية ودله على مخبئها فى قصر مالطة ، واوصاه ان ينلوها على الأحرار العثمانيين حيثما وجدوا . فلما عاد سعيد من الطائف أخذ يبث أفكار مدحت سرا ، وانتم تعلمون اكثرها واصبح يترقب الفرص للحصول على الوصية فلم يستطع دخول يلدز بالحيلة الا منذ بضع

عشرة سنة ، ونحن فى انتظار رجوعه الى الآن ! فأنا أعد خبر خروجه فوزا لنا وبشارة تدل على قرب النجاة من أسر الاستبداد واطلاق روح الدستور »

وكان الجميع سكوتا لأن هذا الحديث كان جديدا على مسامع أكثرهم ، حتى رامز لم يكن يعرف من هذه التفاصيل الا قليلا ، فلما فرغ الرئيس من كلامه نهض أنور بك ــ وكان فى أثناء الحديث غارقا فى التفكير ــ وقال : « هل يطول بنا انتظار الأخ سعيد بك ؟ »

فقال رامز : « أرجو أن يكون هنا الليلة أو غدا ، ولعله تأخر ليأتى بالوصية معه ، هذا ما خطر لى الآن على اثر ما سمعته فقد رأيته يرغب فى البقاء هناك يوما آخر ، وقد أوصيت أحد الجيران أن يدله على مجتمعنا اذا أراد أن يأتى »

فقال : « أما وقد دنا مجيئه ومعه وصية مدحت فلنؤجل حكمنا فى هذا الأمر حتى نتلو الوصية ، ولا شك أننا سنجد فيها أمورا مهمة »

وبينما هم فى هذه الحال اذ سمعوا قرع الباب الخارجى فأنصتوا ، وبعد برهة قرع باب القاعة ففتح الحارس فدخل أحد الحراس يقول : « ان اجنبيا لا اعرفه يريد الدخول فلم نأذن له فطلب أن يرى الأخ رامزا »

فتأكد الرئيس أن القادم سعيد بك فأذن لرامز فى الذهاب لاستقدامه ، فخرج ، ولبث الجمع فى انتظاره على أحر من الجمر . وبعد قليل عاد رامز ومعه أبوه ، فأشار الرئيس الى الجميع بالنهوض اجلالا له ، وقال الرئيس : « اننا نقف لك ترحابا بك واقرارا بفضلك فى خدمة الحرية . لانك رسول أستاذنا مدحت »

فحياهم ووقف ، فأشار اليه الرئيس أن يقعد على كرسى بجانبه احتفاء به ، فقعد والدهشة ظاهرة فى طلعته ، وابنه رامز ينظر اليه ويتأمله ، فرأى فيه الصورة التى يعرفها ولم يلحقها الا تغيير قليل . ولما استقر الجلوس بسعيد سكت الجميع فى انتظار ما يقوله . أما هو فمكث هنيهة صامتا مطرقا كأنه تهيب تلك الجلسة ، أو كأنها اذكرته أمورا محزنة ، ثم التفت الى صورة مدحت المعلقة بالحائط وتفرس فيها طويلا والأعضاء ينظرون اليه كأن على رؤوسهم الطير ، فلحظوا قطرات من الدمع تتساقط على لحيته وهو يتجلد ، فأراد الرئيس أن يشغله عن تذكاراته المحزنة فقال : « ان فرحنا بقدومك كثير ، ولا سيما بعد نجاة أخينا رامز من خطر القتل ، ولا شك أنك تشعر بما فى قلوبنا من البهجة بهذا اللقاء ، بل نحن نستبشر خيرا بقدومك يا حامل رسالة أبينا وقدوتنا شهيد الحرية . لا ينبغى أن تحزن عليه فانه لا يزال حيا بيننا حتى تأخذ

بثأره ونتم عمله فيبقى ذكره خالدا .. نحن فى انتظار الوصية المكتوبة . هل وقفت عليها ؟ »

فتنهد وقال : « نعم انها معى ، وقد سجنت من أجلها أعواما ، ولكن السجن حال بينى وبينها وهى أقرب الى من حبل الوريد ، لان أهل بلدز ارتابوا فى مقاصدى فسجنونى وعذبونى لأطلعهم على غرضى من وجودى فى قصر مالطة بلا مناسبة ، فلم أجبهم ، ولم اشأ أن احتال فى الخروج دون الوصول الى هذه الوصية ، حتى اتيح لى النجاة أمس مع ولدى كما أخبركم ، فطلبت البقاء هناك يوما آخر ، فبقيت بلا رقيب ، فأخرجت الوصية من مخبئها وخبأتها بين أثوابى بحيث يستحيل الاطلاع على مكانها » . قال ذلك وأخرج أوراقا تآكلت اطرافها وتهرات لطول دفنها فى التراب ثم دفعها الى الرئيس فشخصت الأبصار وتطاولت الأعناق ترقبا لسماع ما فيها

ونهض سعيد لمساعدة الرئيس فى ترتيب الاوراق ومعرفة أولها وآخرها . وعرف الرئيس خط مدحت فقبله وقال : « هذا خطه رحمه الله » . وعاد الى الترتيب ثم قال : « ان هذه الوصية مكتوبة على عجل . فأسطرها متقطعة اشبه بالمفكرات منها بالوصية ، فأبدأ بما على ظهرها » وقلب الورقة وقرأ : « الدستور ، اطلبوه بالسيف »

فلم يتمالك أنور ان صاح : « حسن .. بالسيف ! بالسيف ! » . فنظر اليه الرئيس بلطف كأنه يوبخه على مقاطعته ، ولم يكن أنور بك ممن يقاطعون بل هو من أعلم الناس بالاصول والقواعد لحفظ النظام ، ولكنه سر بمطابقة قول مدحت لرأيه فغلب عليه فرحه فقال تلك الكلمة . اما الرئيس فعاد الى القراءة فقرأ : « سأذهب ضحية طلب الحرية ، ولكننى فرد لاتذهب بذهابه تلك الروح التى أخذت تدب فى أنفس العثمانيين وتنتشر فى الشبيبة العثمانية ، ولابد ان تزداد انتشارا كل يوم : فموت واحد من الاحرار أو عشرة او مائة لايستطيع أن يقف فى سبيلها . ولذلك اكتب هذه الاسطر أخاطب بها تلك الروح الممثلة فى الشبيبة العثمانية . اثبتوا فى طلب الحق فانكم ستنالونه . لابد من نيل الدستور لأنه حق ، وان طال الأمد على ضياعه . ولكننى أرشدكم الى امور عرفتها بالاختبار الشخصى ، ولو عرفتها قبل الآن لم تصل أيدى الظالمين الى ولا أفلت الدستور من يدى ، ولكنى وثقت ورفقت فذهب سعيى بين الرفق والثقة ، فاحذروا . وهذه وصيتى بالاختصـــــار ، فان الوقت لايساعدنى على التطويل ، وانا مطلوب للوقوف أمام تلك المحكمة الظالمة ، ولا البث أن يحكم على بالقتل او النفى فأكتب مختصرا :

« أولا — علموا الأمة ، رقوا العامة ، ان الجهل سبب كل علة . ولا أعنى التعليم المدرسى كالصرف والنحو والحساب ، ولا الطب والهندسة والقضاء . وانما أعنى تربية الشبان وتدريبهم على الحرية الشخصية واستقلال الفكر وبث

روح الوطنية فى نفوسهم . وهذا يقتضي تعليم المرأة فانها روح الامة ، فاذا ارتقت وتثقفت نشأ ابناؤها على مثالها ، فالأمة التى نساؤها مثقفات راقيات ينشأ ابناؤها اهلا للحرية ولو لم يتعلموا ، فان القصد التربية ، وهذه لاتثبت الا اذا غرست فى الصغر . فأولى وصاياى ترقية الشعب وتدريبه على روح الحرية . ولو كان لهذه الأمة التعسة شيء من ذلك الآن لما رضيت بحل مجلس (المبعوثان) وقتل الدستور وانصاره وهى نائمة لا ترفع صوتا ولا تجرد سيفا

« ثانيا ــ احذروا الشقاق بين العناصر والأديان . ان الدستور العثمانى يحتاج الى هذه الوصية أكثر منه الى سائر الوصايا ، وذلك لاختلاف العناصر والمذاهب فى بلادنا . دعوا التعصب الجنسي او المذهبى واتحدوا فىالعثمانية : لاتذكروا الاسلام والنصرانيـــة واليهودية ، ولا التركى والعربي والرومى والبلغارى والالبانى ، غضوا الطرف عن هذه الاختلافات لأنها أكبر سلاح يحاربكم به اعداء الحرية الظالمون . هم يفرقون بين العنـــاصر والمذاهب ليستتب الأمر لاستبدادهم ويأمنوا اجتماع الأيدى على مقاومتهم . كلكم مظلوم وكلكم موتور ، ان الظلم لا يخص طائفة دون اخرى ولا مذهبا دون آخر ، فاتحدوا

« ثالثا ــ اجعلوا معولكم فىالدفاع على الجندية . الفوا الجمعيات السرية وادخلوا الجند فيها . الجند هم الأمة ، وبأسيافهم يحمى الدستور وتستقر الحرية . ان لم يكن الجند معكم فسعيكم فى سبيل الحرية يذهب عبثـــا . بالجند حاربنا هذا الطاغية ، ولو كانت الجندية معنا لفعلنا كما نشاء . لا تفلح أمة فى طلب حق من حكومتها ان لم يكن الجند نصيرها ، ويشترط أن يكون متعلما مثقفا . عولوا على الضباط . فان العساكر يجعلهم الجهل اتباعا لكل ناعق . اما الضابط المتعلم ذو الفضيلة فانه سيف قاطع . اجعلوا معولكم على الضـــباط المتعلمين فهم وحدهم يدركون معنى الحرية وهم وحدهم يحمونها بأسيافهم »

وهنا حدثت تمتمة ، ولوأتيح للسامعينالكلام لصاحوا : «لتحيىالجندية» . ثم عاد الرئيس الى القراءة فقال :

« رابعا ــ وهذه وصية خاصة أحرضكم على العمل بها فقد كلفتنىحياتى وحياة كثيرين امثالى من الاحرار . ان الحر الصادق سريع التصديق كثير الوثوق ، وقد يجره وثوقه الى الخطر ، لأن الناسحوله علىغير ذلك ، ولاسيما عبد الحميد . اذا وصلت وصيتى اليكم وهو حى فأوصيكم أن لاتثقوا بأقواله ولو أقسم ، فانه كاذب . احذروا الوثوق به ، فان الوثوق جرنى الى الموت . لا تصدقوه ولو أقسم وظهرت علامات الصدق فى وجهه ، فان ذلك الوجه لا مثيل له من حيث التلون . ان فيه شيئا لا اعرفه فى سائر الوجوه يوهمك منظره انه صادق وما هو كذلك . له قدرة غريبة على اقناع مخاطبه ، وقد

يتظاهر بالبكاء ندما واسفا وهو ينوى غير ما يقول فاحذروه »

فلما بلغ الرئيس الى هنا وقف انور بك وقال : « استاذن الاخ الرئيس فى ان أقول فليحى مدحت أبو الاحرار . . هذا هو الراى الصواب ، وقد جاء قوله فصل الخطاب »

فابتسم الرئيس وعاد الى القراءة فقرا :

«خامسا ــ بقيت وصية ربما تعجبون منها فان الحرية تقتضي العدل والرفق وحجب الدماء ، ولكنها لا تنال الا بسفك الدماء . فافتكوا بالأفراد الذين يقفون فى سبيل أغراضكم ، لأن رجلا واحدا شريرا قد يكون وجوده سببا فى خراب أمة أو ضياع حقوقها . فاذا كان الحق لايقضي بقتله فالسياسة تقتضيه . افتكوا بالأشرار ، اقتلوهم . واذا كانت الجندية معكم فليس أهون عليكم من ذلك . كل من تأكدتم سعيه ضد الحرية والدستور فاقتلوه وأنا المسئول عن ذنبكم بقتله . انكم بمثل ذلك تحيون أمتكم ، ولواتيح لى أن اعرف ذلك من قبل لكنتم الآن رافلين فى بحبوحة الدستور ، ولكن تلك سنة الله فى خلقه يستفيد الابناء من اختبار الآباء »

ولما وصل الرئيس فى الوصية الى هنا تنفس الصعداء ، ولم يتكلم احد الا الشاب الملازم لـ . فانه تنحنح تصــــديقا لما سمعه ، وعاد الرئيس الى القراءة فقال :

« سادسا ــ اذا أتيح لكم الفوز بالدستور فاحذروا ان تبقوا هذا الطاغية على كرسى السلطنة ، وان ظهر لكم انه تاب ورجع ، فانه يظهر غير ما يضمر

« سابعا ــ لى وصية أخرى تتعلق بتوارث الملك فى الدولة العثمانية . ان طريقة التوارث الجارية الى اليوم لا تخلو من الخطر على الدولة اذ يكون ولى العهد شخصا معينا هو أكبر أبناء السلاطين سنا ، فقد يتفق أن يكون غير كفء لادارة امور الدولة ، فاذا اعلن الدســـتور وصارت الحكومة العثمانية دستورية أصبحت مقاليدها فى أيدى النواب ، فينبغى ان ينظروا فى توارث الملك . انه عظيم الأهمية ان لم يكن حال الانقلاب فبعده عند سنوح الفرصة . والذى اراه ان يبقى حق السيادة فى آل عثمان يتوارثونها على أن يكون كل بالغ من ابنائهم مرشحا لولاية العهد ، وانما يكون للأمة أو مجلس نوابها أن يختار منهم من يجد فيه الكفاءة لهذا المنصب . لا انكر ما يعتور هذه الوصية من العقبات ولكنها لازمة

« أخيرا أستودعكم الله وأنا ذاهب لاموت فى سبيل الدستور . . (مدحت) . . »

وقعد الرئيس بعد تلاوة الوصية ثم قال : « قد سمعتم هــذه الوصايا الثمينة ، وبعضها قد سمعناه شفاها من أخينا سعيد ، وبعضها جرتنا اليه الحوادث واقتضته الأحوال . فما رأيكم ؟ »

فنهض المحامى رفيق بك وقال : « ان بعض هذه الوصية قد عملنا به على

قدر الامكان ، وبعضها يحتاج الى نظر . فنرجو من حضرة الاخ الرئيس ان يعرض هذه المسائل واحدة واحدة ويأخذ الآراء فى شأنها »

فقال الرئيس : « ان تربية الأمة أمر اقتضته طبيعة العمران ، وان كنا لم نستطع شيئا كثيرا لوقوف حكومة الاستبداد فى طريقنا . أما الجمع بين العناصر فاننا ساعون فيه ، ووصية ابينا وأستاذنا مدحت تجعلنا نسير فيه الى النهاية . وهكذا وصيته فى التعويل على الجندية فانها خطتنا الجديدة ، وقد وصلنا اليها بعد طول الاختبار ، ونعم الرأى هو . أما تحذيره ايانا من عبد الحميد وعدم الركون الى مواعيده فقد اتى ابان الحاجة اليه ، ونحن فى اضطراب وتردد . واظن هذه الوصية تكفى للفصل فى هذه المسألة . فهل تترددون فى رفض اقتراح عبد الحميد الذى اتانا به الأخ رامز ؟ » . واشار الى الأعضاء يطلب رأيهم فى ذلك . فصاحوا بصوت واحد : « مرفوض »

فقال الرئيس : « والفتك . ما رأيكم فيه ؟ . ان غرضنا حتى الساعة ان ننال الدستور بلا فتك ولا قتل ، ولكن أستاذنا مدحت يلح فى تحريضنا على الفتك فما قولكم ؟ »

فوقف أنور بك وقال : « ان أستاذنا حدد الحالة التى يجوز فيها الفتك ، اذا وجد شخص كثير الأذى للأحرار ، وكان وجوده حجر عثرة فى سبيل مقاصدنا فلنقتله . ان هذه سياسة يقضي بها العقل والعدل . فان قتل شخص واحد أفضل من ضياع حقوق امة برمتها ! »

فاستأذن الملازم ك للكلام ، وهو شاب فى حدود الخامسة والعشرين من عمره ، وقد امتلأ صدره حماسة ، ولمعت عيناه ذكاء وحدة ، فبش له الرئيس وأذن فقال : « اذا كانت السياسة لا تقضى بهذا الفتك بأعدائنا فالحق يقضى به . ان أهل القصر وأتباعهم أعداء لنا ، وهم يقتلون منا العشرات فضلا عن قتل الحرية واماتة الشعائر . وشريعة الحرب تجيز ان نقتل منهم من يقف فى طريقنا . هم يقتلون منا طلاب الدستور ونحن نقتل من يسعى فى قتل الحرية والأحرار ، وكل واحد منا يساوى مئات منهم » . قال ذلك وعيناه تبرقان ، وصدق اللهجة ظاهر فى كل حركة من حركاته

فأشار له الرئيس مبتسما أن يقعد ، وقال مخاطبا الأعضاء : « هل توافقون على الفتك عند الحاجة ؟ . هذه خطوة جديدة فى جمعيتنا ، فتأملوا قبل اقرارها ، انها خطوة مهمة جدا . فما قولكم ؟ »

فاستأذن سعيد فى الكلام فأذن له فقال : « ان هذه السنة قديمة ، وانا أعتقد انها ستكون الدواء الناجع لهذه الحالة . انكم تفتكون ببضعة من كبار الظالمين حتى تصغر نفوسهم ويهابوكم ، اذ يعلمون انكم لا تقتصرون فى الدفاع عن الحرية والمطالبة بها على الأقلام ، ولكنكم تدافعون بالسيوف أيضا . وهؤلاء القوم لايفهمون الا بالارهاب ، فخاطبوهم بلسانهم وانا الضمين بفوزكم باذن الله »

وكان لكلام سعيد وقع عظيم فى نفوس الحضور حتى لم يبق الا من وافق على هذا الرأى ، ولما عرضه الرئيس على الاكثرية وافقوا عليه بالاجماع . وكان رجال العسكرية أكثر سرورا به لأنهم اهل سيف .. ومع ذلك وقف الرئيس وقال : « نقبل هذا القرار رغم ارادتنا ، لأنه مخالف للخطة التى رسمناها من أول إنشاء جمعيتنا ، لكننا قبلناها أولا لأنها وصـــية أستاذنا ، وثانيا لأن السياسة تقتضيها ، وقد أقرها الاعضاء »

ثم عرض مسألة بقاء عبد الحميد على العرش اذا حصلوا على الدستور ، فاختلفت الآراء فيه ، واتفق الرأى على أن ينظر فى ذلك فيما بعد . فاذا وفقوا الى نيل الدستور تصرفوا حسب الاحوال

ثم أوعز الرئيس الى الكاتب أن يبلغ هذا القرار الى شعب الجمعية فى مناستير وغيرها فأجاب مطيعا . ثم سأله الرئيس : « كم الساعة ؟ »

فقال الكاتب : « الثانية بعد نصف الليل »

فقال الرئيس : « لم يأتنا خبر حتى الساعة من الأخ المقيم فى يلدز ، وقد عودنا أن يرسل الاخبار كل يوم أو يومين »

فقال الكاتب : « لم يتأخر عن الارسال ، فقد اتتنى رسالته فى هذا المساء وهى مكتوبة بالشفرة كالعادة ، ولم أتمكن من حلها قبل مجيئى »

فاستأذن رامز فى أن يساعده فى حلها لأنه خبير بذلك فأذن له . ثم اعلن الرئيس رفع الجلسة عشر دقائق ريثما يفرغ الكاتب ورامز من حل رموز تلك الرسالة ، فنهضوا وخرجوا الى قاعة الاستراحة ، والتفوا جميعا حول سعيد بك ، وجعلوا يسألونه عمــا مر به من الأهوال ويتحادثون ويتفاوضون ، وتناولوا بعض المنعشات . ثم عادوا الى الجلسة فقال الرئيس للكاتب : « هل فى رسالة أخينا شىء جديد ؟ .. اقرأها »

فقرأ : « خذوا حذركم . ان المسألة أخذت دورا جديدا . انتبهوا جيدا . ان الطاغية بعث الى ناظم بك قومندان سلانيك أن يفتك بالجمعية ويقتل على الشبهة ، فمن قدر أن يقبض عليه ويرسله الى سلانيك أرسله ، والا فهو مفوض بالقتل سريعا ، وله الجوائز على ذلك . واخشى أن يطلع على محل الجمعية فيباغتكم برجاله .. خذوا حذركم »

وكان الكاتب يقرأ والقوم صامتون مبغوتون ، فلما فرغ من القراءة ضج الحضور ، وكان أعلاهم صوتا الملازم ك . فانه قال : « قد اقترب أجله . قولوا رحمة الله عليه »

فعجبوا من تعبيره وفرحوا بحماسته ، وقال الرئيس : « قد سمعتم ما جاءنا من أخينا فى يلدز عن ناظم بك ، فما قولكم ؟ »

فقال انور بك : « ينبغى أن يذهب هــذا الرجل من الوجود »

فقال الرئيس : « ان هذا العمل يستلزم أن يكون فى الجمعية فدائيون يبذلون أرواحهم فى هذا السبيل ، كما فى الجمعيات السياسية بأوربا ، ونحن لم نتعود ذلك بعد ، فينبغى أن ندبر تدبيرا جديدا »

فوقف رامز وقال : « ان ناظم هذا أساءنى ، وأنا أولى الناس بقتله »

فتصدى الملازم ك . وضحك وهو يقول : « لا تتعد يا رامز على ما ليس من شانك . انما أنت أهل لكتابة المقالات ونظم الأشعار ، فاذا احتجنا الى ذلك يوما فلا غنى لنا عنك . أما اعدام هذا الرجل فعلى أنا . اقول ذلك واطلبه بالحاح . أنا اعدم ناظم بك من الوجود غدا »

فأعجب الجميع بشجاعته وثبات جاشه وقال له الرئيس : « تتعهد بقتل ناظم ؟ أنت اذن أول فدائى فى سبيل الدستور ، فاذا بقيت حيا فلك

قال : « فأنت أول فدائى فى سبيل الدستور ، فاذا بقيت حيا فلك الفضل يتناقله الناس ، وليس فى الأحياء من العثمانيين من عمل عملك . واذا مت فليس فى الأموات منهم من سبقك الى ذلك »

ونهض الرئيس ودعاه اليه فقبله فى رأسه ودعا له بالنجاه من ذلك الخطر ، فقال الشاب : « لم أقدم على هذا العمل وأنا خائف من الموت لا بد من الخطر فى سبيل الحرية ، فاذا مت فاذكرونى عند أهلى »

ثم اجتمعوا جميعا فى وسط القاعة حول القرآن والانجيل والمسدس ، وأقسموا على الثبات والكتمان حتى يقضى الله بما يشاء . وودع بعضهم بعضا وقد قرب الفجر ، واخذوا فى الخروج من باب سرى غير الذى دخلوا منه يؤدى الى زقاق ضيق لا يفطن له أحد

وبينما هم فى ذلك اذ استوقفهم أحد حراس المحفل فرجعوا فقال : « شاهدت رجلا متنكرا أكثر من المرور ذهابا وايابا فى الشارع المؤدى الى المحفل فى هذه الليلة . ويظهر من مشيته وحركاته انه ناظم بك القومندان أو رجل يشبهه »

فلما سمعوا قوله أجفل رامز والتفت أبوه اليه وقال له : « الم اقل لك أنه سيراقب خطواتك ؟ »

فمد الضابط الملازم يده اليهم وقال : « لا تتعبوا انفسكم بالحذر من هذا الملعون ، فانه لن يملك فرصة يستفيد بها من معرفة مكاننا »

فتحمس القوم عند اظهار هذه البسالة وقالوا له : « بورك فيك من فدائى شريف ووقاك الله غائلة الظالمين . وجعلك قدوة أقرانك فى هذا السبيل الجديد . أنت أول فدائى فى طلب الدستور » . ثم اخذوا فى الانصراف متسللين

فى حريم يلدز

تركنا شيرين وقد أمر عبد الحميد بارسالها الى القادين ج . لتحتال لاستجوابها ، وكانت هذه القادين تقيم بقصر خاص بها مثل سائر المحظيات وهن اثنتا عشرة منهن أربع زوجات شرعيات . واـكل منهن قصر خاص فيه دائرة خاصة فيها الباشكاتبة والخازنة والمهردار والاسفنجى وعدد من الخدم والخصيان والجوارى . ولا تخرج القادين من القصر لسبب من الاسباب

واصل القادين فى الغالب سرية من السرارى المجلوبة الى قصر يلدز ، وقد بلغ عدد السرارى هناك حينذاك حوالى ثلاثمائة . وللسرارى فى تربيتهن وتدريبهن قواعد خاصة . وأكثرهن شركسيات وفيهن الروميات وغيرهن من الأجناس العثمانية الاخرى . والغالب فيهن أن يجلبن صغيرات الى يلدز بالبيع أو على سبيل الهدايا من الأهل أو بعض الاعيان . ويندر أن يقبل عبد الحميد جارية على سبيل الهدية من الأعيان خوفا من دسيسة أو غدر ، قياسا على ما يفعله هو مع سائر الناس

فاذا دخلت السرية يلدز نسيت كل ما هو فى الخارج حتى اهلهـــا واصدقاءها . ويتولى تربيتها نساء يطلق على كل منهن لقب (باش قلفه) . وهن كلهن يرجعن الى السلطانة الوالدة سيدة دار الحريم . وتبقى السرية سنتين أول الأمر تتدرب فيهما على ما يسر السلطان من حسن الهندام او الأحاديث أو غير ذلك من مشيها ووقوفها وجلوسها على نسق خاص . كما يعلمونها بعض الأشعار او الطرائف . ويعودونها سرعة الفهم بالرمز وغير ذلك مما يطول شرحه

فاذا احرزت الفتاة قبولا ، وظهرت فيها المواهب التى تؤهلها لرضى السلطان ســموها « كوزده » ، فاذا تخطت الرتبـة الأولى وحازت الاستحسان سموها « اقبال » ، فاذا حملت الاقبال صارت قادين فيفرد لها قصر خاص كما تقدم . لـكنها لا تعد زوجة شرعية الا متى توفيت احدى الزوجات الاربع ، فتحل احداهن محلهـا على حسب اختيــار السلطان

فيبقى مئــات من السرارى على اختلاف طبقاتهن يتوقعن لفتة من السلطان . ونساء القصر كلهن تابعات للسلطانة الوالدة ، واذا توفيت

حلت احدى الخوازن أو كبيرتهن محلهـا ، ويسمونها أيضا (السلطانة الوالدة) . كأنه لقب المنصب لا لقب النسب

وفى كل قصر من قصـور النسـاء طائفة من الخصيان والجوارى والسرارى للخدمة والتدريب . وعلى الخصيان رئيس يسمونه الباش أغا . وقد تداول هذا المنصب غير واحد فى زمن عبد الحميد آخرهم نادر اغا . وصاحب هذا المنصب من أكبر أصحاب النفوذ والسطوة لثقة السلطان فيه وركونه اليه . وقد مر زمن كان الباش أغا فيه أقوى شوكة فى الدولة من اكبر الوزراء . وذكروا أن زكى باشا أرادت الدولة ارساله قائدا لعساكرها فى طرابلس الغرب فجاء لوداع الباش أغا ، وهو يومئذ بهرام أغا ، فدخل عليه وهو فى مجلس حافل فوقف بين يديه وقال : « يا مولاى ان الدولة عينت عبدكم قائدا على عساكرها فى طرابلس الغرب ، ولى امنية التمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لى حرزا من ريب الدهر ، وهى تقبيل يدكم الشريفة » . فقهقه بهرام أغا وقال له : « متى وصل قدركم ان يتعدى رجلى الى يدى ؟! »

ويذكرون من نوادر هذا الأغا انه خرج الى ظاهر السراى فى الوقت الذى وصل الروسيون الغزاة فيـه الى سان استفانو ، وساد الفزع الأكبر ، وشغل السلطان بتدبير ما يؤول اليه العرش العثمانى الذى أورثه اياه آباؤه وأجداده العظام ، فدخل عليه الأغا وقال له : « لا يهتم مولانا الأعظم ، فقد خرجت الى ظاهر القصر ، ونظرت يمينا وشمالا فوجدت لجميع ما انتهى اليه بصرى هو ملك جلالتك فلا تحزن فانه يكفينا ! »

ومن أدلة نفوذ اولئك الخصيان أن بهرام هذا منع عبد الحميد من ارسال جند عثمانى الى مصر فى أثناء الحوادث العرابية ، وكانت انجلترا قد أوعزت اليه أن يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها ، فزعم الأغا المذكور أن السلطان اذا أرسـل جنودا الى مصر لم يبق فى يلدز من يحافظ على حياته !

ويلى الباش اغا من الخصيان طبقة المصاحبين ، واشتهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن فى زمن عبد الحميد

□

دخلت شيرين قصر القادين ج . فبهرها ما فيه من الرياش الفاخر الثمين ، واستغربت كثرة من فيـه من الخدم والخصيان والجوارى ، ومشى بها الأغا حتى ادخلها القصر ، ونساؤه وجواريه يرفلن فى الألبسة الفاخرة بلا حجاب ولا نقاب ، وفيهن البارعات الجمال . ولا غرو فانهن منتقيات من آلوف الجوارى حملن للاتجار بالجمال وخصصن لرضى سلطان

آل عثمان صاحب الشوكة والاقتدار فى ذلك العهد ، والناس يتسابقون الى الارتزاق بما يرضيه

لم يقع نظر شيرين على أجمل ممن هنالك ، ولم تكن تجهل الغرض من جمعهن هناك ، فتألمت فى نفسها ، لكنها شغلت بالنظر الى من بين يديها من الفتيات ، كما شغلن بها وان نفرن منها لأنها غريبة وكن أكثر استئناسا بالعبيد والخصيان منهن بها رغم ما فى وجهها من الدعة واللطف . اذ يندر أن يدخل تلك القصور أحد من الغرباء

وصلت شيرين الى قاعة فى ذلك القصر كانت القادين ج قد اتكأت فيها على مقعد مكسو بالسجاد ، وتمددت بغير كلفة أو حذر ، وبين يديها المهرج المضحك وغيره من الخصيان الذين أتقنوا بعض أسباب اللهو من الالعاب ونحوها

فلما أطل نادر أغا على تلك القاعة وشعر الجوارى والخصيان بقدومه تنافروا وتفرقوا فى دهاليز القصر تهيبا من سيدهم وولى امرهم . اما القادين فلما أنبئت بقدوم الباش اغا اعتدلت فى مجلسها وابتسمت له فدخل وحيى وأومأ الى شيرين كأنه يقدمها لها وقال : « أقدم لك هذه الفتاة ، واسمها شيرين . وقد أمر مولانا البادشاه أن تكون ضيفتك مبالغة فى اكرامها ورغبة فى استئناسها »

فتحفزت القادين للقيام اظهارا لاحترامها أمر الخليفة وقالت : « كلنا عبيد أمير المؤمنين غارقون فى نعمه وآلائه » . والتفتت الى شيرين ومدت يدها فصافحتها وأمرتها بالجلوس وقالت : « لقد أتيت أهلا ووطئت سهلا انزلى على الرحب والسعة »

فخجلت شيرين من هذا الاطراء ، واستأنست بالقادين وكادت وحشتها تذهب . أما نادر أغا فانه تحول عنهما وهو يقول للقادين : « لم تبق حاجة الى التوصية بعد أن أخبرتك برغبة أمير المؤمنين »

وحالما خرج تراجع الجوارى من الدهاليز الى الدار وهن يتضاحكن ويتغامزن وبينهن البارعات فى الجمال ، وقد أرخين شعورهن على غير كلفة . وبعضهن اختص بحمل ما تلهو به القادين لقتل الوقت . فاحداهن وكلت بتربية ببغاء جميل اللون اتقن التقليد ، وأخرى تلاعب قطة جميلة من قطط انقرة الحسنة الشعر الجميلة الألوان . وأخرى تحمل ورق اللعب أو غيره من أسباب اللهو . ولما راين شيرين أخذن يتفرسن فيها ويتساءلن من عسى أن تكون ؟ وليس عليها ثياب الجوارى أول قدومهن ، ولا عهدنها فى القصر من قبل . ولا هى كوزدة ولا اقبال . على انهن لبثن ينتظرن ما يبدو من أمرها وهن لاهيات مسرورات . الا القادين فانها مع ما اظهرته من البشاشة والاستئناس بضيفتها كانت الهواجس مستترة بين حناياها لما قام فى نفسها

من الشك فى حب عبد الحميد لها ، رغم ما اظهره بالأمس من رجوعه إلى سابق عهدهما . ولم يفتها أنه انما اظهر ذلك تملقا لها حتى يقضى ما فى نفسه ، لكن حبها له كان يخدعها حتى تصدق دعواه وتتوهم أنه يحبها ، وما زالت ترجو نيل بغيتها وتقديمهـا متى وضعت حملهـا ، فاذا كان غلاما ارتفعت منزلتها

أما شيرين فلما رأت ما يحدق بها من أسباب اللهو والقصف نفر قلبها من تلك الحالة ، لـكنها تجلدت وسكتت . واحست القادين بوحشتها وهى تريد أن تتملقها للغرض المقصود من مجيئها خدمة لأغراض مولاها ، فهشت لها وقالت : « اراك تحسين بالوحشة لأنك فى وسط لم تتعوذيه ، لـكنك لا تلبثين أن تألفيه . وقد سرنى اختصاص أمير المؤمنين هذا القصر بنزولك فيه اذ جعلك ضيفة على ، وهذا من حسن حظى ، وأرجو أن تتحققى سرورى بقربك لما اقرؤ فى محياك من آيات اللطف والذكاء ، فعسى أن تكونى سلوة لى فى وحدتى . والآن ينبغى لى أن ابذل جهدى فى تسليتك » . وأومأت الى جارية جاثية بقرب مقعدها تلاعب قطة جميلة ، فنهضت ودفعت القطة اليها فتناولتها القادين وادنتها من خدها وجعلت تتلذذ بنعومة شعرها اذا لمس خدها وهى تخاطب الجارية قائلة : « أحب أن أرى الخازنة »

فاسرعت الجارية ثم عادت والخازنة وراءها ، وهى امرأة كهلة كانت القادين تحبها وتثق بها وتعول عليها ، وأصلها من البانيا وطن شيرين ، وقد جيء بها الى يلدز وشبت هناك وارتفعت حتى صارت خازنة القادين ج ، وكانت هذه تقربها وتركن اليها بأسرارها وتعدها صديقة لها . فأحبت أن تستعين بها على اجتذاب قلب شيرين للغرض المقصود من نزولها هناك . فلما جاءت فى تلك الساعة قدمتها الى شيرين قائلة : « « هـذه خازنتى وصديقتى قطينة ، وهى من بلدك لأن أصلها من جهات مناستير »

فصافحتها شيرين وتفرست فيها فرأت الجمال لا يزال باديا فى محياها وملامح الالبانيين ظاهرة فيها ، فأحست بارتياح لرؤيتها ، وتحركت لتهيىء لها مجلسا فاذا بالقادين تخاطبها قائلة : « قد دعوتك لأعرفك الى ضيفتنا ولكى تساعدينى فى تهيئة ما يسرها ، فدبرى ما ترينه »

فذهبت قطينة ولم يمض يسير حتى جاء المهرج فدنا من القادين ورفع يده بالتحية العسكرية ثم أشار بعينيه نحو شيرين اشارة استفهام مع مداعبة ، فقالت له القادين : « هذه ضيفتنا ، ينبغى لنا أن نسرها وننسيها الوحشة ، فاذا كنت لا تستطيع ذلك فامض بسلام »

فأدار عمامته حتى مالت على أذنه اليمنى وقال : « أول الـكلام خصام ؟ ان لم يعجب هذه الجميلة كلامى فلا بد انهـا تضحـك من رشاقة قوامى وحسن هندامى . ولكن اذا أمرت مولاتنا بمن يغنين او يرقصن كان ذلك أدعى الى السرور »

فاعجبها ذكر الرقص والغناء فأشارت الى الخازنة اشارة خاصة ، فغابت هذه قليلا ، ثم جاءت ومعها فتاة طويلة القامة فى زى خاص بالراقصات ، وحول زنديها الاساور والدمالج ، تحمل دفا تنقر عليه وترقص ، ومعهـا عوادة أخذت تسوى عودها ، وقد جلست الاربعاء على البساط ، وجعلت تنقر نقرا يناسب حركات الرقص ، وبذلت كل واحدة جهـدها فى اتقان ما عهد اليها ، والقادين تلاطف شيرين بالحديث عن حركات الرقص او الحان الغناء ، وأكثره من اللحن التركي والروسي ، وشيرين تظهر امتنانها من ذلك التلطف . لكن القادين ادركت بفراستها أن ذلك لم يشغلها عن هواجسها ، فأشارت باخراج القوم وقالت لشيرين : « يظهر انك لم تطربى لهذه الانغام ان عندنا جارية تقلد كل اصوات الحيوانات الأهلية كالديك والـكلب والماعز وغيرها » . وأومأت الى جارية سوداء هناك فسمعت شيرين صوتا كأنه صياح الديك ، فأجفلت والتفتت الى جهة الصـوت ، فرأت جارية قادمة تحمل ببغاء فظنتها تحمل ذيكا ، فلحظت القادين انها تتوهم ذلك فقالت : اظنك تحسبين ديكا يصيح ؟ انه صوت تلك الجارية » . واشارت اليهـا فجاءت وهي تقلد الديك فى مشيتها ، ثم غيرت مشيتها الى ما يشبه الكلب ، واخذت فى العواء ، ثم قلدت الفرس والحمار ، وقد علت القهقهة ، فشاركتهم شيرين ولكن ذلك كله لم يصرفها عن التفكير فى رامز ورغبتها فى معرفة مكانه. وكانت لما رأت رغبة القادين فى مؤانستها قد عزمت على استخدامهـا فى استطلاع خبره او الوصول اليه

ولم تكن القادين من المنهمكات فى اللهو أو اللعب مثل سائر نساء القصر ولكنها قلدتهن فيما يرغبن فيه من القصـف ، ولو تركت لنفسها لكانت اقرب الى الرزانة والتعقل والدهاء . ولكن للوسط تأثيرا فى الأخلاق والاطوار ، وما دار النساء فى يلدز الا ملهى لعبد الحميد ، لا يأتيه الا اذا أراد أن يلهو ، فتتجه الأفكار الى هذا الغرض . وما بالك بنســاء لا عمل لهن غير الأكل والشرب وهن فى الغالب جاهلات ؟. ففيم يقضين أوقاتهن ان لم يكن فى اللعب والغناء والرقص وتربية السنانير والطيور ، والتعلل بالأكل والمضغ أو الأحاديث الفارغة عن الجان والعفاريت ؟ ! ذلك كان شأن النساء فى يلدز الا القادين ج، فانها كانت أقربهن الى الرزانة والتعقل فأدركت أن شيرين لم يفرحها ذلك العمل فأمسكت بيدها وأنهضتها وهى تقول : « هلم بنا الى غرفتى »

□

نهضت شيرين ومشت حتى دخلت دهليز القصر وشاهدت ما هناك من التحف الثمينة والفرش الوثير ، وتذكرت أن عند عبد الحميد اثنتى عشرة قادين لـكل منهن قصر مثل هـذا بفرشه وأثاثه وخدمه وخصيانه ، غير

قصوره الاخرى ، وغير ما فى يلدز من منازل الحاشية والياوران والمشايخ وغير هم، وناهيك بالحراس الألبان . فلم تعد تستغرب ما كانت تسمعه من الأحرار فى عرض انتقادهم من أن فى تلك القصور خمسة آلاف من النساء والجوارى والخصيان والياوران ، وسبعة آلاف جندى من الألبان . وان نفقاتها ٣٥ الف جنيه فى الشهر ، وأنهم يهيئون كل ليلة ١٧٠٠ مائدة تفرق فى القصور وغيرها ، ويبقى من الأطعمة ما يقتات به مئات ، ثم يوزع باقيه فى بعض العائلات

فلما تصورت ذلك اسفت لما يتنعم به الظالمون منأموالالمظلومين ، وعجبت كيف يسود رجل سفاح كعبد الحميد فيقبض على رجل حر نزيه كرامز وأمثاله . واحست عند تذكرها رامزا بقشعريرة ، وانتفض جسمها خوفا عليه لئلا يكون قد أصابه سوء ، وعزمت على أن تخاطب القادين بشأنه فى أول فرصة . فلما وصلتا الى غرفة القادين الخاصة دعتها هذه الى الجلوس على مقعد مطعم بالعاج بين يدى سرير مذهب يحيط به الستائر المطرزة ، وقد فرشت تلك الغرفة بأحسن ما تفرش به غرف الرقاد من السجاد والستائر . وفى صدر الغرفة موقد التدفئة وعليه ساعة مذهبة

فجلست شيرين على المقعد بجانب نافذة تطل على الحديقة الداخلية وتشرف على البوسفور عن بعد ، وجلست القادين الى جانبها وهى ترحب بها وتتلطف فى مجاملتها ، ثم دعتها الى تبديل ثيابها ، وهمت بأن تطلب من الأوسته باشى اعداد بدلة فاخرة ، فاعتذرت شيرين بأنها تشعر بتعب ، وربما بدلت ثيابها بعد ذلك . وجلست الى النافذة وأطلت الى الحديقة فرات ما يسرح هناك من الطيور ، واكثرها من الحمام ، فاستغرقت فى هواجسها وانقبضت نفسها وتلألأ الدمع فى عينيها والقادين تراعيها وتتوقع فرصة تفتتح بها الحديث . فلما رات انقباضها قالت : « ما لك يا عزيزتى ؟ انى اراك منقبضة النفس ، واذا كان دخولك هذا القصر قد ساءك فانى لا احملك على البقاء فيه قهرا »

فخجلت شيرين من هذا التوبيخ اللطيف وابتسمت وقد توردت وجنتاها من الحياء وقالت : « العفو يا سيدتى .. انى هنا منذ بضعة أيام ولم أشعر بأنس وراحة كما شعرت فى هـذا اليوم منذ رايتك . والحق انك معدن اللطف والأنس »

فقالت : « اذن مالى أراك منقبضة النفس على هذه الصورة ؟ »

فتنهدت شيرين وسكتت ، فأدركت القادين أنها قلقة على حبيبها ، وكان نادر أغا قد أفهم القادين كل ما عرفوه عن شيرين حتى تعرف أسرارها فتجاهلت وقالت : « اسمحى لى يا حبيبتى أن أقول بحرية .. ان ما أراه فيك لا يكون الا فى المحبين »

فأجهشت شيرين بالبكاء ، فهمت القادين بمسح دموعها وقد أثر فيهـا

منظرها واحسست بما تقاسيه لأنها جربت مثله بنفسها فأحبت الاستطراق الى الغرض من هذا الطريق فقالت : « يظهر أن ظنى قد صدق ، فأنت عاشقة و . . »

فأجفلت شيرين من هذا التعبير ومدت كفها نحو فم القادين كأنها تسكتها عن الكلام حياء وانكارا فقالت القادين : « لا يسوءك انك عاشقة فان الحب ليس عارا وقد يكون حبك طاهرا. قولى ، لا تخفى شيئا ، اجعلينى مستودع سرك ، وان كانت هذه أول مرة لقيتنى فيها فانى شعرت بانعطاف نحوك مثل انعطافى على شقيقتى »

فانشرح صدر شيرين لهذا التلطف وحسبت نفسها قد فازت بما تريده لأنها انما أظهرت انقباضها بين يدى القادين لعلها تتصل بالحديث الى توسيطها فى انقاذ رامز وهى تعتقد انه أسير هناك . فابتسمت وقد خفق قلبها فرحا بهذا الأمل وقالت : « انك حقا أكبر تعزية لى ، ولا أرى بأسا من الشكوى اليك لعلك تستطيعين التفريج عنى بما لك من النفوذ والدالة »

فتطاولت القادين نحوها وقالت : « قولى ، لا تخفى على شيئا،وتأكدى انى أبذل جهدى فى سبيل راحتك »

قالت : « الا تعرفين أسيرا حمل من سلانيك الى يلدز فى هذين اليومين؟»

قالت : « نحن بعيدات عن أمثال هذه الاخبار ، لا يؤذن لنا بالاطلاع على شىء من ذلك . ولكننى سأرسل من يأتينا بخبره اكراما لخاطرك . زيدينى ايضاحا »

فاستبشرت شيرين وابرقت أسرتها وقالت : « ان شابا من ذوى قرابتى اسمه رامز اتهموه بالدخول فى جمعية سرية فى سلانيك ، ووشى به بعض الجواسيس فقبضوا عليه وساقوه الى يلدز منذ بضعة أيام . فجئت الى هنا حتى يلحقنى ما يلحقه او استطيع انقاذه ، وقد علمت انه محجور عليه فى بعض هذه القصور . سمعت ذلك من السلطان نفسه ، ولكننى لم أعرف غير ذلك»

فأظهرت القادين الدهشة وقالت : « تشرفت بمقابلة البادشاه ؟ »

قالت : « نعم تشرفت بالمثول بين يديه »

قالت : « انه حظ يندر ان يوفق اليه النساء ، ويظهر أن جلالته عالم بما بينك وبين رامز من القربى »

قالت : « نعم ، يظهر أن الجواسيس أطلعوه على خبرى معه . »

فأظهرت الاستغراب وقالت : « لا تؤاخذينى على كثرة أسئلتى . . . ما الذى دعاك الى مقابلة الذات الشاهانية ؟ »

قالت : « دعانى الى ذلك كما قلت لك رغبتى فى الدفاع عن رامز والتصريح للسلطان بما يجول فى خاطرى من أمر الدولة وما يحدق بها من الأخطار اذا لم يتداركها جلالته بالدستور »

فأجفلت القادين وتراجعت عند سماع اسم الدستور وقالت : «قلت له ذلك ؟ وماذا قال لك ؟ »

قالت : « أظهر لى كل ارتياح وآنسنى ، لكنه طلب الى أن أخبره عن أعضاء جمعية الاتحاد والترقى القائمة بالمطالبة بالدستور فى سلانيك، ورامز واحد منهم . فاعتذرت بانى لا اعرف منهم احدا . فهددنى بأنى اذا لم أبح له بأسمائهم كان رامز فى خطر على حياته وأنى اذا بحت انقذته من القتل »

فبادرتها القادين بالسؤال : « وماذا فعلت ؟ ألم تجيبى ؟ »

فهزت رأسها هز الانكار وقالت : « كلا . . هبى أنى أعرف بعضهم فهل من المروءة ان افشى خبرهم واعرضهم للخطر ؟ »

فابتسمت القادين ابتسام الاعجاب واظهرت عدم رغبتها فى الاطلاع على شىء من ذلك وقالت : « لله درك من جسورة حازمة ، انى لم أعهد مثل ذلك فى النساء من قبل . . تعرضين نفسك وخطيبك لخطر القتل محافظة على عهد بعض الناس ! انها مناقب كبار النفوس » . وخفضت صوتها وتلفتت يمينا وشمالا كأنها تحاذر أن يسمعها أحد وقالت : « الحق يقال أن بين أعضاء هذه الجمعية جماعة من العقلاء والعلماء . ولكن بينهم أيضا جماعة من الضعفاء المنافقين الذين ينتفعون بأذى غيرهم . . ولو كانوا كلهم مثل رامز ومثلك لكانوا . . » . وسكتت وتحفزت للوقوف وهى تقول: «الا تنهضين للطعام ؟ »

فشق عليها قطع الحديث قبل اتمامه لعلها تتوسل الى طلب مساعدتها ، فاعتذرت عن الطعام بأنها غير جائعة ، فقالت القادين : « الا تأكلين بعض الفاكهة ؟ »

أجابت : « كما تشائين » . وظلت قاعدة ، فعادت القادين الى الجلوس وقالت : « لم تقولى لى ما هى الخدمة التى تطلبينها منى ؟ »

قالت : « لم يبق لى مع ذكائك حاجة الى التصريح »

فضحكت وقالت : « طبعا انت تطلبين معرفة مقر رامز وتبحثين عن الطريق الى نجاته ؟ »

قالت : « نعم ، هذا كل ما أطلبه ، واذا كنت تستطيعين أن تساعدينى فى ذلك فلا أنسى فضلك طول حياتى »

قالت :« اذااستطعته فانى افعله من كل قلبى ؛ ولا فضل لى فى شىء من ذلك » . وتنحنحت واظهرت انها تهم بالكلام ويمنعها الحياء

فقالت لها شيرين : « ماذا تريدين . . قولى يا سيدتى . لعلك ترين مانعا من دخولك فى هذا الأمر ، فاذا كنت . . »

فقطعت كلامها قائلة : « كلا . . ولكنى أكتم أمرا لا أجد من أبوح به

اليه . . وقد رايت فيك . . » . وبلعت ريقها ، واطرقت لحظة ثم وقفت وهى تتجاهل ما بدر منها وقالت : « سابحث الليلة عن خبر رامز واطلعك عليه . . افعل ذلك من كل قلبى . . وصفقت فجاءت جارية سوداء فأمرتها أن تعد المائدة وتكثر عليها من الفاكهة وان تدعو الخازنة قطينة وامسكت شيرين بيدها وانهضتها الى المائدة فمشت معها وهى تتوقع ان تسمع منها تتمة الحديث وأن تبوح لها بسرها ، والقادين تغالطها، وكلما اقترب حديثها من تلك النقطة غيرته . فأدركت شيرين انها كانت تريد أن تكاشفها بسر وندمت فسكتت

▭

قضت شيرين مع القادين وخازنتها بقية نهارها وهى تزداد استئناسا بهما ، وظلت عالقة الذهن بما همت القادين أن تكاشفها به ، وتوهمت انها عدلت عن المكاشفة خوفا من ضياع سرها لقلة ثقتها بها ، فأجلت ذلك الى فرصة اخرى . ولما مالت الشمس الى المغيب وانقبضت الطبيعة لفراقها انقبضت نفس شيرين وغلبت عليها السويداء. وليس اثقل على قلب المحب المشتاق من ساعة الغروب ، فانها تزيده وحشة والما ، ولم تشأ شيرين أن يبدو انقباضها لدى القادين ولا خازنتها ، فالتمست الخلوة فى غرفة أعدوها لها ، وأظهرت انها متعبة تطلب الرقاد لحظة

فلما خلت الى نفسها فى تلك الغرفة أخذت تفكر فيما هى فيه ، وفيما عسى أن يكون من أمر رامز . هل هو هناك ؟ وهل يمكن انقاذه ؟ على أنها كانت ترجو من وعد القادين خيرا كثيرا ، ولم يخامرها شك فى صدقها ، ولا سيما بعد أن راتها تهم بمكاشفتها بسرها وهى لم تقابلها من قبل

وقضت ساعة فى مثل هذه الهواجس . وقد أظلمت الدنيا وأنيرت مصابيح القصر الا غرفتها ، فلم يشأ الفراش أن يزعجها بدخوله لانه كان يحسبها نائمة

وبينما هى فى ذلك اذ سمعت وقع أقدام فى أرض الغرفة ، فرفعت راسها لترى من القادم ، فتبينت فى تلك الظلمة القادين داخلة، وهى تخفف الوطء لئلا توقظها، فتحركت شيرين فى سريرها دلالة على أنها مستيقظة. فتقدمت القادين نحوها بسرعة وأكبت عليها وجعلت تقبلها ترحيبا بها . فجلست شيرين فى الفراش وقد أحست بحرارة تلك القبلات ، ولم يبق عندها شك فى محبة تلك المرأة ، فبادرتها القادين بالسؤال عن صحتها فقالت : « انى فى خير . أشكر فضلك »

قالت : لا تظنى انى نسيت وعدى اياك بالبحث عن حبيبك ، ولكننى لا استطيع ذلك الا فى فرصة مناسبة ، ولم تتأت لى الا الآن . ولا أقدر أن افعل ذلك الا سرا » . قالت ذلك وتنهدت

فأحست شيرين بميل القادين الى الشكوى والمكاشفة فقالت لها: «أمثلك تتنهد وتشكو ايضا ؟ انك اشرف امرأة فى المملكة العثمانية لأنك من نساء السلطان . وفى المملكة ملايين من النساء يحسدنك على مقامك ، ومع ذلك فانك تتأوهين ! »

فتنهدت القادين ثانية وقالت همسا فى تلك الظلمة : « ليس فى المملكة العثمانية اشقى من نساء السلطان. ان جوارينا اسعد حالا منا ولا شك ! »

فاستغربت شيرين هذه الشكوى وارادت ان تعترض ، فبادرتها القادين قائلة : « هل فى الدنيا اثمن من الحرية ؟ »

فانتعشت شيرين عند ذكر الحرية وقالت : «كلا»

فقالت : « الحرية التى يتمتع بها كلابنا وسنانيرنا وطيورنا ودوابنا ، بل يتمتع بها حتى البعوض والذباب ! . . اننا محرومون هذه الحرية دون سائر البشر. ان المرأة متى بلغت رتبة قادين دفنت فى قصرها لا تخرج منه حتى الى الحديقة التى ترينها من هذه النافذة . وهى فوق ذلك عرضة للخطر والغضب وسوء الظن. تسعى الجارية فى يلدز فى الرقى، وأرقى درجة يمكن أن تبلغها أن تصير من نساء السلطان ، فاذا وصلت الى هذه الرتبة ندمت على ما ضيها لانها تفقد حرية الذهاب والمجىء، ويمنع عنها التمتع بالطبيعة. الحرية . . آه الحرية ! » . وسكتت كأنها غصت بريقها

فتأثرت شيرين بهذا القول ووجدت للكلام مجالا فقالت : «آه يا سيدتى!. ان الحرية هذه طلبة الاحرار الذين يحاربهم السلطان ويبحث عنهم ويتعمد قتلهم » . ثم خافت ان تكون قد انزلق لسانها ، ولكن ما لبثت أن سمعت القادين تقول : « السلطان ؟ ! انه لا يريد أن يكون احدا حرا ، حتى هو نفسه ، فانه مقيد فى هذه القصور كما تعلمين ، ولكن ما العمل ؟ . . اعلمى يا شيرين انى تسرعت فى مكاشفتك ، فأرجو الا اكون قد اخطأ ظنى فيك . انى ظننت فيك المحبة وصدق المودة فهل انا مخطئة فى هذا الظن ؟ »

فبادرتها شيرين قائلة : « ان ظنك فى محله . انت تخاطبين فتاة تحبك وتعول عليك . ويا حبذا لو أستطيع أن اخدمك فى شىء »

فنهضت القادين حتى وصلت الى الباب ، وتلفتت خارجة كأنها تبحث عن أحد هناك ، ثم عادت وقالت لها : « ان أكبر خدمة تقدرين على تأديتها لى هى ان تنقذينى من هذا السجن. هل يمن الزمان على بذلك يا ترى ؟ »

وكانت الغرفة لاينيرها الا بصيص من النور يدخل من شقوق الباب والنوافذ والقادين تتكلم همسا وشيرين تستغرب ما تسمعه ، وقد داخلها الشك لحظة فى صدقها ، لكنها لما رأتها تكشف لها سرها ولا تطلب منها كشف خبرها غلب عليها تصديقها فقالت : « اذا اتيح لى الخروج من هذا

الأسر مع رامز فثقي اني باذلة جهدي فيما تريدين . ان القوم العاملين مع رامز على نيل الحرية اذا نجحوا ــ وهم ناجحون باذن الله ــ كانت نجاتك محققة وثقي بأني أفديك بروحي »

فأظهرت القادين أنها صدقتها وقالت : « انك صادقة مخلصة ما في ذلك شك ، وأعتقد أن حبيبك مثلك ، واما بقية اعضاء تلك الجمعية فلا . وثقي بأني أعلم منك بهم . فكثيرا ما سمعنا بجمعيات قامت تطالب بالدستور او الحرية ثم رأيناهم يأتون ويسلمون أنفسهم للسلطان طمعا في المناصب ، وانما يضام منهم الأحرار الصادقون الذين يعملون لخدمة الحقيقة ، ولا اظن جمعية سلانيك الا مثل سوابقها في باريس وغيرها . ومع ذلك دعينا نؤمن بنجاحها ... » . ثم قطعت الحديث وانتقلت الى سواه لتوهم شيرين أنها لا تطالبها بكشف السر ــ وذلك أدعى الى الحصول عليه ــ فقالت : « قد شردنا عن الموضوع الذي جئت من أجله ، فأول كل شيء اني واثقة بمحافظتك على السر ــ ثم اني جئت لأعتذر لك عن تأخري في استقصاء خبر حبيبك لأني لا أستطيع أن اتظاهر بذلك ، ولا بد من اغتنام الفرصة » . وسكتت

فقالت شيرين : « ألم توفقي الى فرصة بعد ؟ »

قالت : «سنحت لي فرصة لم يوفق إليها غيري . قلت لك أن نساء السلطان لا يؤذن لهن في الخروج من قصورهن ، ولا أن يأتي اليهن احد غير الخصيان والجواري ، ولذلك رأيتنا نشغل أنفسنا بتلك الالعاب الصبيانية كمهارشة الديكة وملاعبة السنانير . الا أنا فان السلطان أذن اذنا فوق العادة لطبيب من أطباء القصر أن يتردد الينا منذ بضعة أيام يسألني عن صحتي وكنت أشكو انحرافا عالجني منه . فهذا الطبيب اشعر انه صادق ، وقد غمرته بالجوائز والنعم ، وأنا مع ذلك مستغربة الاذن له في الدخول الى هذا القصر ولا أجسر على مخاطبته بشأنك لئلا أعرض نفسي للخطر ، ولكنني رأيت رأيا أظنك توافقينني عليه ، وذلك أن أعرفه بك بحجة أنك منحرفة المزاج ، فمتى أتى للاستفهام منك عما تشكين تدرجت بالحديث معه حتى تسأليه عن محل رامز . ولا بأس عليك اذا فعلت ذلك ، فان السلطان نفسه يعلم قلقك عليه . فلعله يخبرك عن مكانه،واذا أفلحت فأخبريني الخبر ــ وها أنذا الآن ذاهبة وسأرسل الخادم ليضيء هذه الغرفة ، فامكثي في الفراش ، وأنا أشيع في القصر انك منحرفة الصحة » .

وخرجت ثم جاء الخادم وأضاء الغرفة وهي ساكنة في الفراش كالمريضة وما بها مرض ، وقد اد تاليها هواجسها ، وأحست أن القادين تحبها حبا صادقا وتثق بها ثقة كبرى ، ورأت أنها قصرت في ايفائها حق الصداقة لأنها أساءت الظن بها وخافت مكاشفتها بأسرارها

اما القادين فقد أتقنت حيلتها حتى أوهمت شيرين أنها لا يهمها سر

غيرها ، وتقدمت بكشف سرها لها حتى جعلتها تسخى من تلقاء نفسها لمكاشفتها بأسرارها ، وأدركت بدهائها أن شيرين تنتظر أول اجتماع تجتمع فيه بها لتبوح لها بأسرارها فى مقابل ما فعلته هى

□

ومكثت شيرين فى الفراش ساعات حتى آن الرقاد ولم يأت الطبيب ، اذ لم يكن هناك موعد سابق لمجيئه ، وقد أوعز اليه نادر اغا أن يكف عن زيارة القادين أياما ، اذ لم تبق حاجة الى التعجيل بمهمته . وفى الصباح التالى ذهبت القادين الى شيرين مبكرة لتعتذر لها عن تخلف الطبيب عن الحضور فى ذلك اليوم ، وهى تحسب له عذرا فى الغياب ، وأنها بعثت اليه من يستقدمه ، وجلست بجانب سرير شيرين وقالت : « تأملى يا عزيزتى مقدار تقيدنا . انى لا أجسر أن أستقدم الطبيب الا سرا ، ولو علم السلطان بذلك لبالغ فى العقاب ، وقد يعاقب بالقتل لأقل الذنوب . ان هذا البوسفور مملوء بجثث القتلى من النساء والرجال » . قالت ذلك وهى تخفض صوتها وتتلفت

فلما سمعتها شيرين تقول ذلك عزمت على التصريح لها ببعض الشيء فقالت : « اذا كنت تشكين من اقامتك هنا فاتركى هذه القصور واخرجى الى بلاد الحرية »

فقالت : « الى أين اذهب وانا غريبة وحيدة ؟ واعترف لك انى لا أثق بالاحرار فانهم كثيرا ما رجعوا وخافوا ! »

فقطعت شيرين كلامها قائلة : «انهم يا سيدتى اليوم غير ما كانوا عليه من قبل »

فهزت راسها استخفافا وقالت : « انهم على ما هم عليه لم يتغيروا »

قالت : « أؤكد لك انهم هذه المرة غير ما كانوا عليه قبلا ، وأنا من اعلم الناس بهم »

فاستبشرت القادين بقرب الوصول الى المقصود فقالت : « يا حبيبتى ان امثالنا لا يمكنه الاطلاع على حقيقة الرجال . لم يظهر بين الاحرار المقاومين للظلم اضخم من مراد بك ، وهو الآن فى الأستانة بين المقربين »

فابتسمت شيرين ابتسام العالم بأمور يجهلها مخاطبه .وقالت : « قلت لك أن أعضاء جمعية الاتحاد والترقى هذه المرة مختلفون عنهم فى المرات الماضية اختلافا كبيرا . ولولا حرمة الاسرار لذكرت لك بعضهم فتثقين بقولى وتعلمين انى أقول لك الصدق »

فأطرقت القادين لحظة ثم رفعت بصرها الى شيرين وفى عينيها ملامح العتاب وقالت : « صدقت ، ينبغى للانسان أن يكون حريصا على سره ولا

يفرط فيه كما فعلت انا . ولـكننى وثقت بك ولم أندم على ما فرطت فى سرى لانى شعرت بلذة الراحة »

فتوردت وجنتا شيرين من الخجل ، واحست انها اخطأت ولم يكن ينبغى لها ان تقول ما قالت ما دامت تصر على الكتمان ، فارتبـكت فى أمرها ولم تجد لها مخرجا الا بالمكاشفة ، لكنها قالت : « قد اخطأت يا سـيدتى فهم مرادى . فأنا لا أضن عليك بسر أكتمه اذا كان ذلك السر لى ، ولكن هذا السر خاص برامز وقد أطلعنى عليه ونحن نتشاكى ، ولا يخفى عليك ذلك، وهو واثق أنه لا يخرج من فمى لأحد ، فاذا اخرجته عددت عملى خيانة. وأما الأسرار التى هى لى فلا اخفى عليك شيئا منها »

فأجابتها وهى تساعدها على الاعتذار : « ان قدرك قد ارتفـع فى عينى الآن عما كان عليه قبلا . ان الانسان يجب أن يكون أمينا صادقا ، والا كان من الاشرار ، وحاشاك أن تكونى منهم . وهذا يؤكد لى أن ما كاشفتك به الآن يبقى محفوظا عن كل اذن . لا تظنى انى اطلب منك أن تبوحى بأسرار الجمعية ، ولـكننى أجادلك فى حقيقة هذه الجمعية،فاحب أن اعرف الفرق بين اعضائها الآن وأعضائها فى الأمس »

فانشرح صدر شيرين لذلك التخلص ، وأحست بنزاهة تلك المرأة وكبر نفسها وسعة صدرها وتعقلها حتى هان عليها أن تضـع كل اسرارها بين يديها ، على انها جاملتها قائلة : «الفرق المهم ان اعضاء الجمعية اليوم اكثرهم من ضباط الجيش العثمانى ، وكانوا قبلا من الـكتاب والأدباء . ولا يلبث الضباط كلهم أن ينتظموا فى سلكها ، فاذا فعـلوا ذلك فبماذا يطـاردهم عبد الحميد ؟ »

فأظهرت القادين الاستغراب وقالت : « هل انت على ثقة مما تقولين ؟ . قد سـمعت شيئا من ذلك . ولكنهم يقولون أن بعض الضبـاط الصغـار المطرودين من الجيش انتظموا فى الجمعية »

فقالت : « كلا يا سيدتى.ان المنتظمين فى الجمعية اليوم من أكابر ضباط الجند كأمراء الآلايات ، وهم فى خدمتهم العسكرية ، والجند تحت أوامرهم متى شاءوا ، وأنا أعرف كثيرين منهم » . قالت ذلك وتصـاعد الدم الى وجهها ندما على تصريحها بأنها تعرف كثيرين منهم

فاكتفت القادين بهذا التصريح ، اذ تحققت أن سر الجمعية عند شيرين ، وعزمت على اتخاذ الوسائل لحملها على التصريح به فيما بعد ، فقـالت : « اراك تغالبين نفسك بين التصريح والكتمان ، فأنا أتوسل اليك أن تكفى عن التصريح . وكأنى اسمع لغطا فى الدار ، لعل الطبيب أتى » . قالت ذلك وخرجت ثم عادت مبغوتة وقالت:«لم يأت الطبيب لانه تلقى امرا بألا يدخل قصرى اليوم ، ولكننى سأبعث اليه أن يأتى متنكرا فى هذا المساء » . قالت

ذلك وخرجت . فأتت الخازنة لمسايرة شيرين ، فتبادلتا الحديث في شئون مختلفة
فلما أمسى المساء ذهب اهل القصر الى منامهم ، وظلت القادين ساهرة في غرفة شيرين ، وبعثت الخازنة تترقب وصول الطبيب وتأتي به اليهما ، فلما قرب نصف الليل أتت الخازنة تنبئها بقدومه ، فأذنت في دخوله ووقفت لاستقباله بالباب ، فأطل وعليه لباس خدمة القصر ، فاستقبلته مرحبة ، فانحنى احتراما وقال : « قد اتيت يا سيدتي طوعا لأمرك رغم الخطر الذي اخافه . فماذا تأمرين ؟ »
فأثنت على غيرته وقالت : « انت تعلم ثقتي بمهارتك واعتقادي صدق علاجك ، وعندي صديقة اصابها انحراف فأحببت أن تكون طبيبها » . قالت ذلك ودخلت . فتبعها وهو ينظر نحو السرير فرأى شيرين جالسة فيه ، فلم يتفرس فيها تأدبا ، فسبقته القادين في مخاطبتها قائلة : « هذا طبيبنا وصديقنا ، فأخبريه بشكواك ريثما أعود اليكما » . وخرجت
فاستغرب الطبيب تخليها عنهما ، وجلس على كرسي بجانب السرير ، وسأل شيرين عما تشكوه فقالت : « اني اشكو من ألم شديد في الراس »
وكان يخاطبها وهو مطرق ، فلما سمع جوابها أجفل لأنه تذكر صوتا يعرفه ، فنظر اليها ونظرت اليه . وكان الطبيب في حدود الثلاثين من العمر ، فلما وقع نظرها عليه اختلج قلبها في صدرها لأنه يشبه شخصا تعرفه في سلانيك كان صديقا لرامز ، فجعل كل منهما ينظر الى صاحبه ، فسبقها هو الى الكلام ، وان سبقته هي الى المعرفة ، لكنها خافت التصريح، فقال لها : « شيرين ؟ »
قالت : « نعم .. وأنت الدكتور . ن .. ؟ »
قال : « نعم . ما الذي جاء بك الى هنا ؟ » . ووضع اصبعه على فمه اشارة اليها ألا ترفع صوتها
قالت : « جئت لأفتش عن رامز » . وغلب عليها البكاء ، ثم قالت وهي تشرق بريقها : « اين هو ؟ وماذا تفعل انت هنا ؟ »
قال بصوت منخفض : «أنا هنا في مهمة باسم اخواننا استطلع لهم أخبار هذا الطاغية ، وأما رامز .. » . وسكت وهو يتردد كأنه يكتم شيئا يعرفه
فخافت ذلك التردد وقالت وقد شخصت ببصرها فيه :«أين هو ؟ ماذا أصابه ؟ قل . قل .. بالله قل .. »
قال : « تعقلي يا شيرين كعهدي بك لأقص عليك خبره »
فتطاولت بعنقها نحوه ، وحدثتها نفسها بسوء أصاب حبيبها ، وعلمت ان هذا الطبيب جاسوس الأحرار في يلدز ، ولم تتمالك ان أعادت السؤال

وألحت فى طلب الجواب فأجابها :«علمت منذ بضعة أيام أن رامزا أتى يلدز، وانه مقيم بقصر مالطه ، فجعلت أترقب الفرص للذهاب اليه لعلى استطيع انقاذه فلم أستطع ذلك الا مساء أمس بحيلة احتلتها فلم أجده هناك »

فاقشعر بدنها و قالت : « أين ذهب ؟ »

قال : « لا أدرى »

قالت : « بل أنت تدرى .. قل .. هل قتلوه ؟ »

فأشار اليها أن تخفض صوتها وقال : « لا أعلم اين هو ، ولا ما فعلوا به، ولم أجد أحدا من أهل يلدز يعرف خبره . والذى عرفته بعد البحث الدقيق انه خرج من ذلك القصر فى أواسط الليل منذ يومين بدعوة من القصر ولم يرجع » . وهز راسه اسفا

فتحققت شيرين أنهم قتلوه خلسة كما قتلوا مئات قبله اما خنقا اوغرقا أو تسميما ، ووثبت من السرير على رغم ارادتها وهى تقول : « قتلوه يا دكتور ؟ ! قتلوه ! اظنه ذهب طعاما للأسماك ؟ » . ولطمت وجهها وبكت

فامسكها وأجلسها وقال لها: « تجلدى يا شيرين ولا تفعلى ما يعود بالخطر علينا جميعا »

فصاحت : « أما أنا فلا أبالي ما يصيبنى بعد رامز ، ولكننى أخاف عليك ، فانك ذو نفع للأحرار »

فقال : « وأنت أنفع منى لهم .. هدئى روعك .. واذا فرضنا أن اخانا أصيب بسوء فى سبيل الحرية والدستور فهنيئا له . ان اسمه سيخلد فى بطون التاريخ . ويا حبذا يوم أنال شهادتى فى هذا السبيل »

فأطرقت شيرين وقد رجع اليها رشدها ، واخذت تغالب عواطفها ، ومع تفانيها فى سبيل الدستور والحرية فان حبها رامزا غلب على كل ذلك فلم تسمح نفسها بأن يكون ضحية الدستور . لان المحب لا يرضى أن ينال الدنيا كلها فداء لحبيبه . لكنها ظلت ساكتة ودموعها تتساقط على خديها، فعاد الدكتور الى الكلام فقال : « على أننا لم نتحقق مصير رامز،وقد يكون أقرب الى الحياة منا .. خففى عنك واصبرى ، ان الله مع الصابرين »

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا وقع خطوات عند الباب،فانتبه الدكتور الى أنه أفرط فى الكلام ، وخاف أن تكون القادين قد سمعت ما دار بينهما ، وهناك البلية الكبرى والخطر العظيم . ولم تنتبه شيرين لهذا الخطر فظلت ساكتة

أما الدكتور فأعمل فكرته لحظة ، وكان سريع الخاطر حازما فطنا ، ولولا ذلك لم يقبل أن يكون جاسوسا للجمعية فى يلدز مدفن الأحرار . ووقف لاستقبال الداخل ، فاذا هى القادين ج قد دخلت باشة هاشة فانحنى لها

باحترام فقالت له : « هل عالجت حبيبتنا شيرين العلاج الشافى »
فأجابت شيرين عنه قائلة : «ان العلاج لا يفيد يا سيدتى لانهم قتلوه». وغصت بريقها
واستغرب الدكتور تصريحها بذلك للقادين اذ لم يكن يعلم انه دعى لهذه الغاية بعلم القادين فقالت القادين : « ماذا تقولين ؟ هل قتلوا رامزا من قتله ؟ »
فقالت شيرين : « الم تاذنى لى فى أن أسأل الدكتور عنه لعله يطلعنى على خبره لقد قال انه علم بوجوده فى قصر مالطة الى منتصف الليل من يومين، وانه دعى الى القصر ولم يرجع ، فهل عندك شك فى أنهم قتلوه ؟ »
فأطرقت القادين وبانت الدهشة فى عينيها وقالت : «ليس من الضرورى أن يصدق ظنك، ولكن ربما كنت مصيبة فمن الجائز انهم قد يفعلون ذلك!»
وكان الدكتور يعمل فكره فى تلافى ما قد يكون من اطلاع القادبن على حديثهم ، فلما رآها سلمت أن عبد الحميد يقتل على الشبهة سرا وجهرا فكر فى سبيل النجاة من هذا الباب فقال : « هل تعتقدين يا سيدتى أن رامزا قتل ؟ »
قالت : « لا أعتقد ذلك اعتقادا ثابتا ، ولكنهم قد يفعلون هذا فى سبيل صيانة الدولة »
قال : « أراك تجوزين القتل فى هذا السبيل ؟ »
قالت : « قد جوزه قبلى ما كيا فيلى الفيلسوف »
فأظهر الاهتمام ودعاها الى الجلوس على المقعد فجلست وهى تنظر اليه وتتفرس فى وجهه فقال لها : « اتجوزين القتل فى هذا السبيل ولو كان المقتول أنت ؟ »
فأجفلت وقالت : « ماذا تعنى ؟ »
قال : « أعنى سرا عظيما عهد الى منذ أيام فى تنفيذه وانا أؤجله شفقة عليك »
قالت : « تعنى انهم ارادوا قتلى ؟ »
قال : « انصتى يا سيدتى واستجمعى رشدك واعلمى أنى أعرض عليك الحياة بعد أن حكم عليك بالقتل »
قالت وهى ترتعد : « افصح . لا تخف »
قال : « هل عهدت مثلى يدخل على نساء القصر ويتردد قبل الآن ؟ ». قالت : « كلا »
قال : « فما الذى جعل لى هذا الامتياز الآن ؟ »

فأطرقت وأعملت فكرها ، وأحست كأنها أفاقت من سبات وقالت : « ثم ماذا ؟ قل .. »

قال : « اعلمي أنك صرت فى خطر الموت منذ علم عبد الحميد انك حامل . ولما لم تفلح الخاضنة باسقاط حملك كلفنى قتلك بالسم خلسة . قد يخطر ببالك الشك فى قولى ، لكنك تتحققين صدقه متى تذكرت تردد هذا الطاغية فى شأنك . كم غالطك واهملك .. ثم هو لم يؤجل قتلك الا لأنه احتاج اليك فى المهمة الأخيرة . لا اعلم ما الذى يريده منك ، ولكنه ما زال يلح على لتنفيذ أمره بقتلك حتى صباح الامس ، فأمرنى أن انقطع عن قصرك بضعة أيام .. ففعلت ، ولعلك اذا تذكرت ما كلفك به بالامس تتحققين صدق قولى »

فتذكرت القادين ما خاطبها به عبد الحميد فى شأن استطلاع سر شيرين ، وهى رغم حبها له كانت تعتقد غدره مما عرفته من سيرة حياته مع الذين قتلهم من رجاله بعلمها .. فأطرقت حينا وسبق الى ذهنها صدق الدكتور فى قوله ، وظلت ساكنة

فابتدرها قائلا : « قد ترتابين فى كلامى ، وربما حدثتك نفسك أنى أكذبك ، وقد تنقلين خبرى الى هذا الطاغية . فأنا لا أبالى اذا مت فى هذا السبيل ، ولكن موتى لا ينجيك من القتل ، فافعلى ما بدا لك »

وكانت القادين قد سمعت بعض ما دار بين شيرين والدكتور من الحديث ، ولا سيما قوله انه يتمنى أن يموت كما مات رامز فى سبيل مصلحة الأحرار وطلب الدستور ، فغلب على ظنها صدقه ، لكنها ارادت أن تتثبت من ذلك فقالت : « وما الذى يسىء عبد الحميد من حملى حتى يريد قتلى ؟ »

قال : « ألست أرمنية الاصل ؟ » . قالت : « نعم »

قال : « ألم تعلمى خوفه من الأرمن وكم قتل منهم ؟. وأزيدك علما أن بعض المنجمين تنبأ له بأن سقوط دولته سيكون على يد ولد منه تلده امرأة أرمنية ، فلما علم بحملك رغم الوسائل التى اتخذها أصبح همه قتلك ، وعهد فى ذلك الى ، فرضيت ، وأنا أؤجل ذلك عامدا لأنى أشفقت على صباك »

فقالت : « كيف رضيت أنت أن ترتكب هذه الجريمة ؟ »

قال : « حاشا لله أن أفعل ذلك . انى حر صادق لا أقتل النفس البريئة ، وانما قبلت ليتيسر لى المكوث فى هذه القصور أستطلع اخبارها لاخوانى الأحرار . أنا يا سيدتي جاسوس للأحرار هنا . اقول لك ذلك بكل حرية ، ولا يفيدك أن تنقلى خبرى الى هذا الطاغية ، ولا يهمنى

اذا نقلته ، فانى أتشرف بالشهادة فى هذا السبيل . نحن ألوف نطلب الدستور ، ولو قتل نصفنا فى سبيل نيله لا نبالى ، لأن النصف الباقى يناله ، وسيحفظ التاريخ ذكرنا .. أما أنت فانك مقتولة لا محالة لأن عبد الحميد يرى بقاءك سببا لقتله . واذا بقيت حية حتى تلدى فان طفلك يقتل أولا ثم تقتلين أنت ، الا اذا قبلت نصحى ونجوت بنفسك ورجعت عن عبادة هذا الظالم وكفرت عن ماضيك بالانحياز الى الاحرار . هذه نصيحتى لك ؛ فافعلى ما تشائين والسلام »

وكان الدكتور يتكلم كأنه صاحب سلطان ، فكان لكلامه تأثير شديد فى نفس القادين ، واعتقدت صدقه وخافت على حياتها وحياة جنينها ، فأطرقت وقد جمد الدم فى عروقها ، وشيرين تسمع ما دار من الحديث وتعجب لهذه المصادفة ، واغتنمت الفرصة لتأييد قول الدكتور ، فوجهت كلامها الى القادين وقالت : « يا سيدتى انى أنصح لك أن تصغى الى نصحه . واذا حدثتك نفسك بغير ذلك واردت نقل خبرنا الى عبد الحميد فقد علمت أن الموت لا يهمنا . أما الدكتور فقد ذكر لك السبب ، أما أنا فهل تظنين أنى أحب الحياة بعد ذهاب حبيبى رامز ضحية الدستور غدرا ؟ » . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فتأثرت القادين من كلامها ، وكانت من أهل الذكاء والدهاء ، ولكن حبها عبد الحميد أعمى بصيرتها ، فلما داخلها الشك فى حبه بما سمعته من كلام الدكتور (ن) دلها عقلها على ما خادعها به ، وانه لم يظهر لها الحب الا حين احتاج اليها فى مهمة تعنيه ، كما فعل وقت حادثة الأرمن وغيرها . وتذكرت تردده فى العقد عليها ، فصح عندها صدق الدكتور فى أقواله ، ولم يبق لديها شك فى ذلك ، فالتفتت اليه وقالت : « قد صدقتك يادكتور ، فما العمل الآن ؟ »

قال : « العمل أن تفرى من هذه القصور بما خف حمله ومعك شيرين ، وابقى أنا هنا حتى اتم المهمة التى اتيت لأجلها . هذا هو رأيى ، ولا يصح تأجيل فراركما الى الغد »

فنهضت وهى تعمل فكرها وقالت : « سأذهب لأدبر وسيلة للفرار الليلة ، فامض أنت لشأنك مشكورا . وسأذكر فضلك ما حييت » . ثم ودعهما الدكتور ، فبكت شيرين وتوسلت اليه أن يفر معهما ، لكنه قال : « لابد من وجودى هنا لمصلحة الجمعية ، أما أنت فتجلدى واصبرى ، وستدور الدائرة على الباغى ولو بعد حين » . وخرج

▭

كان عبد الحميد بعد ذهاب رامز وابيه يتوقع أن تنجح حيلته ، وقد

وشكت أن تنجح ويقع أعضاء الجمعية فى الفخ لولا أن نادر سعيد فاسمعهم وصية مدحت . وظل عبد الحميد يومين فى انتظار النتيجة وهو لايستقر له قرار . وكان يتوقع أن يوافيه ناظم بخبر الجمعية فى اليوم التالى . فلما أبطأ عليه الخبر جعل ينتحل الاسباب لتأخيره

وبينما هو فى ذلك اذ أتاه نادر اغا فى الصباح بخبره بفرار القادين ج مع شيرين ، فاقشعر بدنه ، واخذ فى البحث والتحقيق حتى قلب يلدز رأسا على عقب ، ، فتبين بعد البحث انها فرت مع فوزى بك احد كبار الياوران ، وهو رئيس فرقة من الحرس الالبان المعهود اليهم حراسة تلك القصور . فسقط فى يده ، وبث الارصاد والعيون فى اطراف المملكة ، وقد تشاءم من فرار تلك القادين لما يعتقده من علاقة حملها بحياته . فاسودت الدنيا فى عينيه ، وأحس بفشل لا عهد له بمثله . ولم يتوسط النهار حتى جاءته برقية من ناظم بك فى سلانيك يخبره فيها أن أحد أعضاء الجمعية حاول قتله بأن أطلق عليه الرصاص فأصابه لكنه لم يمت ، وان الجمعية أصبحت ذات خطر يخشى منه

ثم جاءته برقية أخرى بأن فدائيا قتل سامى بك مفتش البوليس اثناء ذهابه الى قروشوه . وكان السلطان قد كلفه بالبحث عن رئيس الجمعية والفتك به ، وتوالت البرقيات باضطراب الاحوال فى مقدونيا والبانيا وان الناس فى خوف شديد

وكان عبد الحميد يتلو هذه البرقيات فى غرفة المطالعة بالقصر الصغير كالعادة ، والباشكاتب بين يديه . فأخذ يظهر عدم الاكتراث أمامه ويشدد عزيمته ليوهمه انه على ثقة من قدرته . ثم خاف أن يبدو ضعفه فيصبح فى خوف على حياته من أعوانه ، لاعتقاده ان هؤلاء الاعوان لا يطيعونه الا خوفا من بطشه أو طمعا فى ماله ، فاذا رأوا منه ضعفا انقلبوا مع الجانب الاقوى فنهض وهو يتكلف الضحك وقال : « لقد آن لى أن أفتك بهؤلاء الاغرار . ان الرفق بهم لم يجد نفعا »

فوقف الباشكاتب واستأذن وهو يعلم ان عبد الحميد يكاد يموت خوفا ، ولكنه اظهر انه صدقه وانصرف

أما عبد الحميد فدخل غرفة الكتابة ليخلو الى نفسه ، وما دخلها حتى تنفس الصعداء وقال : « ويل لهم ! انهم يفتكون برجالى . . انهم غير الاحرار السابقين الذين كنت أبتاعهم بالاموال . متى كان أولئك الملاعين يعرضون انفسهم للقتل ولا يبوحون بالسر ؟ حتى النساء صرن كالرجال شدة وبطشا » ! . وتذكر القادين وشيرين فقف شعر راسه وقال : « ويل لك يا أرمنية ، لقد خرجت من يلدز حية مع جنينك لأننى اخطأت بالتسويف فى أمرك وكان ينبغى أن اقتلك حالا . . ويلاه ! قد خرجت ونجت ولا تلبث أن

تضع طفلهـــا ، وهو الذى سيكون شؤما على ! .. هل أفل نجم سعدك يا عبد الحميد وانقلب الزمان عليك ؟ » . قال ذلك وقد غص بريقه وبكى بكاء حقيقيا ، ثم تشدد ووثب وهو يقول : « متى أتحد أولئك اللاعبين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ؟ لا ينبغى أن أيأس وأنا عبد الحميد ، وقد غالبت أولئك الغلمان ثلاثين سنة وغلبتهم ، أفيعجزنى أمر هذه الشرذمة ؟ . لابد من التفريق بينهم ، ولابد من الفتك بهم »

واطرق لحظة يفكر ، وتناول سيجارا وأشعله ثم جعل يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا ثم صاح بغتة : « شمسى .. شمسى .. هو الرجل اللائق بهذا العمل ، انه فتاك شديد . هل أستشير احدا بشأنه ؟ . لا .. انه الرجل الشديد ، وقد ادخرته لهذه الغاية . سأرسله ، وافوض اليه أن يعزل ويولى ويقتل ويرقى . وأرسل من الجهة الثانية من يفرق بين مذاهبهم . ان صائبا ماهر ، وسأرقيه فيتفانى فى خدمتى ، وقد كان فى مقدمة الذين أفلحوا فى الكشف عن الجمعية واعضائها . المال ، المال ، سأبذله .·. هذا وقته . قد ادخرته لمثل هذه الساعة »

وقضى ساعة فى مثل ذلك ، ثم طفق يدبر أسباب المقاومة

□

عاد رامز الى التفكير فى شيرين بعد أن انفضت جلسة الجمعية المركزية فى سلانيك . ثم حدث أباه بحديثه معها ، وأخذ يروى له تاريخ حياته بعد فراقه تلك المدة الطويلة . فقضيا يوما فى مثل ذلك ، وأخيرا قال سعيد : « أين أم شيرين الآن ؟ »

قال : « أخبرنى جارهم انها ذهبت للبحث عن شيرين فى مناستير وما حولها »

قال : « دعنا نذهب الى هناك فنحمل معنا أوامر الجمعية المركزية الى شعبتها . ألم تقرر الجمعية بالامس أن ترسل وصية مدحت وسائر قراراتها الى فروعها ؟ وهى طبعا تحتاج الى رسل سريين ، فلنكن نحن رسلها الى مناستير »

ففرح رامز بهذا القرار وقال : «سأقابل الكاتب وأخبره بذلك» . وافترقا

وفى اليوم التالى أطلق الرصاص على ناظم بك ، واهتزت ســلانيك لهذا العمل الاول من نوعه . وبعد أيام أعدت التقارير ونحوها مما يطلب نقله الى شعبة مناستير ، وكلها مكتوبة بالارقام (الشفرة) على نســـق خاص بين الجمعيتين ، وتسلمها رامز وسعيد ، ثم ذهبا الى مناستير وقابلا كاتب الجمعية فأنبآه بما يحملانه من الأوامر الجديدة ، وطلبا عقد جلسة خاصة لهذا الشأن ، فعقدت جلسة سرية على نحو ما حدث فى جمعية سلانيك . وكان الكاتب

قد حل رموز الرسائل وهيأها ، فلما عقدت الجلسة ، وهي مؤلفة من بعض الضباط وموظفي الحكومة وفي مقدمتهم : القائمقام صادق بك قومندان آلاي الفرسان الرابع عشر ، وفخري بك ترجمان الولاية ، واليوزباشي حبيب بك ، والملازم ضيا بك من ضباط المدفعية . وابراهيم شاكر افندي معلم الرسم في المكتب الاعدادي ، والبكباشي رمزي بك من أركان الحرب ، ووهيب أفندي وغيرهم . وكلهم من ذوي الاخلاق السامية والمبادىء الصحيحة ؛ ولا سيما صادق بك ، وكان أكثرهم عملا وأشدهم حماسة ، وهو رب السيف والقلم ، وعليه كان المعول في التدابير التي دبروها والبيانات التي نشروها ، وهم جميعا يقفون خطواته ويقتدون برأيه ، فهو بمثابة رئيسهم وقائدهم ، وكان ربعة مستدير اللحية ، يبدو عليه الضعف ، شأن أصحاب المزاج العصبي،وان لم تكن فيه حدة العصبيين ، بل هو رابط الجأش ثابت في أعماله ، يظهر الهدوء والسكينة في محياه ، فاذا دعت الحالة الى الحماسة أو العمل غضب كالاسد الهائج لا يبالي ما يفعل ، وقد يضحي بنفسه في سبيل الحق والحرية

فلما عقدت الجلسة كان أول شيء فعلوه هو التعرف الى سعيد بك ، والتنويه بما له من الايادي البيضاء في تاريخ الاحرار . ثم تلوا وصية مدحت ورحبوا بها كل الترحيب ، وأعجبهم ما كان من قرار الجمعية بشأنها ، وتحمسوا ووافقوا على الفتك ، وقرروا ابلاغ ذلك الى فروع الشعبة في رسنه وغيرها

ولما انفضت الجلسة ، كان أول شيء فعله رامز انه ذهب للبحث عن أم شيرين حتى علم انها في منزل بعض أقاربها فأخذ أباه معه لملاقاتها ، وكانت تعرفه من قبل . فرحبت بقدومهما ، وسألها رامز عن شيرين وشأنها . فقصت عليه حديثها مع صائب وما دار بينهما ، وعن ثباتها في حبه ، وكيف اختفت بغتة . فأعجب بصدق محبتها وازداد اسفا على ضياعها وعزم على البحث عنها ثم قال : « لابد من العثور عليها . الا ان يكون ذلك الملعون قد حملها على الانتحار تخلصا منه ، ولكنها عاقلة لا تركب الرذيلة ، وهي تعلم اني لا أزال حيا ، بل هي تحب الحياة من أجلي كما أحبها من أجلها »

فقال أبوه : « لا بد من الصبر حتى يأتي الله بالفرج . وأين طهماز ؟ »

فقالت : « لا أعلم أين هو ، ولكنه كان مع صائب بك الى آخر يوم »

فقال رامز : « انه الآن من أرباب الرتب المقربين في يلدز »

فضحكوا رغم ما هم فيه من الحزن والقلق لانهم يعرفون حقيقة طهماز وأنه لا ينفع لغير الأكل ، ولولا امرأته ما عرف أحد بوجوده

□

خرج رامز من هناك كاسف البال ، ولم ييأس من لقاء شيرين ، فبعث

بعض الناس يبحثون عنها فى القرى وفى كل مكان ظنها تذهب اليه فلم يقفوا لها على اثر . وأعتقد أن عبد الحميد وجواسيسه هم سبب هذا الشقاء ، فازداد نقمة عليهم وأصبح يغتنم الفرص للتفانى فى مقاومتهم

مضت أيام وهو يعمل بمساعدة كاتب الجمعية فى كتابة المنشورات ونسخها وتدبير من يوصلها الى الجهات ، وكانوا يرسلونها مع النساء غالبا لبعد الشبهة عنهن فى الاشتغال بالسياسة . وبينما هو فى ذلك اذ أتته الدعوة للاجتماع فى جلسة مستعجلة ، وعينوا مكان الاجتماع ، وكانوا يجتمعون للمداولة فى خبر جديد أو حادث جديد أو تقرير أمر خطير . فلما عقدت الجلسة واستقر الاعضاء فى أماكنهم قال الرئيس : « دعوناكم الليلة لاخبار عظيمة الاهمية جاءتنا من طريق مركز سلانيك ، وقد حلها الأخ الكاتب وهو يتلوها . تفضل أيها الأخ أتلها علينا » . واشار الى كاتب السر

فوقف كاتب السر وبيده ورقة وقال : « هذا الكتاب من مركز الجمعية المقدسة فى سلانيك تذكر فيه انها تلقت رسالة من أخينا الدكتور (ن) من يلدز تحتوى على اخبار عظيمة الاهمية،وهذه صوورة الرسالة كما هى » . وأخذ الكاتب يتلو رسالة الدكتور وهذا نصها :

« تأخرت عليكم فى ارسال الاخبار اذ لم أوفق الى من يحمل رسالتى اليكم هذه المرة لان التشديد فى المراقبة أصبح فائق الحد وأصبح الطاغية يخاف من خياله ويشك فى نفسه . ان اخبارى هذه المرة حسنة ومهمة ــ اعلموا أولا أن اصابة ناظم بك بالرصاص ومقتل سامى بك كان لهما تأثير شديد فى نفسه وفى نفسى . بارك الله فيكم . أما هو فانه قام وقعدوالتف جواسيسه حوله وتملقوه وحضوه على التشديد والفتك ، فعهد الى شمسى باشا الفظ الغليظ القلب مهمة تعقبكم والفتك بكم . وقد أرسل الجواسيس ــ وفيهم صائب ــ لبث روح الشقاق بين العناصر والمذاهب . فاحذروا من هذا اللعين . واعلموا أن الطاغية خائف من اجتماع الكلمة ، فهو يبذل ما فى وسعه لتغريقها . فوجهوا عنايتكم الى مقاومة ذلك بارسال المنشوورات الى المسيحين من كل الطوائف تحذرونهم شر التفريق

« ويسرنى أن أبشركم بأمر وفقنا اليه ولم يكن فى الحسبان ، وذلك أن احدى نساء السلطان فرت من القصر وهى شديدة النقمة عليه وتريد قتله ، واسمها القادين ج ومعها الياور فوزى بك أحد قواد الحرس الألبانى . والغالب انهما قصدا ألبانيا ، لأن الياور المذكور منها . ويسوءنى أن أخبركم بفقد الأخ الحبيب رامز ، فأنى علمت بوجوده فى قصر مالطة . فذهبت لأراه فأخبرت أنه طلب الى القصر فى منتصف الليل ولم يرجع » . فحدث عند ذلك تمتمة وضحك وحركة ، وتوجهت الانظار الى رامز

ثم عاد الكاتب الى القراءة فقال : « ومن غريب الاتفاق أن شيرين ابنة

طهماز الذى تعرفونه أتت يلدز من تلقاء نفسها ، واظهرت من البسالة وصدق السعى فى مصلحة الجمعية ما يندر مثاله . وخاطبت السلطان خطابا لم يجرؤ احد على مثله ! » . فحدث ضجيج بين الاعضاءوشخصت أبصار الجميع لما يكون من تتمة الكلام . أما رامز فتسارعت دقات قلبه ونسى موقفه تطلعا لما يأتي عن شيرين،واتم الكاتب القراءة فقال:«وابشركم بانها نجت بعد أنوقعت فى خطر القتل ، وكانت من اكبر الوسائل المساعدة على فرار القادين المتقدم ذكرها .. فاذا كان أخونا رامز لا يزال على قيد الحياة فانى أهنئه بها » . فعاد الضجيج ، وقام صادق بك ونادى رامزا وهنأه

ثم تلا الكاتب تتمة رسالة مركز سلانيك فقال : « مما جاء فى رسالة أخينا الدكتور (ن) تتحقق حاجتنا الى مقاومة مساعى أولئك الاشرار . وقد كتبنا صورة منشور الى الاهالى والقبائل نرجو ان توزعوهبمعرفتكم . وكذلك تجدون مع هذا صورة عريضة رفعناها الى قناصل الدول هنا نطلعهم على أحوالنا مع سلطاننا وحكومتنا،فوزعوا منها نسخا علىالقناصل فى جهاتكم لتكون أعمالنا مبنية على الحكمة والتعقل . ويسرنا ان نخبركم أن أخانا طوسون بك الذى تنكر بلباس الدراويش وسار لبث روح الجمعية المقدسة فى الأناضول قد أفلح وأنشأ فروعا من الشعب فى تلك البلاد انتظم فيها أكثر ضباط الفيلق الثالث »

فلما فرغ الكاتب من تلاوة الرسالة تنفس الاعضاء الصعداء ، ولا سيما رامز ، فقد كان تأثيره مزدوجا ، وأهمه امر شيرين ، لكنه صبر نفسه الى الخروج من الجلسة . وأخذ الاعضاء يتباحثون ، فقال صادق بك بما عهد فيه من الرزانة فى أحرج المواقف . « هذه يا اخوانى أخبار مهمة تستوجب اعمال الفكر ، وأهمها فى نظرى ارسال الجواسيس لبث روح الشقاق . وقد سبقنا اخواننا فى سلانيك الى نشر المنشورات فى سبيل الوفاق بين الطوائف ، وأرى أن نعيد الكرة. ونذكر فى منشوراتنا سعى الظالمين واعمالهم ، وأن نترجم هذه المنشوورات الى اللغات البلغارية والسرية والالبانية ونفرقها فى الرؤساء ومشايخ القرى وزعماء القبائل والعصابات . فما رأيكم ؟ »

فنهض سعيد وقال : « أنه لنعم الرأى،وأنا اتولى تفريق هذهالمنشورات بيدى »

فقال صادق بك : «بورك فيك ! انك نعم الصديق الامين لأبينا مدحت رحمه الله . ان هذه المهمة شاقة وكثيرة الخطر ، اذ يعسر عليك الوصول الى تلك العصابات وهى لا تستقر فى مكان . ولكنى اشير عليك ان تستعين فى معرفة أماكنها بالأخ نيازي بك قائد طابور رسنه ، انه ذو حمية وبسالة، وقد قضى مدة فى مطاردة العصابات البلغارية ، وقد أحس البطل هادى

باشا العمرى حاسى حمى الاحرار بتعيينه هناك ، وانى اتوقع لهذا الشاب مستقبلا مجيدا . ونحن نعرفه ، ولكنه لا يعرفنا . انه من اخواننا اعضاء هذه الجمعية المقدسة ، فهو يعرف أحوال العصابات ، فاذا لقيته فاستعن به فى البحث عن اماكن رؤسائها »

تم استأنف صادق بك الكلام فقال : « وهناك امر عظيم الاهمية أيضا . اعنى به مخابرة الدول على ايدى قناصلها بتقارير نشرح فيها حالنا مع سلطاننا ورجاله ، حتى نعذر فى نظرهم اذا مست الحاجة الى التحكيم أو نحوه ، وهذا العمل لا أرى فينا اليق به من اخينا رامز ، لانه لابد من بحثه عن خطيبته الباسلة الحرة ، وهو كاتب متضلع فى اللغات الاجنبية ، ففى طريقه يقوم بهذه المهمة »

فوقف رامز وقال : « انه لشرف عظيم لى ان يرانى الاخ صادق بك أهلا لهذه المهمة ، وسأقضيها على الرأس والعين »

فوقف صادق بك عند ذلك وقد ابرقت عيناه وبانت البسالة فيهما وقال: «بقيت مهمة واحدة أطلب اليكم ان تسمحوا لى بها لانها من واجباتى ! »

ففهم الجميع أنه يعنى قتل شمسى باشا ، فتصدى ضيا بك قائلا : «ان المهمة التي تشير اليها أيها الأخ الباسل نضن بيدك أن تمتد اليها . أنا انوب عنك فيها »

فوقف خبيب بك وابدى مثل هذه الرغبة ، فقال صادق : « نحن منفقون اذن على وجوب ازالة ذلك المخلوق الفاسد ، ولا فرق فى أن يكون أحدنا أو الآخر هو المنفذ لهذا العمل .. وها أنذا أقسم اليمين » . وتقدم نحو القرآن والسيف فتسابق رضا وحبيب الى هناك ووضع كل منهم يدا على القرآن ويدا على مسدسه واقسموا اليمين المغلظة بقتل ذلك الرجل وغيره عند الحاجة فى خدمة الحرية والدستور . فأثر ذلك فى سائر أعضاء الجمعية ، فهبت الحماسة فيهم ودبت الحمية فى عروقهم دبيب الكهرباء ، فنهض شاب من الاعضاء هو الملازم (ك) وقال : « لا يليق بأحد منكم أن يلوث يده بدم ذلك الفظ الغليظ ، أنا أريحكم منه . ثقوا أنى أفعل ذلك .. ويجب أن أفعله وحدى » . قال ذلك وقد تجسمت الشجاعة فى عينيه

فهتفوا جميعا « فليعش الفدائى الحر » . وقال صادق بك : « هكذا تكون الحماسة والمروءة .. كان الله معك أيها الأخ لكسر شوكة الظالمين »

ثم قال صادق بك : والآن سيتلو عليكم الأخ الكاتب صورة المنشور الذى سيوزع على يد الأخ سعيد بك فى رؤساء القبائل وزعماء العصابات البلغارية وغيرها . وبما أنه طويل ارجو أن يتلوه مختصرا ؟

فوقف الكاتب وقرأ هذه الخلاصة :

« الى اخواننا المسيحيين من بلغار وصرب ويونان والبـان وغيرهم .

« قد مضى نصف قرن على الممالك الصغيرة المحدقة بمقدونيا ــ ونعنى بها بلغاريا واليونان والصرب.وهى تزعم أنها تسعى فى مساعدتكم وانقاذكم من ظلم العثمانيين . فاذا صدقت فى انقاذكم من ذلك الظلم فلكى تبتلعـكم وتضمكم لنفسها . فهى لذلك تبث روح الشقاق بيننا وبينكم حتى جرت الدماء أنهرا ، فيا اخواننا أبناء الوطن قد آن لكم أن تستفيقوا وتعلموا أن تلك الحكومات انما هى طامعة فى بلادكم . واعلموا أن هذه الأمنية لن ينالها أولئك الطامعون فسنبذل أرواحنا دونها . اننا نعترف لكم بفساد الحكومة العثمانية الآن.وحق لكم أن تشكوا منها ،ونحن ايضانشكو نفس الشكوى، وقد قمنا لاصلاحها بأيدينا . وأول أسباب ذلك الاصلاح اتحاد العناصر العثمانية من ترك وبلغار وروم والبان . ومن أجل ذلك أسست جمعيـة الاتحـاد والترقى العثمانية ، واعضاؤها هم امراء العسكرية وضباطهـا والمأمورون الملكيون ، وكلهم من خيرة رجال الشرف ، يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل هذا الوطن . ومقصد الجمعية الأول هو الحرية وصـون الأعـراض والأرواح والأمـوال لـكل العناصر ، وتغيير شـكل الادارة ، فتستعيض بالشورى عن الاستبداد. فلندع الافكار القديمة والآراءالفاسدة ولنتحد جميعا . فلتتحدوا معنا فى طلب الدستور والمساواة الخ الخ »

فلما فرغ الكاتب من تلاوة هذه الخلاصة قال الرئيس : « اقرأ علينـا خلاصة المنشور الذى سيوزع على الدول الاجنبية (الا روسيا) » فقرأ :

« سيدى

« ان الحال التى بات فيها القسم المهم من وطننا ، وهو مقدونيا ، والرغبة فى اصلاحها واعداد مستقبلها،حملنا على عرض السطور الآتية على مقامكم الرفيع مع كل اعظام . وقصدنا من ذلك هو اظهار الحق فى مسألة مقدونيا، وخلاص الدول الأوربية من مزاحمة لا طائل تحتها

« ان مساعى اوربا فى اصلاح مقدونيا لم تنته بنتيجة ولم تغير الأحوال بوجه من الوجوه ، بل هى انقلبت الى ما هو أسـوأ وكثرت القلاقل . واستولى ارتباك عام على كل أنحاء المملكة

« ان اصل هذا الفساد طمع روسيا فى مقدونيا،كما يشهد بذلك تاريخها الماضى ، ونحن نأسف لأن دول أوربا تسايرها . وقد اختلقوا مسألة ظلم المسيحيين فيها وأنهم تعساء تحت سلطة المسلمين.مع أنه ليس بمقدونيا تعصب اسلامى . نحن نقول قبل كل الناس ان سكان مقدونيا ليسوا فى الرفاه المطلوب . وآراؤنا متفقة من هذه الوجهة مع اوربا . الا ان اختلافنا هو تعيين منشـأ هذه العلة ، وفى اتخـاذ الوسائل الناجحة لعلاجهـا .

فنكبات مقدونيا ليست ناشئة منها . وقد عم أمثالها الولايات التى تتألف منها المملكة العثمانية لا مقدونيا وحدها ، وسببها هو استبداد الحكومة الحاضرة . والشيء الذى آل بالبلاد الى هذه الحال التى لا تطاق هو فقدان الحرية العثمانية ملكية وسياسية

« فان كانت أوربا تريد حقيقة أن تسعد المقدونيين ، فيجب أن تعينهم على ازالة الاستبداد الحاضر ليسعد العثمانيون عامة ويسعد معهم المقدونيون ، لأن مرض مقدونيا هو مرض تركيا كلها . وسيزول بهمة أبنائها

« فان كانت أوربا تريد اصلاح أحوالنا اكراما للانسانية فعليها ألا تتعرض لما نريده من الاصلاح ، وأن تضيق على الاستانة لتضع حدا للاستبداد ، أو تتركنا وشأننا ندبر أمورنا ونصلح شؤوننا ، ولا رائد لنا غير الحق والعدل لهدم صروح الظلم — وقد قدمت نسخة من هذا البيان لقناصل الدول الا روسيا الخ »

ثم تقرر أن يعطى البيان الاول الى سعيد بك ليتولى ترجمته الى اللغات البلغارية والصربية واليونانية ويكتب منه نسخا يفرقها فى القبائل والعصابات سرا ، وان يعهد فى أمر البيان الثانى الى رامز ليكتب منه نسخا بالفرنسية ويقدمه الى قناصل الدول . ثم ارفضت الجلسة وقلوب الأعضاء مملوءة آمالا وحمية

وعلى أثر ذلك سار رامز الى توحيدة والدة شيرين . فقابلها وأسر اليها مما سمعه عن نجاة ابنتها من يلدز وفرارها الى جهة مجهولة . ثم اخبرها بأنه مسافر الى بعض الجهات للبحث عنها . ففرحت فرحا شديدا وعادت اليها آمالها ومكثت تنتظر ما يأتى به القدر



العصابات الالبانية

قضى سعيد بضعة أيام فى ترجمة البيان ونسخه ؛ ثم تنكر بلباس أحد الفلاحين الألبانيين فجعل على رأسه طاقية قصيرة ولبس دارعة(صديرية) مفتوحة فوقها الكبران المرخى الاكمام وحول حقويه التنورة ، وتمنطق بمنطقة فيها الطبنجة ولف ساقيه بسيور (الطماقات) واحتذى حذاء غليظا ، ومشى وعكازه بيده فلا يظن من يراه الا أنه من عامة الالبان

وكان فى البانيا من جهة مناستير عدة عصابات من البلغار والالبان كل منها تنسب الى زعيمها . أشهرها عصابة جرجيس الألباني ، وعصابة توفيق الأهوماتلى ، وعصابة أمين البيسوجانلى ، وعصابة قورطيس النوسيللى وكل عصابة مؤلفة من عشرات من الرجال الأشداء يقطعون الطريق على الناس ويقتلون وينهبون بحجة الدفاع عن النصرانية ، وأكثر ما يكون تحرشهم بالمارة من المسلمين يأخذون ما معهم ويأسرونهم حتى يفديهم أهلهم . وكانت مهمة سعيد شاقة لان فى جملتها أن يبلغ منشور الجمعية الى رؤساء هذه العصابات . ولا يخفى ما فى ذلك من الخطر ؛ لكنه كان قوى القلب ثابت الجأش عاشقا للحرية يتفانى فى سبيلها

وكانت عصابات جرجيس الالبانى شديدة البطش قد ملأت بشهرتها جبال البلقان ، وهى تعمل باسمه ، فى غيابه أو حضوره . فأحب سعيد أن يبدأ بها فسافر فى طلبها وهى معتصمة فى الجبال الوعرة ، فطال سفره ، من جبل الى جبل مقتفيا آثارها فىتنقلاتها هناك .

وقضى فى ذلك أياما قاسى فيها الامرين من المشى والتعب ، حتى كاد يعدل عن طلبها . وهو أنما يطلبها لان جرجيس كان معها وهو يريد أن يبلغه المنشور، فأنبأه بعضهم أنهم فى جبل على بضعة ساعات من مكانه. فعاهد نفسه أن يقصدها فاذا لم يجدها عدل الى سواها

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل وهو يمشى فى سفح جبل على أن ينزل منه الى الوادى ثم يعود من طريق آخر الى أعلى الجبل المقابل حيث يقيم جرجيس بعصابته . فنزل الوادى ثم أخذ فى الصعود حتى اقترب من قمة الجبل ، والشمس قد دنت من المغيب ؛ فسمع ضوضاء أعقبها اطلاق الرصاص ، فدوى الوادى دويا عظيما ، وليس فيه ولا فى سفح الجبل بيت ولا خيمة . ولكنه شاهد بعض الخيام فى أعلى الجبل ومنها سمع اطلاق

البنادق . فلما سمع دوى الرصاص وقف وراء صخرة يحتمى بها ، واصاخ بسمعه ، ولم يبق بينه وبين قمة الجبل الا خمسون مترا ، وندم على مجيئه متأخرا ، لكنه تجلد وصبر . فاذا هو يسمع طلقات أبعد من الاولى وراء الجبل ، وسمع لغطا بين الخيام ووقع حوافر خيل . ثم طرق أذنه صوت امرأة تستغيث بالتركية ، ولم يسمع من كلامها الا قولها : « أمان جانم ، ما الذى تريدونه منا ؟ .. اتركونا فى سبيلنا » . ثم سمع صوت رجل يجاوبها بالتركية أيضا بقوله : « لا تخافى من هؤلاء الكلاب ولو كانوا مائة ». فأدرك سعيد ان عصابة جرجيس تعترض بعض المارة . ولكنه توسم فى صوت الرجل البسالة والقوة فحدثته نفسه أن يصعد خلسة حتى يشرف على المعركة وقد خيم الظلام فلا يخاف أن يراه أحد . فتسلق الصخور بخفة حتى أصبح وراء احدى الخيام ، فأشرف على المعركة ، فرأى رجال جرجيس محدقين بركب مؤلف من أربعة أنفس من بينهم رجل وامرأة واثنان على الاقدام هما خادمان . وتفرس فى الرجل والمرأة فلم يعرفهما لأن المرأة ملثمة ، ويظهر من مجمل حالها انها من أهل النعم ، وكذلك حال الرجل مع انه كان ملتفا فوق أثوابه بالعباءة ويغطى أكثر وجهه باللثام . فتربص سعيد ليرى ما يكون ، وقد استغرب مرور هؤلاء فى ذلك الطريق الوعر ، وأصبح شديد الميل الى استطلاع حقيقتهم ، ولم يخف على نفسه لأنه يبحث عن جرجيس من زمن طويل وقد سره أنه وصل اليه

فلما تكاثر رجال العصابة وكادوا يظفرون بالقوم تقدم الزعيم جرجيس ، وقد عرفه سعيد من طول قامته ونوع لباسه واسترسال شعره وما عليه من الاسلحة الثمينة . وكان قد لبس الجاكت والبنطلون والطماقات وحول وسطه المنطقة فوق الجاكت وفيها الطبنجات والخناجر . وعلى رأسه طاقية قصيرة مسطحة وفى مشيته تيه واعجاب . فخاطب الرجل بالتركية وهو ضعيف فيها قائلا : « لافائدة من دفاعكم ، وانما أنتم تعرضون أنفسكم للقتل ، ونحن لا نريد أنفسكم وانما تكفينا أموالكم ، فان لم تسلمونا اياها قتلناكم . ولا تخافوا على المرأة فنحن لا نتعرض للنساء »

فخاطبت المرأة رفيقها بلحن الاستغاثة قائلة : « يكفى جانم يكفى .. أعطهم ما يريدون »

فأبى الرجل ذلك وقال : « أليس من العار أن أرضخ لهؤلاء اللصوص برغم أنفى ؟ . ولكن .. » . وصر بأسنانه واشار نحو المرأة وهز رأسه أسفا ، يريد أن وجودها معه يلجئه الى القبول والتسليم . على انه استوقف فرسه ووقف وقفة أشد ولم يتحرك ، فمشى جرجيس نحوه بجأش هادىء ، وقال له : « لايصعب عليك التسليم ، فان أعظم منك سلموا لنا ، وقد رحمناك لأننا أردنا أن نستبقى حياتك اكراما لهذه المرأة »

فتراجع الرجل وقال : « وما الذى تريدونه منا ؟ »

قال : « نريد ما تحملونه على هذه البغال »

فالتفت الى المراة وقال : « وما هو رأيك ، كيف نسلم ؟ »

فقالت : « لابأس يا فوزى .. اعطهم ما يطلبون فانهم يرتزقون بهذه الحرفة .. قبح الله ذلك الطاغية الملعون ، كم أفسد من أخلاق رعاياه ! »

فلما سمع سعيد اسم فوزى وذكر الطاغية اعتقد ان هذه هى القادين ومعها الاميرالاى فوزى بك كما انباهم جاسوسهم فى رسالته . فاخذ يبحث بنظره عن شيرين فلم يجد معهم من النساء غير القادين . فرأى من الحكمة والمروءة أن يتوسط حينئذ ، وفى توسطه جراة كبيرة ، لكنه تعود ركوب الاخطار

وكان الظلام قد تكاثف ، وهناك نار موقدة امام الخيام . ورأى رجلا من العصابة أشعل عودا من الكبريت أنار به مصباحا ومشى نحو جرجيس فظهرت عند ذلك سحنة الاميرالاى ، وكان ملثما وعليه ثياب السفر . فتقدم سعيد ونادى : « جرجيس . أيها البطل ! »

فالتفت الجميع نحو الصوت واجفلوا ، اذ لم يكن أحد منهم يتوقع أن يسمع صوتا من وراء الخيام فأجابه جرجيس : « من أنت ؟ »

قال : « انى ضيف عليك ، وقد قضيت أياما وأنا أطلبك لأؤدى لك أمانة عندى ، فهل أقدمها ؟ »

فاستغرب ذلك الطلب ، وأومأ الى رجاله أن يحيطوا بفوزى والقادين وينزلوهما فى احدى الخيام ، وتحول نحو سعيد فرأى رجلا ليس فى لباسه ما يدعو الى التهيب فصاح به : « ويلك ! . من انت ؟ »

قال : « أنا رسول اليك من أمة برمتها .. أعرنى سمعك واجلسنى معك لاقص عليك خبرى »

فبغت والتفت اليه باحتقار وقال : « من أنت لتخاطبنى بهذه اللهجة . انها جراة غريبة »

قال : « قلت انك ستعرف من أنا ، ومنى عرفتنى وعرفت من هو خصمك الذى عفوت عن نفسه واقتنعت بماله لا تندم على الاصغاء الى »

فأشار جرجيس الى رجاله أن يضيئوا خيمته ويدخلوا اليها الاسيرين ، ولحظ سعيد فى اثناء تحول القادين عن فرسها انها تتوكأ كأنها مثقلة ، فعلم انها حامل . ثم دخل جرجيس ودعا سعيدا وامره بالجلوس ، واجلس الاميرالاى والقادين على طنفسة هناك ، وظل هو واقفا فقال سعيد : « تفضل باحضرة الزعيم ، اجلس . انى عارف قدرك ، ألست رئيس جمعية طوسقا الالبانية ؟ »

قال : « نعم ومن أنت ؟ قل حالا »

قال : « أما أنا فاني مندوب متنكر جئتك برسالة من جمعية الاتحاد والترقى العثمانية سأدفعها اليك الآن ولا حاجة بك أن تعرف من أنا » . ومد يده وأخرج ورقة دفعها اليه ، فتناولها ودنا من المصباح وأخذ فى قراءتها . وأخذ الاميرالاى يتفرس فى سعيد فلم يذكر انه يعرفه . أما سعيد فانه اغتنم اشتغال جرجيس بتلاوة الورقة وقال للأميرالاى : « ألست الاميرالاى فوزى بك ومعك حضرة القادين ج ؟ »

فأجفل فوزى بك عند سماعه ذلك التصريح وهو يحسب نفسه بعيدا عن المعارف لا يعلم به أحد هناك ، ولكنه تجاهل وانكر وقال : « لا أفهم ما تقول ، من أنت ؟ »

قال : « يا للعجب كم تسألون من أنا وتنكرون من أنتم . لا ينبغى أن تخاف منا ، اننا لا نقتل على الشبهة كما يفعل صاحبكم فى يلدز . ولا نطلب غير حقنا : فأخبرنى أين شيرين رفيقتكما ؟ »

فلما سمع تيؤاله عن شيرين تحقق انه مطلع على حقيقة أمرهم ولاسبيل للانكار ، وأعظم أمر الجمعية لتيقظها فقال : « ان شيرين فارقتنا فى سلانيك »

وكان جرجيس قد فرغ من تلاوة الورقة فرماها الى سعيد باحتقار وقال : « هذا كلام لايمكننا سماعه . نعم اننا أقرب الى المصالحة معكم جماعة المسلمين ، ولكنكم تحتالون علينا وتضحكون منا فتأتوننا كل يوم ببيان جديد ؛ تكتبون الينا اليوم بمعنى الاتحاد بين العناصر ، وتكتبون الى المسلمين تحرضونهم علينا . وقد كنا صدقناكم وعزمنا على حل العصابة فوقع لنا كتاب مرسل منكم الى المسلمين تبينون فيه فضل الاسلام ومزية المسلم على غيره وتجعلون أموالنا حلالا لكم »

فقال سعيد : « أين هذا الكتاب ؟ انه من رجل مفسد . . أين هو ؟ »

فأشار جرجيس الى أحد رجاله فأتاه بمحفظة أخرج منها كتابا مرسلا الى حاكم استاورة فى تلك الجهة عليه الطغراء وقد صدر باسم الخليفة . ثم قال جرجيس : « ألم تقولوا انكم تطلبون الدستور وفيه حماية الاعراض وحفظ الحقوق لكل الناس على اختلاف مذاهبهم ؟ وهذا كتاب من السلطان يقول عكس ذلك . خذ اقرأ . الا يقول هنا أن سعى جمعية الاتحاد والترقى فى طلب الدستور مفسد للأخلاق ، وانه لايوافق مصلحة المسلمين لأنه يجعل نساء المسلمين يخرجن حاسرات كنساء الكفار ؟ »

فتناول سعيد الورقة وقرأ فيها نحو هذا المعنى ، وأمعن نظره فى الامضاء فاذا هو « صائب » فعلم أنه جاسوس السلطان الذى ذكره الدكتور (ن) وأنه وصل الى تلك الجهات ، وأخذ فى بث تلك الروح الشريرة التى حذرهم منها الدكتور . فقال سعيد : « يا سيدى ان كاتب هذه الأسطر أحد جواسيس القصر ، وهؤلاء خاصة يعملون

على عرقلة مساعينا فلا ينبغي الاصغاء لهم »

فأدار جرجيس وجهه واظهر عدم المبالاة بما يقوله سعيد كأنه ندم على مسايرته وسماع حديثه ، والتفت نحو الأميرالاي وقال : « أعطونا ما معكم والا قتلناكم » .

فشق على سعيد ما رآه من استخفاف جرجيس بقوله ، ولم يصبر على ذلك الضيم فقال : « يا جرجيس .. لا يحسن ببطل مثلك ملأت شهرته الخافقين أن يحتقر رسولا من جمعية حرة تطلب الاتفاق معه على مكافحة الظالمين . امن أجل رسالة كاذبة من جاسوس منافق ترد ايدى الاحرار الممدودة لمصافحتك ؟ »

قال : « ومن يؤكد لي أن هؤلاء الأحرار القائمين بطلب العدل والحرية لا يصيرون عبيدا للظالمين غدا كما صار سواهم ؟ دعني من ذلك وكفى »

فأطرق سعيد وأعمل فكره في طريقة يقنع بها الرجل بخطئه ، واذا هو يسمع صوت اطلاق النار حول الخيام بكثرة وسرعة ، وقد قامت الصيحة في الخيام . فخرج جرجيس للبحث عن السبب . فرأى تلك الخيام قد أحاط بها الجند العثماني من كل صوب وفر الألبانيون الا جرجيس فانه أوشك أن يفر كعادته . ولولا اشتغاله بأمر سعيد ومباحثته واشتغال رجاله بحراسة أولئك الاسرى لاشتموا رائحة الجند عن بعد وفروا الى جبال أخرى اعتصموا بها وامتنع على الجند الوصول اليهم

فأطل سعيد من الخيمة فرأى ضعف جرجيس وفرار رجاله فقال للأميرالاي : « أمكث هنا مع القادين وسأعود اليكم » . وتقدم نحو الجند فاذا هم فصيلة في مقدمتها ضابط كالأسد الكاسر ، واتفق وقوع نور المصباح على وجهه فتبينه فاذا هو نيازى بك الرسنه لي الذى أوصاه صادق بك أن يستعين به في كشف أماكن العصابات ، وكان قد شاهده في مناستير وتعارفا . وكان نيازى لكثرة مطاردته العصابات قد أصبح اسمه كافيا لبث الفزع في قلوبهم ، فهو لم يلق عصابة الا شتت شملها . فبلغه في تلك الليلة نزول جرجيس هناك بنفسه مع عصابته فأحب أن يبغته ويلاقيه ويباحثه في معنى ما اتى به سعيد . فتسلق الجبل برجاله خلسة ، وقد عرف المكان من المصباح ، فرآهم مشتغلين عن التلصص فلم يشعروا الا وهم محاطون بالجند ولم تبق لهم حيلة . ولحظ نيازى عزم جرجيس على الفرار فصاح فيه : « جرجيس جرجيس . لا تهرب ولا تخف انى لا اريد بك سوءا »

فوقف جرجيس وقد تعجب سعيد من هذه المصادفة وتفاءل خيرا بنجاح مشروعهم الجديد ، وتقدم نحو نيازى بك وقال : « نيازى بك ؟ »

فلما سمع صوته عرفه فترامى عليه وقبله وقال : « سعيد بك ؟ أنت

هنا ما الذى اتى بك .. هل أصابك سوء ؟ »
قال : « كلا . انى فى خير وانا مقيم فى ضيافة جرجيس البطل الألبانى »
فلما سمعه جرجيس يقول ذلك خجل من نفسه واحترمه وتقدم اليه وقال : « لم تقل لى من انت ؟ »
فقال : « ليست العبرة بشخصى ، بل العبرة بما جئتك به .. والآن ما رأيك اذا سمعت هذا القول من نيازى بك نفسه ، وهو الظافر الآن ؟ »
فتقدم نيازى الى سعيد وقال : « أظنك جئت لتبليغ الرسالة الجديدة »
قال : « نعم ، ولكن صاحبنا لم يصدقنى . وقد أطلعنى على رسالة من بعض رجال القصر تقول عكس قولنا »
فقال نيازى لجرجيس : « اعلم ايها البطل انى من أعضاء هذه الجمعية المقدسة ولكى اؤكد لك حسن نيتنا فى المنشور الذى اتاك به أخونا سعيد بك . هات يدك لأصافحك ، ولنتحد معا علي القوم الظالمين . وبدلا من أن نتقاتل ونحن ابناء وطن واحد نجتمع على مقاتلة المستبدين ونسعى فى نيل الدستور »
فلم يسع جرجيس عند ذلك الا الاذعان ، ومد يده وصافح نيازى ، واقسما على العمل معا ، وان يكون ذلك سرا مكتوما حتى يأتى وقته . فأشار نيازى الى رجاله أن يتفرقوا ويستريحوا ، فدعاه جرجيس الى الاستراحة . فتقدم سعيد وقال لنيازى همسا : « الم يبلغ شعبتكم فى رسنه خبر القادين التى فرت من يلدز مع أحد القواد الألبان ؟ »
قال : « بلى .. ومعها شيرين خطيبة صديقى العزيز رامز »
قال : « تعال فأريك القائد والقادين . أما شيرين فقالا انهما تركاها فى سلانيك »
ومشي نيازى الى تلك الخيمة ، فدخل سعيد وقدمه الى الأميرالاى فوزى بك والقادين . فأثنى الأميرالاى على ما شاهده من بسالة نيازى وحميته ، واعجب بما رآه من تفانيهم فى سبيل الدستور الى أن قال : « الآن تأكدت فوز الاحرار وان ذلك الطاغية مغلوب على أمره »
فقال سعيد : « اننا لا ننفك عن الطلب حتى ننال ما نريده أو نموت »
فقال فوزى بك : « لا تخبرنى كيف عرفتنى ؟ وقد خرجنا من يلدز ولم يطلع أحد على خبرنا »
قال : « نحن هنا فى هذه الجبال ونطلع على أخبار عبد الحميد فى أبعد قصوره ، ونعرف ماذا يأكل أو يشرب »

فقال : « وفقكم الله الى ما تريدون ، ونحن لم نترك يلدز الا لنكون معكم فى هذا السبيل ، فماذا نفعل ؟ »

قال : « تنزلون مناستير ، وسنلتقى هناك ونتعارف ونتعاون ، والآن قد تعبتم . وأظن جرجيس يغض النظر عن مطالبه منكم » . والتفت الى جرجيس وضحك ، فقال جرجيس : « بل أنا فى خدمتكم الى حيث تريدون »

فقال نيازى : « لا نكلفك هذه المشقة فأنا أتولى ايصال حضرة الأميرالاى الى مكانه ، وانما أطلب منك المحافظة على العهد الذى عقدناه فى هذه الليلة »

قال : « انى على ما تريدون »

فودعوه وعادوا ، فمشى نيازى ورجاله فى خدمة فوزى بك حتى وصلوا الى الطريق السلطانى وهناك افترقوا . فعاد نيازى الى بلده وهو غارق فى بحار التفكير لأمر خطر له وهو يخاطب جرجيس فى تلك الليلة سيكون له شأن فى نيل الدستور

سار سعيد بك وفوزى بك يطلبان مناستير ، فقص هذا حديثه عن القادين ، وأنه كان يتعشقها قبل أن تصير قادين ، وهى لا تلتفت اليه لاشتغالها بعبد الحميد ، وأنها كانت تظهر انعطافها نحوه ، وكان لها يد فى ترقيته حتى صار من الياوران وتولى رياسة احدى فرق الحرس . فلما علمت بعزم السلطان على الغدر بها بسبب حملها بعثت اليه فدبر أمر تهريبها مع شيرين . فسأله عن شيرين أين هى فقال : « جئنا معا الى سلانيك بعد أن طال سفرنا فى الطريق لأننا جئنا على الأفراس فى طرق بعيدة عن المدن خوفا من عيون عبد الحميد . فلما وصلنا الى سلانيك نزلنا فى فندق متنكرين وهى معنا ، ثم استأذنتنا فى الذهاب الى بيت أبيها لعلها ترى والدتها هناك لأنها فارقتها فى ذلك البيت . فمضت مع خادمها ولم تعد . فبعثنا خادمنا فى اليوم التالى يبحث عن خبرها فعاد وقال انه وجد أباها ، وهو يعرفه منذ كان فى يلدز ، وان صائب باشا الجاسوس معه ، وقد اعتزم أن يزفها اليه ، وكأنها يئست من بقاء رامز فقبلت . ولم يعد بامكاننا البقاء فى سلانيك خوفا من كشف أمرنا ، فسافرنا نطلب بلدا لنا من ولاية مناستير ، فاتفق لنا ما رأيت »

فشق خبر شيرين على سعيد لعلمه أنه يغضب رامزا غضبا لا مزيد عليه ، وفكر قليلا ، فتذكر الكتاب الذى قبض عليه عند جرجيس بامضاء صائب يبث فيه روح الشقاق ، فتحقق أنه اذا عرضه على الجمعية حكمت على صاحبه بالموت فيقتل على أهون سبيل ، لكنه يجب أن يعرف مقره ، وأن يبلغ رامزا ذلك ، وهو لا يعرف أين هو

اعلان الثورة

وصل الركب بعد سفر شاق الى قرية فى ضاحية مناستير صاحبها من نصراء الجمعية فكلفه سعيد تهيئـــة بيت لاقامة عائلة الأميرالاى . وكانت القادين قد ثقل حملها ودنا وقت وضعها ، فارتاحت فى تلك القـــرية وأعد لها سعيد كل ما يلزم من أسباب الراحة . وصحب الاميرالاى الى مناستر وقدم اسمه للجمعية فقبلت عضويته ، فأدخلوه وأقسم اليمين فى الظـــلام وهم ملثمون كعادتهم عند قبول عضو جديد فى الجمعية . وبعد خروجه قص سعيد على الجمعيـــة ما كان من أمره مع جرجس ، ثم أخرج الورقة بامضاء صائب وأطلعهم عليها ، فتقرر بالاجماع أن سعى هـــذا الجاسوس من قبيل محاربة الحرية والدستور ، وذلك أشد نكاية على الجمعية من الجند والسلاح . فتبرع أحد الفدائيين بقتله حالما يعرف مقره

وبعد انفضاض الجلســة عاد فوزى بك الى منزله ، وذهب سعيد الى توحيدة وقص عليها ما سمعه عن ابنتها فلطمت وصاحت : « ويلاه ! .. انه لا يزال يفكر فى صائب ، وكل مصائبنا منه .. لا ينبغى أن أبقى هنا . يجب أن اذهب الى سلانيك .. لا شك أن شيرين تكون فى أشد الضيق ، وأخاف أن تقبل الزواج بذلك المنافق ليأسها من بقاء رامز ، فهى لا تعرف أنه حى . ويلاه ، ما العمل يا سيدى ؟ »

فقال سعيد : « لا حاجة بك الى السفر . أمكثى هنـــا حتى يأتى رامز لتخبريه عن شيرين ، وأنا أذهب الى سلانيك بدلا عنك »

فرضيت لعلمها أن سعيدا واسع الحيلة فقد يقوى على زوجها فيغـــير عزمه ويفض ذلك المشكل ، فأخذ سعيد يتأهب للسفر . وفى صباح الغد أتاه رسول من كاتب الجمعية يدعوه الى جلسة ستعقد فى مساء ذلك اليوم لأمر مهم ، فلم يسعه الا الانتظار . ثم عقدت الجلســةوحضرها رجل يعرفه من خير الاحرار هو جمال أفندى رئيس بلدية رسنة مقر طابور نيازى بك ، ويعرف ما بينه وبين نيازى من الصداقة والألفة . فلما تم عقد الجلسة قال الرئيس : « يا اخوانى دعوناكم لنطلعكم على أمر عظيم الاهمية هـــو خطوة جديدة فى أعمال جمعيتنا المقدسة ، وسيؤدى بلا شك الى نيـــل الدستور ، وان تكن اختنا أو أمنا جمعية ســـلانيك قد تقدمتنـــا باعلان الفتك بالظالمين — وهى خطوة مهمة فى أعمالنا — فان شعبة مناستير هذه

سيكون لها الحظ بأنها ستخطو خطوة اصعب مراسا ، نعني قيام الأمة معا للمطالبة بحقوقها باعلان الثورة . والفضل في ذلك راجع الى شعبة رسنة ، بهمة الأخ الغيور البطل نيازى بك ، فانه بعث الينا صديقه أخانا جمال أفندى ليقص علينا ما هو عازم عليه ، فأعيروه سمعكم »

فأصغى الجميع لما سيتلوه جمال افندى فقال : « يا اخوتى ، نحن اذا فعلنا شيئا ، أو استطعنا عمل شيء ، فانما نفعله بروح هذه الجمعية المقدسة التى ترشدنا وتهدينا وتأخذ بناصرنا . أما ما جئت من أجله فهو ان أخانا نيازى بك قائد طابور رسنة الذى تعرفون شجاعته فى حروبه ببلاد اليونان،كانت الحكومة قد كلفته مطاردةالعصابات البلغارية والألبانية، وقد طاردها بهمة وبسالة قد عرفتموها،فعلم بالاختبار أن الحكومة عاجزة عن مطاردة تلك العصابات ، وأن قيام الامة فى وجه الظالمين على هذه الصورة باسم الحق والحرية أفضل وسيلة لنيل حقوقها ، فكاشفنى بهذا الامر فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٨ ، ومعنا طاهر افندى مفتش البوليس ، وكلنا من أعضاء هذه الجمعية المقدسة . وقال لنا نيازى : « عندى ٥٠٠ ليرة اقتصدتها من تعبى ، ويمكننا أن نجمع حوالى مائتى رجل من اعضاء الجمعية والعساكر والقرويين ، ونهيىء لهم السلاح ، وستشاركنا اوخرى ورسنة أيضا ، فنشغل الحكومة فى هذه الآجام أشهرا ، وفاتنى ان أقول لكم ان المحرك الاصلى الذى حملنا على هذا القيام انما هو امر مضبطة روال التى تقضى بتقسيم مقدونيا واعطائها الى الاجانب كما تعلمون. ولا يمكننى كتمانما رأيته من تحمسالأخ نيازى بك ونشاطه، فقد ذكر لنا أن رسنه ينبغى أن تبدأ بهذه الثورة،لأن البلغاريين بدأوا منها وجلبوا لنا هذا البلاء ،وانه ينبغى لنا ان نحبالمسيحيين كاخواننا،ونساوى بيننا وبينهم ونعتبر أعراضهم اعراضنا وارواحهم أرواحنا واموالهم اموالنا لأن نهضتنا انما هى ضد الادارة الفاسدة ولاعلان الحرية والمساواة والاخاء ، كما ذكر انه مرسل اخواته وأبناءه وامرأته بلا معين الى مناستر ومودعهم وداعا ابديا ، فوافقناه على العمل ، وانفذونى اليكم لنستشيركم فى ذلك »

فلما فرغ جمال افندى من كلامه عرضت المسألة على الاعضاء فقال سعيد : « انه نعم الرأى . وانا أعلم منكم بصوابه ، لانى عانيت عذابا شديدا فى البحث عن العصابات ، ورأيت المشقة فى مناوأتها ، فعلمت ان الحكومة تعجز عن مطاردتها وهى شرذمة بلا نظام ولا تدريب ، فكيف اذا كان يديرها جند منظم ؟! . اسمحوا لى أن أهنىء نيازى بك على هذا الفكر الجميل وأن أشكره لقيامه به وتعريض حياته للخطر ولا سيما انه لم يتم العام على زواجه »

فاستأذن جمال أفندى فى الكلام وقال : «ذكرتمونى أمرا جميلا بهذا المعنى ، وذلك ان نيازى لما عزم على تشكيل العصابة علم ان ذلك يقتضى ذهابه فى الارض والاعتصام بالجبال وتحمل مشاق الأسفار والأخطار ، فذهب الى

عروسه وخاطبها بذلك فشجعته وقالت له : (اذهب يا نيازى ، لا وظيفة لك سوى الموت فى مصلحة الوطن) . فأرسلها مع عديله الى أهلها »

فوقف صادق بك وقال : « ان امرأة أخينا نيازى تذكرنا بخطيبة أخينا رامز ، وان أمة فيها مثل هؤلاء النساء لا يجوز حرمانها من الدستور . والآن لا أظنكم ترون مانعا من الموافقة على مشروع الأخ نيازى بك ، ولنرسل اليه التعليمات اللازمة ، وعسى أن يكون عمله قدوة لسواه اذ يشعر أهل القصر بأن الأمة برمتها غاضبة عليهم . وعلينا الآن أن نبلغ هذا الخبر الى الجمعية المركزية فى سلانيك »

فوقف سعيد وقال : « أنا اقوم بهذه المهمة » . قال ذلك ليغتنم الفرصة للبحث عن شيرين هناك

فقال الرئيس : « جزاك الله خيرا . أظن رامزا لم يعد من مهمته فى مخابرة قناصل الدول ؟ .. أين هو الآن ياترى ؟ »

قال : « لم يرجع بعد ، ولا نعلم أين هو ؟ . ولكنه لايلبث أن يعود ، وقد أفلح باذن الله »

ثم ارفضت الجلسة وتوجه جمال أفندى ومعه التعليمات لنيازى بك ، وشخص سعيد بك الى سلانيك وهو على أحر من الجمر ، فبلغ الجمعيــة الخبر وسمع منها خبرا لايقل أهمية ، وهو أن انور بك قام لمثل هذا الفرض بمن معه من الجند ، وكلفته الجمعية تبليغ ذلك الى شعبة مناستير . ثم قصد منزل طهماز فوجد المكان قفرا ، فسأل الجيران فأخبروه ان ابنته شيرين جاءته ومعها خادمها ، وبعد أن مكثوا أياما سافروا للبحث عن توحيدة ، فسأل : « هل تعرفون البلد الذى قصدوه ؟ » . فأجابوا : « كلا »

فأسف سعيد لهذا الفشل ، ولكنه تجلد لأن الزمان علمه الصبر وان الانسان لاينبغى أن يقلق ويضجر او ييأس . فعاد الى مناستير فرآها قائمة قاعدة ، وقد وصل اليها شمسى باشا ، واخذ فى التحرى والبحث والتشديد، وقد دله بعضهم على بعض اعضاء الجمعية فعزم على الفتك بهم . فعقدت الجمعية جلسة مستعجلة ثبتت فيها الحكم عليه بالاعدام ، ونهض الفدائى وهو يبتسم لقيامه بهذه المهمة . وفى اليوم التالى ضجت المدينة لمقتل ذلك المشير على يد شاب ملازم اطلق عليه مسدسه بين ١٥٠٠ من أعوانه وغيرهم ونجا بنفسه سالما ولم يقف أحد على خبره . فكان لهذا الفتك تأثير شديد فى قلوب أعداء الجمعية ، وتضاعفت هيبتها ، ولا سيما بعد أن شاع خبرعصابة نيازى

□

كانت عصابة نيازى قد نجحت نجاحا باهرا ،وطلب الانضمام اليها خريستو القائد البلغارى فقبلوه ، فاكتسبوا بذلك ثقة البلغاريين ، وقبل سفر العصابة

كتب نيازى اعلانات بعث بها الى القصر والمفتش العام وقومندان الجندرمة فى مناستير وبكباشى الطابور فى رسنة ومدير رسنة ؛ وقال فى كتابه الى القصر : « ان الأمة تطلب الدستور،والجمعية صاحبة هذا المشروع مستعدة لخدمة الذات السلطانية دون أن تحاسبها عما سلف من السيئات ، فنحن نريد الدستور فان كانت الحكومة لا تمنحه طوعا فالأمة ستأخذه عنوة »

ولما آن السفر أخذوا يهتمون بصرف أنظار الحكومة عنهم لئلا تشعر بفرارهم ؛ فارتأى نيازى أن يصرف اهتمامها الى مكان خارج المدينة زعم أن عصابة بلغارية هاجمته ، فخرج الجند الى ذلك المكان ، فخلت الثكنة ، فدخل هو ورجاله اليها وفتحوا صناديق الأسلحة واخذوا ما وجدوه من النقود ، وكتب نيازى صكا بذلك حفظ فى صندوق الطابور

خرجوا وهم ١٥٠ رجلا قاصدين الى لاحجة . فالتقوا بمن وافاهم الى هناك ، وشرح لهم نيازى خطته فقال : « ان خطتى الجهاد فى سبيل الحرية الى الممات،فمن لا يرضى فليرجع ». فوافقوه وساروا معه وجعلوا يطوفون القرى يدعون أهلها الى الاتحاد معهم فى طلب الحرية والدستور،ويحلفونهم على الثبات ، وبذلوا الجهد فى محاسنة غير المسلمين ومعاملة الأهالى بالرفق والعدل ، وأدخلوا عددا كبيرا من الأهالى فى الجمعية وفيهم النصارى والمسلمون على اختلاف الطوائف فى استاورة واوخرى وغيرهما . وكتب نيازى الى جرجيس رئيس عصابة الألبانيين يدعوه الى الانضمام اليه لمناهضة الحكومة الظالمة ، وكتب بذلك الى غيره أيضا

فلما علمت الحكومة فى رسنة بخروج نيازى ورجاله بعثت جندا للقبض عليهم فلم يعرفوا الطريق اليه ، وساعدهم على الاختفاء أن الجمعية كان نفوذها قد تمكن فى أهم المدن هناك مثل أوخرى ودبره وقروشيشته وغيرها . وانضم اليهم كثيرون من المغضوب عليهم الفارين من كل الطوائف . وكان نيازى يصرف الرواتب الى رجاله مما جاء به معه ، واذا احتاج الى المال أخذ من البلد الذى يكون فيه ، وأعطى شيوخه صكا على الحكومة تقتطع قيمته من الضرائب

وفى اليوم الثالث من خروجه كتب الى الجمعية فى مناستير بما فعله وبشرهم بنجاحه ، وبعث منشورا الى نصارى مقدونيا ترجمه الى لغاتهم يطلب اليهم نبذ الضغائن القديمة والاتحاد مع المسلمين لطلب الدستور ، وأن هذا هو الغرض الاصلى لجمعية الاتحاد والترقى ، واهتم بجمع كلمة القرى الاسلامية المتقاربة وتشكيل هيئات ادارتها واحكام الصلح والوفاق بينها . وجمع اليه الهاربين من الجيش أو السجن ممن كانوا يضرون بالاهالى وأجمل لهم النصح ، ودبر ما يمنع مضارهم ، واجتذب قلوبهم بالعفو والملاطفة وحسن الاسلوب واتباع الحق والعدل ، ودبروا طريقة لمخابرة رسنة وأوخرى واتخذوا بريدا وعينوا منازله

واشتد ازر نيازى لما بلغه قيام أنور بك مثل قيامه ، وكان ينشىء فى القرى التى يمر بها نوعا من الحكومة الدستورية يوافق نظام الجمعية ، وكان الناس ينضمون اليه ويؤازرونه . ولحقت به عدة عصابات وطنية

فلما بلغت أخبار هذا النجاح الى مناستير اشتد أزر الجمعية فكتبت انذارا الى والى مناستير تقول فى جملته:«ان حكومتكم الحاضرة غير شرعية لأنها خالفت الدستور . وأن الجمعية تعمل على استرداده » . وكتبت الى نيازى كتابا ضمنته الأوامر والنصائح والأخبار ، وفى جملة ذلك أن شمسى باشا أعدم علنا ونجا قاتله »

ففرح نيازى بذلك.واضطربت الحكومة وأهمها الارتباك والفوضى فعينت الفريق عثمان باشا بدلا من شمسى.فاجتمعت الجمعية وبحثت فيما تفعله، فرأت الميل الى الرفق . فقررت القبض عليه بدلا من قتله ،وبعثت تستقدم نيازى . وكان قد طاف كثيرا من بلاد البانيا وعزم على المسير الى يانيا ، فقضى فى تنقله أياما يجمع كلمة الناس باسم الجمعية ، ويستحلفهم على النبات ضد الظلم . بلا تفريق بين المذاهب أو العناصر ، فدخل فى محالفته البلغار والصرب والألبان والأروام . وصار الرهبان يحتفلون بقدومه ، ويتوسلون الى الله أن يأخذ بيده ، وهم يعدون الجمعية حكومة دستورية شرعية خفية

فلما وصله الأمر بالمجىء الى مناستير أسرع اليها وهو لا يعلم ما يطلب منه،وقاسى فى سبيل عودته كثيرا من المشاق،حتى أتى ضواحى مناستير، فوصل اليه كتاب من الجمعية تأمره بالقبض على عثمان باشا ، فحاصروه فى مركز القومندانية وقطعوا الأسلاك التلغرافية ، وجردوا الحراس من الأسلحة . وكان الباشا نائما فأيقظوه وأمسكوه من ذراعيه ، وأفهموه الا خوف عليه ، ثم تقدم اليه نيازى وأخذ يقنعه بأنهم لا يريدون اذاه . وأن مقصدهم شريف . وأن المراد حمله ضيفا الى رسنة . وسلم اليه كتابا من الجمعية قرأه فاذا عبارته لطيفة . وفيه ثناء على قدرته العسكرية وشجاعته . وان الجمعية لا تنوى قتله كما قتلت شمسى باشا بل هى تأسف اذا أصيبت شعرة من شعره بأذى . فسكت ، فأخذوه الى رسنه

فلما رأت الحكومة انحياز فيلق مقدونية الى الجمعية بعثت تستنجد فيلق الأناضول فانحاز الى الجمعية . فسقط بيدها

وأخذت الجمعية تزداد قوة وأملا يوما بعد يوم . وكانت تنتظر رجوع رامز من مهمته الى القناصل . وفى أواسط يوليو من تلك السنة عاد رامز وطلب عقد الجمعية . وأخبرهم أن الدول لا ترى بأسا من طلب الدستور ولا تقف فى طريقهم اذا طلبوه

فتباحثـــوا وقد أخذت الحماسة منهـم مأخذا عظيمـا فقرروا طلب الدستور من القصر

فوقف سعيد وقال : « أرى قبل الاقدام على هذا الطلب ، وهو آخـر خطوة نخطوها فى عملنا ، أن نستشير اخانا الجديد الأميرالاى فوزى بك ، فانه ذو معرفة وحنكة ، وخطيبته من نساء عبد الحميد وتعرف اخلاقه »

فاستحسن الجميع رايه ، وكلفوا سعيدا أن يخابره ، فاصطحب ابنـه رامزا ، وقص عليه خبر شـيرين فى اثناء الطـريق ، وكيف أنه ذهب الى سلانيك ولم يجدها ، ولا يعلم أحد مقرها ، فتجددت احزانه

☐

كان فوزى بك قد أقام بقرية بضاحية مناستير فوصلوا الى القـرية فى الضحى فوجدوه فى الحديقة وأمارات البشر على وجهه ، فلما رأى سعيدا هش له وتقدم لاستقباله ، فتقدم سعيد وعرفه بابنه وسأله عن سـبب تغيبه عن مناستير منذ أيام فقال : « انه كان مشتغلا بالقادين لأنها وضعت منذ بضعة أيام »

فقال سعيد : « وماذا وضعت ؟ » . قال : « وضعت غلاما »

وكان سعيد قد علم من حديث جرى بينه وبين فوزى بك أن الطفـل ابن عبد الحميد ، وهم بأن يسأله عن شكله ، فأسرع فوزى بك واخرج من جيبه صورة فوتوغرافية دفعها الى سعيد وقال : «هذه صورة الطفل»

فاستغرب سعيد تسرعهم فى تصويره ، فقـال فوزى : « ان القـادين طلبت ذلك بسرعة ، وأرسلت الصورة الى يلدز من بضعة أيام ، وهى تعتقد أن ارسالها يسهل نيل الدستور على الجمعية »

فتأمل سـعيد فى الصورة ، ومرت فى خاطره أفـكار متضاربة ، وتذكر حوادث كثيرة شبت فيها الحروب أعواما بسبب دعاة الملك المشـكوك فى أنسابهم . لكنه عاد الى المهمة التى جاء من اجلها ، فقص على فوزى بك نجاح الجمعية وقال : « انها عزمت على طلب الدستور من السلطان، فرأيت أن نستشيرك فى ذلك قبل الاقدام عليه ، فماذا ترى ؟ »

قال : « أري المبادرة الى الطلب بلهجة شديدة ، فان السلطان ضعيف الآن، وهذه فرصة لا تضيعوها »

وكان رامز وهو يسمع الحديث ينزه نظـره فيما حوله من الأشـجار والرياحين ، فوقع بصره على شبح بلباس النسـاء مر فى طرف الحديقـة

البعيد بأسرع من لمح البصر ، فارتاب فى أمره،لكنه رأى السؤال عنه فضولا منه فسكت. ولم تمض بضع عشرة دقيقة حتى رأى أهل القصر فى هرج، وقد قامت الصيحة وتراكض الخدم نحو الحديقة ، فبغت فوزى بك وصاح فيهم : « ما بالكم ؟ » فتقدم اليه أحد الخدم وهو يلطم ويقول: « الطفل ! الطفل ! »

فقال : « ما باله ؟ .. ماذا جرى له ؟ »

قال : « لا أدرى .. انه يصيح من الالم وقد ازرق بدنه وغارت عيناه ! »

فركض فوزى وتبعه سعيد ورامز فسمعوا بكاء القادين قبل الوصول الى البيت ، فدخلوا الدار ودخل فوزى الى غرفة القادين ، وبعد برهة عاد وهو يحمل الطفل ميتا لا حراك به ، ويكاد جلده يكون أسود ، فحالما وقع نظر سعيد عليه عرف أنه مات مسموما فقال : « ماذا أطعمتموه ؟ »

قالوا : « لم نطعمه شيئا »

قال : « لا بد من أن شيئا ساما دخل جوفه . انظروا من خدعكم .. »

فالتفت الخادم الى المرضع،فانتبهت لأمر جرى فى تلك الساعة فصاحت: « ويلاه ! لعل تلك الساحرة التى حنكته قد دست السم فى فيه ! »

فقال فوزى : « من هذه الساحرة ؟ »

فأخذت المرضع فى البكاء وجعلت تلطم وجهها وتقول : « اقتلونى اقتلونى ، أنا الشقية ، أنا الجاهلة .. ان المرأة أتتنى فى هذا الصباح وزعمت انها ساحرة وطبيبة ، وانها تحنك الأولاد فيسمنون ، وسحرتنى بلطفها وحملت الطفل لحظة دخلت فى أثنائها لغرض ، فرجعت ورأيت الطفل وحده كالنائم ، ثم سمعته يصرخ ويتوجع .. ويلاه .. أين هذه الملعونة ؟ » . وأخذت فى النواح

فقال رامز : « رأيت منذ ربع ساعة امرأة عليها ازار ملون مرت بسرعة من طرف الحديقة لعلها هى »

فصاحت المرضع : « نعم انها هى بعينها » . وهمت أن تتبعها فقال فوزى بك : « ارجعى ، انك لن تدركيها . ولا بد من يد جانية حملتها على هذا العمل »

فقال سعيد فى نفسه : « ان مقتل هذا الطفل أنقذ الامة من حروب أهلية فى التنازع على الملك »

وبينما هم فى ذلك اذ رأوا رجلا مسرعا نحوهم ينهب الارض نهبا ، فتوجهت الانظار اليه ، ولم يقترب منهم حتى عرف رامز أنه خريستو

خادم شيرين ، فخفق قلبه تطلعا الى حبيبته ، ومشى نحوه ، لكن الخادم لم ينتبه له وصاح : « فوزى بك ، فوزى بك ! » . وهو يلهث من التعب ، فتراجع رامز وأجابه فوزى قائلا : « ماذا تريد ؟ ما بالك يا خريستو ؟ »

فقال : « جئت لأنبهك الى جريمة يسعى بعض المفسدين فى ارتكابها . وأخاف أن أكون قد تأخرت لأنى لم أكن أعرف هذا المنزل »

فبغت فوزى وتحقق ظنه واقشعربدنه لضياع الفرصة بتأخر ذلك الرسول وقال : « نعم ، لقد كنت آتيا لتحذرنا من وقوع هذه الجناية وقد تأخرت ! »

فصفق خريستوا أسفا وقال:«يا للخسارة !..تبا لاهل البغى الاشرار!»

فقال البيك : « قل .. ماذا جرى ؟ من هو مرتكب هذه الجريمة ؟ »

قال : « انه جاسوس ملعون اسمه صائب باشا »

فلما سمع رامز ذلك الاسم قف شعر راسه وقال لخريستو : « أين هو صائب اللعين ؟ »

ولم يكن خريستو يلتفت الى أحد من الحاضرين غير فوزى بك،فلما سمع صوت رامز أجفل والتفت اليه وصاح : « سيدى رامز افندى . هذا أنت ؟ » . وأكب على يديه وأخذ يقبلهما ويذرف الدموع .. ثم تنفس الصعداء وقال : « الحمد لله الذى أرانى وجهك سالما .. ما هذه المصادفة؟ من لى أن أطير الى سيدتى شيرين وأزف اليها هذه البشرى ؟ »

قال : « أين هى الآن ؟ »

قال : « هى فى ضاحية مناستير بالجانب الآخر مع أبيها »

فابتدره قائلا : « وصائب أين هو ؟ »

قال : « تركته فى هذا الصباح هناك وفررت لنقل الدسيسة التى دبرها مساء أمس مع احدى النساء على أن تدس السم للطفل ، ولم يكن هذا اللعين عارفا بمكان سعادة الاميرالاى الا أمس بعد ان ضعف شأن الحكومة وتحقق أن الجند مع الجمعية ، فأراد أن يتمم مهمته بقتل الطفل خلسة ، فعلمت أنه يدبر هذه الدسيسة فأسرعت لأخبركم ، ولكن سبق السيف العذل ! »

فقال رامز : « نأسف كثيرا لفوات الفرصة » . والتفت الى خريستو وقال : « هل صائب هناك الآن ؟ » . قال : « نعم »

فالتفت الى فوزى بك وقال : « استأذن سيدى فى الذهاب لعلى اظفر بذلك المنافق فأذيقه الموت » . وودعه مع أبيه ومشيا مع خريستو ،

فسأله رامز فى أثناء الطريق : « ما معنى وجود هذا الملعون فى بيت سيدك وشيرين هناك ؟ »

قال : « اقص عليك الخبر يا سيدى باختصار . ان سيدتى لما يئست من رجوعك يوم سفرك الي يلدز صممت على الذهاب بنفسها الى هناك واستعانت بى فى هذا الأمر . فسافرنا الى الاستانة ومنها الى يلدز ، فمكثت فى يلدز بضعة أيام بين الخدم كواحد منهم . فلما عزمت سيدتى على الفرار مع القادين جئت فى خدمتها ، فوصلنا الى سلانيك بعد مدة طويلة ، فأحبت أن تسأل عن والدتها لأنها تركتها فيها فاستأذنت من القادين وفوزى بك ، وسرت فى خدمتها الى بيتها فوجدت أباها وحده ، فرحب بها واظهر لها كل العطف وقال لها : (ان والدتك آتية قريبا) . فندمت على مجيئها الى البيت لأن صائب باشا أتى فى الصباح التالى لزيارة والدها ، وقد صار باشا وتوسع فى النفقة واللبس والبذخ . وسمعت سيدى مرة يحبب اليها صائبا بأنه صار من أقرب المقربين الى السلطان ، وقد عول عليه فى انجاز أكبر مهامه لمعاكسة الأحرار ، وأن رامزا قتل ولا فائدة من انتظاره ، ولا تلبث الجمعية أن تتمزق .. وهى لا تجيب . واخيرا طلبت منه أن لا يخاطبها فى هذا الشأن مطلقا ، وهى الى الآن لا تعرف أنك حى ، ولكنها ثابتة فى حبك . وبعد أيام سافر صائب باشا لا أدرى الى أين . وظلت شيرين مع أبيها وهى حزينة لا يلذ لها طعام ولا شراب ، تسأل عن والدتها ولا تعرف مقرها ، وقد سمعت من الجيران أنها فى مناستير فطلبت الى أبيها أن ينقلها الى هنا فانتقل بها ، وهو لا يأذن فى خروجها ، ولا يسمح لها أن تكلم أحدا ، وقد ضيق على أيضا ، وحبسنى فى البيت ، وأصبح لا يكلفنى أن أشترى شيئا من السوق . فلما جئنا مناستير أنزلنا بالفندق الذى نحن ذاهبون اليه ، وقال لسيدتى انه بعث للبحث عن والدتها . وأنا لا أقدر على الخروج ، ولو عرفت أنك هنا لهربت اليك . وكان صائب فى أثناء هذه المدة يتردد على الفندق يحمل الهدايا ويتزلف ويتملق بكل وسيلة ، وسيدتى لا تعيره التفاتا حتى سمعته امس يخاطب تلك المرأة عن تسميم الطفل ، ورأيته يدلها على بيت فوزى بك ، وتحققت أن خروجى ينجى هذا الطفل من الموت ، وأخبرت سيدتى شيرين ، فأمرتنى بالخروج حالا ، لكننى تأخرت »

فقال رامز : « تبا لهذا اللعين .. الا يزال يتعقبنا ؟ قد انقضى أجله بلا ريب » . قال ذلك وأعد مسدسه وقد عزم أن يفتك به حالما يقع نظره عليه ، وأصبح يرتعد من شدة الغيرة والتأثر . وأعاد السؤال عن شيرين

وأحوالها ليلهو بالحديث بقية الطريق ، وبعد مسيرة ساعة لم يجدوا فى أثنائها مركبة يركبونها أطلوا على بيت ظهر لهم عن بعد بين البساتين فقال خريستو : « هذا هو الفندق » . فأسرعوا فى المسير ، وعمد خريستو الى الركض حتى سبقهما فرأياه وصل الى الفندق ودخله ، فأسرعا نحوه فاذا هو خارج بقلب كفيه من الفشل ويقول : « لم أجد فى الفندق أحدا »

فبغت رامز وقال : « أين ذهبوا ؟ »

قال : « سألت صاحب الفندق فأخبرنى انهم بعد خروجى فى هذا الصباح ركبوا وساروا الى حيث لا يعلم »

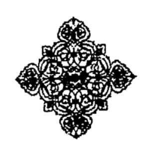
فقال سعيد : « يظهر أنهم شكوا فى أمر خروجك وخافوا ان تبلغ خبرهم للجمعية فانتقلوا الى مخبأ آخر » . فوقف رامز مبهوتا لا يقول شيئا . فقال له خريستو : « دع ذلك الى يا سيدى وأنا آتيك بخبره عاجلا . أين أجدك ؟ »

قال : « اترك الخبر عند سيدتك توحيدة فانها فى بيت أهلها (ووصف له البيت) واذا اقتضى الأمر مكاتبتى ، فهذا عنوانى » . وذكره له

فقال : « حسنا .. اتركانى وانصرفا »

فتركاه وعادا وهما لا يتكلمان ، والنار تتأجج فى قلب رامز ويتمنى أن يرى صائبا ليأكله أكلا . ولحظ أبوه فيه ذلك فقال : « دع ذلك عنك يا بنى ، وهلم بنا الى الجمعية لنزف لها نتيجة مهمتنا فى مشورة فوزى بك »

وابلغا الجمعية أن فوزى بك يرى الاسراع فى طلب الدستور ، فأرسلت الى القصر برقية طلبت فيها اعادة مجلس المبعوثان

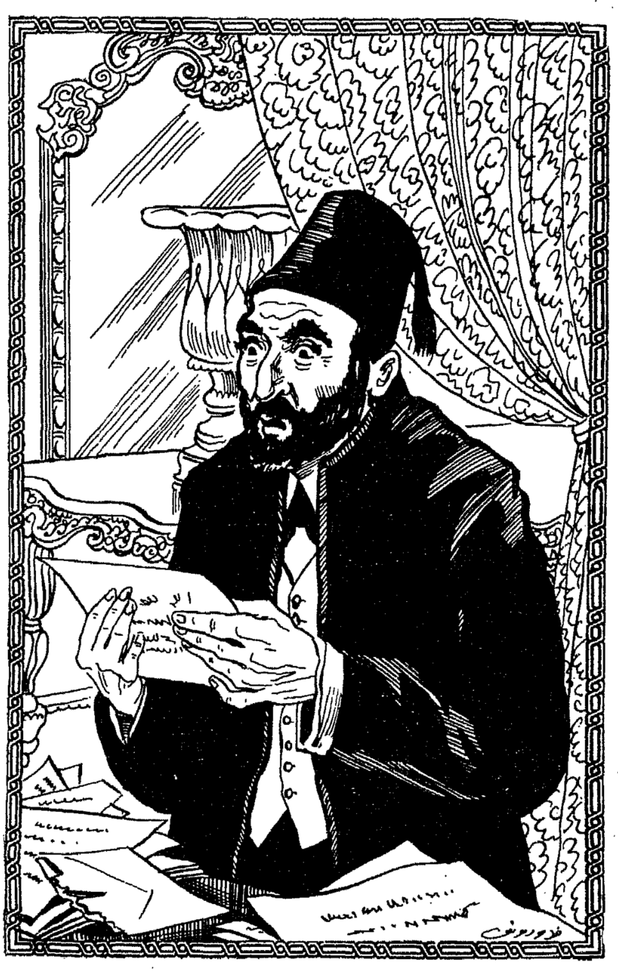


الفوز الأكبر

وقع الرعب فى قلب السلطان عبد الحميد ، لفرار القادين وهى حامل ، وتشاءم من فرارها ، ووجه عنايته الى مطاردة الجمعية والفتك بها ، وجعل معوله على شمسى باشا المشير . ولم يلبث أن أتاه نبأ مصرعه ، فخارت قواه وزادت وساوسه ومال الى العزلة للتأمل والتفكير . وعمد الى استطلاع الغيب على أيدى المشايخ وهم يطمئنونه . وانما كان جل تشاؤمه من وضع القادين . فبذل جهده فى تعقبها بعد فرارها حتى أخبره جواسيسه أنها فى مناستير مع فوزى بك ، وكان قد فوض الى شمسى باشا الأمر بالقبض عليهما ، فتعجلت الجمعية منيته ، ففوض ذلك الى عثمان باشا فقبض عليه ، واستحث فيلق الأناضول فلم يجبه فازداد فشلا . وكان صائب باشا يعلم رغبة السلطان فى ذلك ، فرأى أن يخدمه بقتل الطفل ، اذ يستحيل عليه القبض على القادين او الأميرالاى بعد فشل الحكومة . فعل ذلك من تلقاء نفسه والسلطان لا يعلم

وملأ اليأس قلب عبد الحميد وتراكمت عليه الهواجس بذهاب القوة العسكرية من يده فى مقدونيا والاناضول ، وتضاعفت وساوسه وأصبح يكره أن يرى رسولا قادما نحوه لتوالى أخبار السوء عليه حتى غدا لا يتوقع خبرا مفرحا ، ومال الى العزلة ، ولم يعد أحد يجسر على مقابلته ــ وان كان فى حال المقابلة لا يظهر عليه شىء من القلق لاقتداره الغريب على اخفاء انفعالاته ــ على أنه كان كيفما توجه تصور القادين ج أمامه ، واذا تصور وضعها شعر بخفقان قلبه

وبينما هو فى ذلك اذ جاءت محفظة البريد كالعادة فوضعوها على المكتب فى غرفة المطالعة وذهبوا . وأتى هو الى الغرفة فى الصباح فرأى المحفظة فلم يفتحها لئلا يكون فيها ما يسوءه . وفى الغداء لم يذق من الطعام قليلا لكنه أكثر من التدخين . فلما جاء الغروب وانقبضت الطبيعة لفراق الشمس حمله حب الاطلاع على فتح المحفظة ، وقد انيرت المصابيح فوق المكتب ففتحها وقلب ما فيها من الظروف ، فرأى بينها ظرفا عليه ختم مناستير ، وحالما وقع نظره على العنوان تسارعت دقات قلبه لانه بخط القادين ج ، فأخذ فى فتحه ويده ترتجف من التأثر ، ولما فضه وجد فيه



« ولما فض الظرف وجد فيه صورة فوتوغرافية لطفل حالما رآه أدرك أنه ابنه »

صورة فوتوغرافية لطفل عار ليس عليه من الثياب الا ملاءة بيضاء ووجهه يضحك كالملاك . فحالما رآه أدرك أنه ابنه . فلم يستطع التفرس فيــه طويلا فقلب الورقة ليخفى الصورة عن عينيه فرأى على ظهرها كتابة هذا نصها :

« هذه يا ظالم صورة ابنك الذى كنت تتعمد قتله وقتل والدته خوفا من أن يكون وجوده شؤما يذهب بدولتك . فها هو ذا قد وجد وأمه حية فى مكان لا يصل اليه سلطانك ، فاعلم أن تنجيم المنجمين قد صدق ، ولم يبق لك فى السيادة مأرب من هذه الساعة . تب الى الله وارجع »

ولم يكد يتم القراءة حتى اختلجت أعضــاؤه ، فاســتلقى على كرسى طويل تعود أن ينام عليه أحيانا ، واستغرق فى أفكاره وراجع تاريخ حياته وما مر بها من الأهوال ، وكم قتل من الأنفس وأنفق من الاموال فى سبيل حفظ سيادته والمحافظة على حياته ، وكان معوله على الجند فأصبح الجند ضده ولم يعد ماله ينفعه

وما زال فى أمثال هذه الهواجس ، وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما ، فغلب عليه النعاس ونام ، فتوالت عليه الأحلام المزعجة ، فتراءت له القادين ج تحمل طفلها على ذراعها وتقول له : « هذا هو ابنى وابنك ، فقد أفل نجم سـعدك ، دع الملك لأهله » . ثم تراءى له أن البوســفور قد جف ماؤه وانكشف قاعه ، وقد نبتت جثث القتلى بين صخوره كالاســفنج ، وكل اسفنجة تشبه واحدا من قتلاه قد حملق بعينيه فيه . وأخيرا رأى مدحت عائدا من الطائف يدرج على الارض جثة بلا راس ، حتى وصــل الى باب القصر فاذا براسه قد تدحرج من مخبئه واستقر على الجثة بين الكتفين ، وأخذ فى توبيخه ، فذكره بأمور كانت بينهما لا يعرفهما سواهما ، فأجفل واستيقظ ، ثم عاد فنام وعادت اليه الاحلام

وما زال فى ذلك الى الصباح وقد استيقظ على صوت الحاجب جاءينبئه بقدوم الباشــكاتب لأمر عظيم ، فأمر بادخاله ، فدخــل وفى يده رسالة جمعية الاتحاد والترقى فى مناستير تطلب الدستور ، فدفعهــا الى السلطان فحالما فتحها وقرأها لم يستغربها لانها أقــل مما كان يتوقعه على أثر تلك الوساوس . وكان يخاف أن يأتى الاحرار اليه فاتحين ، فيقع فى خطــر القتل ، وهو يبذل كل شىء فى سبيل بقائه حيا . فاذا هم يطلبون الدستور فقط بعبارة لطيفة جدا ، فأحس بضعفــه وعزم على الاجابة ، لــكنه دعا وزراءه وذوى شوراه وأخذ يباحثهم

ولم يكن الاحرار يشكون فى اجابة طلبهــم ، ولذلك كانوا فرحين ، وفى مقدمتهم الفدائيون والأبطال المحاربون أمثال نيازى وأنور . أما رامز فانه كان منغصا لفقد شيرين

كان طهماز قد فر من الفندق خوفا من وشاية خريستو بعد خروجــه

لعلمه انه من حزب رامز . وان هذا له عصبة قوية من جمعية الاتحاد والترقى فى مناستير ، فرجع بشيرين الى سلانيك ، وسبقه صائب الى هناك وعاد الى التردد والتزلف الى شيرين ولم يخبرها أحد ببقاء رامز حيا . وما زال صائب يطاولها حتى خاف فوز الاحرار بعد مقتل شمسى والقبض على عثمان وارسال البرقية الى القصر بطلب الدستور . وشعر بأنه لم يبق له عيش ، فألح على ابيها أن يعقد له عليها ليسافر بها . فاستخدم طهماز سلطانه الأبوى وخاطبها بلهجة صاحب السلطة الوالدية وفصل لها مزايا صائب باشا وما يرجوه من النعم على يده،وان رامزا صار ترابا ، فلم تزدد الا رفضا فقال لها : « ان السلطة لى وحدى فى تزويجك . وغدا يأتى القاضى ليعقد عقدك على صائب باشا . . اذ لا يجوز أن نخسر بسبب جنونك صهرا مثل هذا »

وكانت قد تعبت من تكرار الرفض وملت الجدال ، وقد أخذ الهزال منها مأخذا عظيما ، وايقنت بموت رامز وكرهت الحياة ، فلما خاطبها ابوها بهذه اللهجة سكتت لكنها أعدت خنجرا ماضيا خبأته تحت أثوابها،وعزمت اذا لم تجد لها نجاة ان تقتل صائبا وتنتحر

أما خريستو فما زال يقتص الآثار حتى علم انهم فى سلانيك فجاءها فى صباح اليوم المعين لعقدالقران ، فلما علم بقرب العقد والسفر سارع الى ارسال برقية الى رامز بأن صائبا هناك ليأتى سريعا . وهو مع ذلك يعلم أن رامزا يستحيل عليه الوصول الى سلانيك قبل صباح الغد اذ يكون قد قضى الأمر ، ولكنه فعل ما يمكنه . وهو لا يستطيع الدخول الى المنزل للوصول الى صائب . وأخيرا عزم على المخاطرة بحياته ، فاقتنى مسدسا خبأه بين أثوابه ، وجاء قبل ميعاد العقد بساعتين ، وجعل يترقب الفرص للدخول الى المنزل ، فرأى القاضى داخلا ومعه شاهدان ، فأراد أن يدس نفسه معهم ، فرفسه أحد الشاهدين رفسة القته على الأرض . فاستغرب خريستو اهتمام ذلك الشاهد به وارتاب فى أمره . فدار من جهة النافذة لعله يقدر أن يصوب المسدس من هناك فلم يجد منفذا . فرأى ان يخبر شيرين على الأقل ببقاء رامز حيا لعل ذلك ينعشها ويساعدها ، فكتب كلمتين على ورقة وذهب الى الجيران وكان يعرف خادمهم وبينهما صداقة متينة . فسلم اليه الورقة ليوصلها الى شيرين حيثما تكون

فأخذ الخادم الورقةودخل من باب المطبخ فلقىالخادم الجديد الذى جاءوا به للمأدبة فى ذلك اليوم فوقف يشاغله ويراقب حركات شيرين حتى رآها أتت المطبخ لتبعد عن أبيها وصاحبه ، فأسرع ورمى الورقة فى يدها وخرج

ففضتها فعرفت انها بخط خريستو فقرأت فيها : « ان رامزا حى وهو آت لنجدتك . لا تخافى »

فلم تتمالك أن شهقت من الفرح بغير ارادتها وصاحت : « رامز ! » . ثم تنبهت وخبأت الورقة ، ولما رأت أهل البيت انتبهوا لشهيقها أظهرت انها احست بألم شديد فى رأسها ، فلم يستغرب أبوها ذلك لعلمه بما لحقها من القهر . أما صائب فلمهارته فى الجاسوسية لم يصدق حيلتها ، وحدثته نفسه بأمر طرأ عليها من جهة رامز . وكان جالسا فى الصالون مع القاضى والشهود فأظهر أنه اهتم بأمر صحتها ، فأسرع الى غرفتها ووقف بالباب وقال لطهماز : « هل أدخل يا سيدى ؟ »

فقال : « تفضل يا باشا .. لعل وجودك يذهب ألمها »

فدخل وقد أرخت شيرين النقاب على وجهها لتخفى بكاءها ، فلحظ فى يدها ورقة ، فأصبح همه أن يتناول تلك الورقة من يدها بالحيلة ، فقال : « دعينى أجس يدك لأرى ما بك » . ومد يده نحوها

فاستلت يدها وخبأتها وراء ظهرها ، فمد يده الى هناك فوقفت ونفرت منه ، فتبعها وأظهر أنه يريد الاطلاع على تلك الورقة عنوة . فتمنعت وصاحت فيه بلهجة الاستخفاف وقد عادت اليها قوتها لما علمت ببقاء رامز حيا وأنه آت لنجدتها فقالت : « ابتعد عنى يا رجل .. »

فصاح أبوها بلحن التوبيخ : « ما هذه الجسارة يا شيرين ؟ ألا تعلمين انك بهذه الوقاحة تحطين من قدرى ؟ »

فقال صائب : «دعها يا سيدى،انها متألمة،وأنا أحب آن أرى الورقة التى فى يدها» . فقالت : « ما لك ولها ؟ . الأحسن لك ألا تعرف ما بها لانها تحمل اليك الشر ! » . فضحك وقال : « وماذا عسى أن يضرنى ؟ » . والتفت الى أبيها وقال : « يظهر أنها حتى الساعة لم تدرك من أنا . . . فيالضيعة المحبة . هاتى الورقة »

فابتسمت وقد ذهب بعض امتقاع وجهها من ذكرى رامز وقالت : « ألا بد من اطلاعك على هذه الورقة ؟ . خذها » . ورمتها اليه وجعلت تتفرس فيه لترى ما يبدو منه وقد استعدت للدفاع بالخنجر المخبأ فى أثوابها

فلما قرأ الورقة ضحك ضحكة التهكم وقال : «انهم يهزأون بك . ان رامزا اصبح ترابا نجسا مثل سائر رفاقه الأغرار ، وسترين مصيرهم جميعا »

فلم تصبر شيرين على سماع ذلك الطعن فى رامز فخرجت عن تعقلها وصاحت فيه : « اخسأ يا نذل . ابمثل هذا الكلام تذكر رامزا ؟ . عار عليك .. ولكنك لا تعرف العار ، لأنك لا تشعر .. ولا ضمير لك »

وكان صائب يعلم أن ما فى الورقة صحيح ، وان رامزا لا بد أن يأتى اذا عرف بوجودها ، وأن الأحرار فائزون . وتحقق أنها لم تعد تقبل الزفاف اليه ، فعزم على الانتقام منها بالقتل قبل أن يأتى أحد لنجدتها فأخرج

مسدسه وشهره عليها . وقال : « الا ترجعين عن غيك ؟ » . ولما رآه طهماز يشهر المسدس حسبه يهددها فأمسك بيد ابنته ليوبخها فانتثرت منه وقد اصبحت كاللبؤة الهائجة . وهمت أن تستل خنجرها وتطعن صائبا ، فرأت باب الغرفة قد فتح بقوة وسمعت طلقا ناريا وقائلا يقول : « هذا عن جمعية الاتحاد والترقى » . ثم سمعت طلقا آخر وقائلا يقول : « وهذا عن رامز » . وصاح صائب صيحة الألم وسقط على الارض يتخبط بدمه وسقط مسدسه من يده

فوقع الرعب فى قلب طهماز ، ونظر نحو الباب فلم يجد احدا لأن الضارب اطلق مسدسه ونجا ، فتناول الورقة التى كانت فى يد صائب وقرأها ، فلما علم فحواها خاف ، لكنه أخذ يصيح : « ويلاه ! من ارتكب هذه الجريمة فى بيتى ؟ » وهرع الى الدار فوجد القاضى ومعه شاهد واحد وهما فى خوف ، فقال له طهماز : « ما هذا ؟ من فعل ذلك ؟ »

فقال القاضى : « لا أدرى يا سيدى ، ولعل الشاهد الآخر فعله .. والظاهر انه من اعضاء تلك الجمعية السرية وقد تنكر بثياب شاهد ووقف بباب المحكمة الشرعية ، فلما طلبت شاهدين أتونى بهذين وهو واحد منهما »

وتقاطر الجيران على صوت الرصاص حتى امتلأ البيت بالناس

اما شيرين فلما رأت صائبا مجندلا سرها أنه لم يقتل بيدها لأنها تنزه نفسها أن تكون قاتلة

فغطت وجهها بكفيها وخرجت الى غرفة أخرى واقفلت الباب عليها وتركت أهل الدار يهتمون بتلك الحادثة . وبعث طهماز رسولا من قبله الى مدير البوليس ليبعث أحدا لضبط الواقعة ، وأوصى الرسول أن ينبه المدير الى أن المقتول صائب باشا ، ظنا منه أنهم يهتمون ويسرعون للبحث عن الجانى من أجله . وصائب الى تلك الساعة ذو مقام رفيع لدى الحكومة طوعا للأوامر الواردة بشأنه من القصر . ومكث الناس فى بيت طهماز ينتظرون مجىء البوليس والجثة مطروحة فى الغرفة ، وقد أغلقوا عليها الباب ، فطال انتظارهم

فلما استبطأوا الرسول أرسلوا سواه وسواه ولم يعد أحد . وفيما هم فى ذلك سمعوا ضوضاء فى الشارع والناس يصيحون : « الحرية ، والمساواة والاخاء ... الدستور ... الدستور ، ليحيى الجيش لتحيى الأمة » . فأطلوا فرأوا جماعات الناس يحملون الأعلام ويطوفون الاسواق ، يهنىء بعضهم بعضا ويتعانقون ويتصافحون على اختلاف مذاهبهم وعناصرهم . وهم ضاحكون فرحون وقد قام الخطباء والشعراء يخطبون وينشدون فرحا بالدستور

ولم يكن طهماز ولا جيرانه أو غيرهم ممن فى تلك الدار يعلمون شيئاً من ذلك . ثم علموا أن السلطان أجاب طلب الاحرار باعلان الدستور فى ذلك اليوم ، وأن الجند ورجال الحكومة مشغولون بالاحتفال والفرح ، وأن مدير البوليس وغيره من صنائع القصر هربوا واختبأوا ، وصارت السيادة الى أعضاء جمعية الاتحاد والترقى . فرأى طهماز أن التستر أولى به ، وأصبح خائفا على نفسه ، فأشار الى القاضى أن يدبر غسل صائب ودفنه بعد أن يخرجه من منزله ، ودفع اليه المال اللازم ، وأصبح همه مرضاة ابنته لعلمه أنها من الأحرار ، وأن رامزا لا يزال حيا ، وهو آت ؛ فعزم على استرضائها

وكانت شيرين قد أغلقت الغرفة عليها لتنسى منظر صائب الأخير . وأخذت تفكر فيما قرأته عن رامز وقرب مجيئه . ثم سمعت الضوضاء فى الدار فلم تعبا بها لانها كانت تتوقع شيئا من ذلك ريثما تضبط الواقعة ، فتحولت نحو نافذة تطل على بستان فرأت خادمها خريستو يتشوف اليها فأشارت اليه أن يأتى ، فهرول نحوها وهو يرقص من الفرح فقالت : « أين رامز ؟ »

فقال : « ربما يأتى فى صباح الغد » . وقص عليها ما فعله باختصار ثم قال : « يظهر أن مقتل صائب أزال عن الأمة المصائب لا عنك فقط »

فقالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « ألم تسمعى الضوضاء فى الاسواق والناس يصيحون فرحين بنيل الحرية والدستور ؟ »

وكانت خالية الذهن من كل شىء لأنهم منعوا عنها الجرائد والأخبار فصاحت : « الدستور ؟! الدستور ؟! ماذا تقول ؟! »

قال : « نعم ياسيدتى ، قد طلب الاحرار من السلطان أن يمنحهم الدستور فأطاعهم ، ولذلك حديث ستسمعينه من سيدى رامز أفندى »

فلم تصدق نفسها لغرابة الخبر ، وقد تراكم عليها الفرح من كل ناحية حتى ظنت نفسها فى حلم ، ثم تذكرت أمها فقالت : « ووالدتى أين هى ؟ »

قال : « هى فى خير بمناستير ، وربما تأتى مع سيدى رامز . اصبرى الى الغد »

وبينما هى فى ذلك اذ سمعت قرعا بباب غرفتها فسألت : « من ؟ »

فأجاب : « أنا طهماز والدك »

فنهضت وفتحت الباب ، فرأت الدمع فى عينيه ، وقد أكب على ابنته يقبلها ويقول : « أهنئك ياحبيبتى بنيل الدستور وببقاء رامز حيا . قرب الله خطواته لنفرح به وبك »

فلم تستغرب هذا الانقلاب من أبيها لعلمها بضعفه ، وكثيرا ما كانت تغضى عن اساءته حتى فى ابان ضغطه عليها بشأن رامز ، وكانت تعذره لقصر

ادراكه ، فلما رأته داخلاعلىهذه الصورة نسيت اساءته وقبلت يده وقالت : « احمد الله على ذلك ياسيدى » . ثم قالت : « ادع خريستو الخادم ، انه فى الخارج »

فأسرع اليه وناداه فدخل فقالت له : « دبر امر هذا البيت »

اما رامز فان برقية خريستو وصلت اليه فى ساعة وصول برقية السلطان الى الجمعية بقبول طلبها اعلان الدستور ، فأصبح فى حيرة لايدرى هل يذهب ويترك القوم يفرحون وحدهم أم يبقى ؟

واخيرا استأذن فى الذهاب الى سلانيك فى أول قطار ، وحمل توحيدة معه ، وكان ابوه غائبا عن مناستير فلم يخبره بسفره . فوصلا فى صباح اليوم التالى فوجد خريستو على المحطة فى انتظارهما ، وقص عليهما ماجرى ، فتأسف رامز لأنه لم يقتل صائبا بيده . ولكنه عرف القاتل ، وهو الفدائى الذى تبرع بذلك فى الجلسة الاخيرة للجمعية ، وركبوا ورامز يلاحظ حركات الناس فى تلك المدينة ومقدار اغتباطهم بالدستور . فلم يكن يجد الا جماعات يتكلمون عن الدستور ويتبادلون التهانى ، والشوارع غاصة بالناس ، وقد تعانق الشيخ والقسيس والحاخام

وكانت شيرين قد قضت ليلها ارقة من الفرح بقدوم رامز ، فلما اصبح الصباح بعثت خريستو لاستقباله . ولما سمعت صوت المركبة أسرعت الى النافذة فرات والدتها ورامزا نزلا من المركبة ، فأسرعت الى استقبالهما بالباب ، فضمتها والدتها وقبلتها وبكت بكاء الفرح ، ثم سلمت على رامز وقلبها يخفق . فرأى رامز تغيرا كثيرا فى لونها ولم يفته السبب

ولم يكد يصل الى الدار حتى استقبله طهماز وضمه الى صدره واخذ يقبله والدمع فى عينيه ويقول : « الحمد لله على سلامتك ياعزيزى ! » . وكان رامز مثل شيرين من حيث حكمها على طهماز ، فالتفت رامز الى شيرين عند ذلك كأنه يستشيرها فى شأن ابيها ، فأومأت اليه أن يغض النظر عما مضى ، فقبل يد عمه وجلسوا يتحادثون ، واكثر الحديث بين رامز وشيرين ، ولو أردنا بسطه لأعدنا أكثر ما جاء فى هذه الرواية

وفى اليوم التالى أتى أبوه ووافق على الاغضاء عن ذنب طهماز لعلمه بضعفه وقال . « ان جمعية الاتحاد والترقى شأنها الاغضاء عن السيئات . وليس فى الدنيا من أساءهم مثل عبد الحميد . فلما نالوا الدستور أغضوا عما مضى وعدوه والدهم وتبركوا به فكيف بوالد الحبيبة ؟ عفا الله عما مضى »

وبعد قليل تكاثر الاحرار فى سلانيك من الضباط والملكيين أصحاب رامز ، وكانوا يحبونه لأنه كاتبهم وشاعرهم . فاحتفلوا باقترانه احتفالا حضره نخبة الأحرار ، وفيهم أنور ونيازى والاميرالاى فوزى بك والقادين ج والدكتور . ن . وكان قد فرغ من مهمته فى يلدز . وجمع كبير من الاحرار ، وكان فرح العروسين مزدوجا باجتماع الشمل ونيل الدستور

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها:

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخراساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان